عزيزة عبد الله

تهمة وفاء

دار الشروق

صفحة فارغة

تهمة وفاء

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk, com.

بسم الله الرحمن الرحيم

من الصعب ذكر الأسماء الحقيقية لأبطال هذه الرواية. لكنني وجدت أنه لمن الظلم، أنه لا يجوز تجاهلهم كليًا. لذا سوف أكتفي بالرمز.. فإلى إبراهيم وإلى أبي معاذ أهدي قصتهما كما أهديها لكل من لا يزال متمسكا بالوفاء حتى بعد أن صار تهمة..

عزيزة عبد الله

الخميس ١٠ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ، الموافق ٢٠/٦/٢٠٠٢م.

صفحة فارغة

تهمة وفاء

عزيزة عبد الله

طفح الكيل بالدكتور وضاح. بعد تلك المقابلتين الصباحيتين، لم يعد يحتمل المزيد. تلك المقولات التي كان يرددها. لم يعد ثمة مفر على ما يبدو من التخلي عنها...

ما كان يردده لمن كان يأتيه شاكيا من الحال والوضع الذي لا يحتمل. ارتد عما كان يقول: «لو أن كل واحد منا حينما تواجهه مشكلة يفكر في الرحيل، فعلى الأرض السلام»، بعد أن يقول هذه الكلمات ويحس برجع الصدى. يواصل ويقول: «من الواجب علينا أن نتحمل ونصبر ونواجه إذا كنا حقا نفكر في مصلحة بلادنا وفي إخراجها من الجهل والتخلف. يقول للشاكي: «أنت لا تفكر إلا في نفسك وتنسى أهلك وبلدك. والتفكير في إصلاح ما يمكن إصلاحه، تختار الهروب إما بالإعارة أو بالهجرة. أنت إما أناني أو جبان».

هاهو اليوم يتخلى عن كل ذلك. غسل يده وسلم واستسلم. لم يعد يفكر إلا في قبول واحد من العروض التي يتلقاها كل يوم تقريبا.. من بينها عروض من جامعات في دول الخليجّ وبمرتبات وامتيازات لو عرضت على الوزير نفسه لقبلها بدون تردد.

التجاوزات والمخالفات التي كانت ترتكب في السابق. كان يردها إلى رواسب الماضي ومخلفاته. كان يحدوه الأمل بأن كل ذلك سوف يتغير مع بذل المزيد من الجهد في توعية المواطن بما له وما عليه. لكن وضاح بعد ما حدث اليوم في مكتب الوزير، انحصر تفكيره في العودة إلى الولايات المتحدة الأمريكية إما إلى واشنطن وقبول العرض الذي تلقاه من جامعة «جورج تاون» التي منحته شهادة الماجستير في القانون. أو إلى نيويورك والعمل في جامعة كولومبيا التي درس بها الفلسفة هي الأخرى تراسله. لم يعد أمامه إلا قبول إحدى تلك العروض المغرية التي رفضها مرارا..

بعد تلك المقابلتين الصباحيتين الصاخبتين في مكتب الوزير، واليوم الطويل من المعاناة والجري بين المؤسسات والدوائر الحكومية. ولم يجد من يقف إلى جانبه ويوقف الصفقة

المريبة التي قد تتم إذا لم يتحرك الكل لإيقاف العبث بأموال الشعب. عاد إلى منزله منهوك القوى. استقبلته زوجته وأخبرته بالمكالمة التي أجرتها وبما لمحت به صديقتها صفية عاملة الهاتف. لم تستفسر أو تطلب المزيد من الشرح. إذ كانت ملامحه تشي بالكآبة والهم، فاحترمت صمته غير المسبوق وفضلت السكوت. وضعت الطعام أمامه وجلست إلى جانبه وهي تتأمل ذلك القلق المخيف الذي يظهر في نظراته الزائغة التي لم تعهدها. فكرت في جره للحديث عله يتمكن من أن يفجر غضبه المكتوم. لم تفلح. لم يفتح فمه بكلمة واحدة أو ينظر إلى الطعام الذي وضعته على الطاولة بعد أن كانت قد تفننت في إعداده وتحضيره بالطريقة التي تروق له، طبق الفتة الذي يفضله بالذات إذا كان على الطريقة التي تعده والدته. أمة العلي كانت قد أتقنت عملها منذ أن أخبرتها أخت زوجها بأن الفتة بالسمن والعسل هي أكلته المفضلة، لم يقرب الفتة، بعد أن كانت قد أعادت تسخينها أكثر من مرة، اكتفى بتناول قطعة من الخبز غمسها في إناء الحلبة ووضعها في فمه وقام وتناول الهاتف وحاول أن يجري بعض المكالمات. في بعض المرات يقفل الخط قبل أن يضرب الجرس وأحيانا يجده مشغولا ولا يعيد المحاولة. زوجته عادت وناولته قطعة من الخبز الذي أحضرته من بيت حماتها عندما عرجت على البيت الكبير لأخذ التوأم. تناول قطعة صغيرة في تكاسل وغمسها في إناء الحلبة ووضعها في فمه، ثم نهض واقفًا دون أن ينبس بكلمة. لم تجرؤ أمة العلي أن تطلب منه الجلوس وتناول طعامه. هي الأخرى اكتفت بغمس بعض اللقيمات في طبق الحلبة ورفعت الطعام وهي لا تزال ملتزمة بالصمت المطلق. نهضت خلفه وبدأت في رفع الطعام. خلال دخولها وخروجها من وإلى المطبخ رأته يقف قرب النافذة بعد أن شرع دفتها العليا. سمعته ينادي سبأ ولدهم الأكبر. أخبرته أنه ذهب مع أقرانه للعب الكرة في الساحة المجاورة. يقول كيف تسمحين له بالخروج قبل أن يتناول طعامه؟.

* لقد تناول طعامه وكتب واجبه وساعد نشوان في حفظ ما عليه من دروسه.

- بكل هذه السرعة؟!.

- أنت الذي لم تدرك الوقت. تأخرك اليوم زاد عن كل يوم.. الكلمات الأخيرة خرجت من فمها همسا وكأنها تحدث نفسها. استمرت أمة العلي في همهمتها غير المسموعة وكأن لا هم لها إلا لأنه تأخر. قالت: «الأيام التي تكون فيها محاضرات لا تتأخر إلى هذا الوقت». لم يسمعها. حتى وإن سمعها فلن يعلق أو يشرح. ماذا يشرح وما ذا يقول؟ هل يخبرها بأحداث يومه العصيب أم عن الصفقة المريبة التي هي في طريقها لا محالة إذا لم يتحرك الكل لإيقافها. أو يروي لها ما تعرض له من إهانة لكرامته..

أمة العلي لازالت في حوارها الصامت مع ذاتها. لم يكن غريبا عليها تأخره. سبق له أن تأخر في بعض المرات ولكن ليس إلى هذا الحد الذي جعلها تقلق خاصة أنه لم يتصل بها. أو يخابرها عما نقلته لها عاملة الهاتف. وزاد من قلقها ما تراه على سحنته من تجهم. كانت قد عادت من عملها في وزارة التربية في الوقت المحدد. عادة تترك الوزارة في الواحدة وتعرج على حماتها وتعود بالتوأم وتكمل بقية تحضير الطعام. في بعض المرات يعود قبلها، يضع الملفات على طاولة مرتفعة لا يصلها عبث الصغار عند عودتهم، ويشمر عن ساعديه ويمارس هوايته في إعداد الطعام. تلك الهواية التي كانت تربك ميزانية الأسرة لأنه كان يهدر الكثير من المواد الغذائية التي كانت قد أعدتها لأسبوع كامل، حتى تقنعه بالانصراف. لم تجد أمة العلي سوى الاستعانة بحماتها لصرفه عن دخول المطبخ إلا بحضور أي منهما. واكتفى بعدها بمساعدتها في إعداد السلاطة وتحضير الطعام، وصار إذا عاد قبل زوجته إلى المنزل يغير ثيابه ويعكف على مراجعة الملفات والقضايا التي أحضرها معه من الوزارة أو من الجامعة. إذا كان الهاتف صالحا للعمل يجرى بعض المكالمات مع زملائه من القضاة ومراجعتهم في بعض الأحكام التي يشتم فيها رائحة التلاعب. وقد ينجح أحيانا في أن يرد بعضهم إلى جادة الصواب وإعادة النظر فيما كانوا ينوون ارتكابه في حق مواطن لا ظهر له. غالبا ما تعود أمة العلي وهو ما يزال في معركته مع شخص ما على الطرف الآخر. ثم تحاول تهدئته وفي نفس الوقت تحمد الله أنه لم يسبقها إلى ممارسة هوايته السابقة في الطبخ.

بعد أن ينهي مكالمته يتبعها إلى المطبخ ويشتركان معا في تحضير طعام الغداء. إذا ما كانت قد جلبت مستلزمات الطبخ وأعدت كل شيء في اليوم السابق ووضعته في الثلاجة، قبل أن تخلد إلى النوم. في الصباح ينهضا كالعادة في وقت واحد، هو يعد الأولاد للحضانة أو المدرسة، وهي تعد الإفطار وتكمل ما تأجل من تنظيف المنزل. بعدها يذهبان إلى العمل. أكثر الأيام تعود قبله بعد أن تكون قد عرجت على بيت والدته في طريقها وعادت بالتوأمين الصغيرين فاطمة وعبد الرحمن اللذين جاءا بعد خمس سنوات من مجيء ابنتهما أروى التي انضمت إلى أخويها سبأ ونشوان. جاء التوأم خارج المخطط. تقبلا الغلطة بصدر رحب.

اليوم الحالة التي يبدو عليها الدكتور وضاح وما سمعته أمة العلي من عاملة الهاتف وتأخير زوجها إلى ما بعد الخامسة. كل ذلك جعلها في حيرة لا حدود لها وفي حالة من التكهن والترقب لما قد يطرأ على حياتهما التي اضطربت ولم تعد مستقرة بعد أن صار النائب الأزلي ضد زوجها وأصبح يحرض الوزير ويهمس له بأن وضاح قد تجاوز حدوده ويتصرف وكأنه فوق الوزير وليس وكيلا للوزارة من ضمن عدة وكلاء. سبب ذلك الحقد وتأججه في صدر

النائب كان قد زاد منذ أن روج البعض بأن الدكتور وضاح سيتم تعيينه نائبا للوزير. بعد تلك الإشاعة التي لا أحد يدري هل كانت صحيحة أم تكهنات مثل بقية التكهنات التي تنتشر وتروج كلما ساءت الأحوال وتدهورت في الوزارة. البعض يطلق الإشاعات للترويح عن النفس والبعض يصدقها متأملاً أن تتحسن الأحوال. لم يحدث أي تغيير أو تحسن في الوضع. كل الذي حدث بعد إشاعة تعيين الدكتور وضاح نائبًا للوزير، هو أن النائب صار يكيد له في كل مكان. لم يكتف بتحريض الوزير ضده. صار بين فترة وأخرى يدفع بالتقارير الكيدية إلى المحكمة العليا وإلى وزارة الداخلية مدعيا بأن وضاح بأسلوبه الذي يدعي بأنه الأمثل لمكافحة الجرائم ما هو إلا وسيلة تشجع الخارجين على القانون في التمادي في ارتكاب المزيد من المخالفات. بعض تلك التقارير الكيدية كان يصل إلى يد الدكتور وضاح عن طريق زملائه في المحكمة العليا الذين يدرِّسُون في الجامعة. كان يطلع عليها ثم يهملها تماما. قد يحمل بعضها ويعود بها إلى المنزل وتطّلع عليها زوجته قبل أن يلقي بها في سلة المهملات تسأله قائلة: «ماذا ستفعل بشأنها»؟ يرد: «لاشيء».

على أن الدكتور وضاح كان يعلم بأن النائب يناصبه العداء حتى من قبل أن تروج إشاعة تعيينه نائبا. ومن قبل تعيينه بدرجة وكيل بل ويدرك عدم ارتياحه له منذ أول يوم التحق بالوزارة. ومع ذلك لم يحاول معرفة السبب. اكتفى بأن يقوم بواجبه على أحسن وجه بدقة وموضوعية وبدون تحيز لطرف ضد آخر في أي قضية توكل إليه. يدرس كل جوانبها ومداخلاتها ولا يتورع عن الذهاب بنفسه إلى المكان الذي حدث فيه النزاع سواءً على قطعة أرض أو عقار لاستكشاف الحقيقة على الطبيعة. يسأل الشهود كل واحد على حدة يسجل شهاداتهم ويقارن بينها ويحللها. في مرة من المرات التي أصر على الذهاب إلى مسرح الجريمة التي ارتكبت في مدينة الأصبحي، وكان ضحيتها عدد من التلاميذ ومدرستهم. لم يقتنع بالتقارير الأولية التي تقول إن دافع الجريمة يتعلق بالشرف. ذهب بنفسه وقابل المدرسين والعديد من جيران مرتكب الجريمة، حتى تأكد أنه مصاب بإحباط شديد بعد فقدانه عمله وتفكك أسرته بسبب البطالة وحالة الفقر التي حولته من محسن إلى طالب حسنة، مما دفعه للشك في سيرة طفلته التي لم تكن قد تجاوزت الثانية عشرة من عمرها. الأمر الذي أدى إلى إصابته بخلل عقلي وارتكاب تلك الجريمة الشنعاء في حق ابنته وبقية التلاميذ ومدرستهم، ورغم أن النتيجة التي آلت إليها القضية بعد مداولات وتحقيقات مطولة وضمنها التقرير الذي رفعه إلى الوزارة، إلا أن النائب لم يرتح له، إذ كان يريد أن يصبغ على الجريمة صفة سياسية، وأن الذي ارتكبها لم يكن شخصًا محبطًا ومختل العقل. بل إن من يسمونهم «الانفصاليون» هم الذين حرضوه على ارتكاب الجريمة.

بعد أن سارت القضية مسارها الطبيعي وحوكم مرتكب الجريمة وحكم عليه بما يستحقه. لم يعد الدكتور وضاح يهتم بغضب النائب. قفل الموضوع تمامًا وهكذا بعد كل قضية يختلق له النائب قضية وتهمة جديدة. اليوم وجد النائب أن أفضل طريقة تقضي على وضاح هو أن يشركه في مفاوضات مشبوهة تجرده من فضيلة النزاهة التي يتمتع بها وتخلصه من تهمة الوفاء للمبادئ التي يتعالى بها. حرص على أن يكون حاضراً خلال المقابلة التي سيتم فيها أخذ الرشوة التي يعرضها ذلك الشخص المعروف بالفساد والإفساد. لم يكتف النائب بتلك المقابلة وما حدث خلالها أصر على حضور وضاح المقابلة الثانية، وأن يشترك في مفاوضات الصفقة المدمرة. أمة العلي لم تكن على علم كامل بتفاصيل ما دار اليوم في الوزارة. لم يعد يهمها ماكان في السابق. الذي تريده الآن هو أن يتمكن من أن يحل المشكلة الجديدة التي تقرأ في وجهه أبعادها وخطورتها. وجدت بأن ما يعانيه فوق طاقته. كل تصرفاته تقول ذلك.

في السابق كان زوجها عند عودته من العمل غالبًا ما يكون سؤاله الأول عن التوأمين اليوم لم يسأل لتخبره بأنهما قد خلدا للنوم. ولم يعقب بعد أن نادا سبأ وأخبرته أنه ذهب للعب الكرة في الساحة المجاورة، وأن هذه هي آخر مرة سيلعب ورفاقه في تلك الأرض الفضاء لأن صاحبها قام ببيعها لأحد المستثمرين الذي ينوي أن يقيم عليها سوقا تجارية، ولم يسأل كذلك عن بقية الأولاد نشوان وأروى. حالة القلق على زوجها كانت شاغلها، لم يسبق له وتأخر حتى هذا الوقت دون أن يخابرها هاتفيًا. ذهبت إلى الديوان الذي حولته إلى مكتب. تناولت الأجندة التي يسجل بها كل مواعيده. لم تجد أي موعد يجعله يتأخر إلى هذا الوقت. ! أعادت فحص الأجندة وتأكدت أنه في هذا اليوم لا يذهب إلى الجامعة، وليس لديه أي محاضرة أو مقابلة في مكان آخر. لو كان هناك أي موعد طارئ كان أخبرها به أو وجدته مكتوبًا في الأجندة. من عادته أن يسجل كل مواعيده حتى التواريخ التي يجب عرض التوأم على طبيب للفحص أو تطعيم، أحيانا قد يتأخر إذا كان هناك اجتماع في المحكمة العليا. فإن كان عاجلا يخبرها هاتفيًا، وإذا لم يجدها يترك لها خبرا مع عاملة الهاتف في الوزارة التي تتواصل معها في العادة كلما كان هناك أي نشاط ما في الحزب الذي تنتميان إليه.

اليوم لم تطلبها حتى قامت هي بطلبها لتستفسر عن زوجها الذي لم يعاتبها لأنها سألت عنه في الوزارة. ولم يهتم بما قالته لها عاملة الهاتف من أنه غادر الوزارة في وقت متأخر ولاتدرك إلى أين إذ كان في نظرها فوق الشبهات. أرادت فقط أن تطمئن عليه. هي متأكدة بأن عاملة الهاتف لم تخف عليها أي شيء. . أخبرتها بأن هناك جدلا كبيرا وخلافا حادا دار ولازال يدور في الوزارة. لكنها شكت بأنها تخفي عليها حدثا جللا حدث لزوجها. .

الدكتور وضاح على علم بأن زوجته وعاملة الهاتف من العضوات النشطات في الاتحاد

النسائي. سبق وحمل بعض الرسائل المتبادلة بينهما وهو قد حاول أن يحجم من نشاط زوجته الاجتماعي بعد مجيء التوأم. لكنه بعد أن وجدها تؤدي واجباتها الأسرية على أحسن وجه ولم تقصر نحوه والأولاد شجعها على الاستمرار. حتى بعد أن تشكلت الأحزاب وصار الكل يسعى لاستقطاب العنصر النسائي إلى صفه. خاصة الأحزاب التي صبغت على نفسها الصفة الدينية التي كان لها النصيب الأكبر في اجتذاب الجنس اللطيف. أمة العلي وعاملة الهاتف كانا في حزب واحد حدث ذلك بدون ترتيب أو تنسيق سابق كان ذلك لقناعة مشتركة بمصداقية توجهات الحزب. بعد تشكيل الأحزاب في الانتخابات الثانية صادف أن كانتا في دائرة انتخابية واحدة وانتخبتا مرشح هذا الحزب لعضوية مجلس النواب. وأعداد كبيرة من الناخبين أيضا منحت أصواتها له. مما دفع الكثير من المراقبين أن يتوقعوا فوزه بأغلبية الأصوات. . عند الفرز تبين أن هناك عدة صناديق اختفت من الدائرة لسبب غير معلوم، فكان الفوز من نصيب غيره. .

قلق أمة العلي على زوجها استدعى تلقائيا ذكرياتها الأليمة حول ما جرى في انتخابات تلك الدائرة. قفلت الخط بعد أن أخبرتها عاملة التليفون بأن زوجها غادر الوزارة إلى جهة لاتعرفها. كانت قد فكرت في طلب حماتها عله قد عرَّج عليها أو على شقيقته. لكنها تراجعت مخافة إزعاج الأم التي لم يعد خافيا عليها حالة ولدها في الشهور الأخيرة، لم يسبق للدكتور وضاح أن شكا أو تبرم من شيء. كله أمل بغد أفضل.

مرت الساعة بعد الساعات. لم تتناول طعامها. ظلت تنتظره وقد ارتدت ثوبا يحبه غامق الخضرة ومقفل تمامًا وله أكمام طويلة تنتهي بكشكشة عند الكفوف وينزل إلى مستوى القدمين. . وراحت تنتظر. أخيرا سمعت صوت محرك سيارته يقترب من المنزل. استقبلته على باب الدار. لم يسبق لها ورأته بذلك المنظر الذي أوحى لها بأن يوم زوجها كان عاصفًا، وأن هناك بوادر لتحول كبير في حياتهما. هاهو التجهم و الكدر يكسو وجهه دون أن تتفوه بكلمة تناولت الملف من يده ووضعته على الطاولة الخشبية المرتفعة التي تحتل الركن الأيمن من باب المنزل الذي استأجراه بعد أن رزقا بالتوأم. أمة العلي خلال الانتظار وترقب عودة زوجها تذكرت اليوم الذي أخبرتها فيه الطبيبة بأنها حامل بتوأمين وكيف أنها كانت تفكر في التخلص من الحمل. ولكن الدكتور وضاح رفض عملية الإجهاض وجاء التوأم فاطمة وعبدالرحمن. لم يستطع أحدهما أن ينكر سعادته، برغم الأعباء المالية والضجيج الذي زاد بعد مجيئهما، اضطرا إلى الانتقال من منزل الأسرة إلى سكن مستقل، ومع انشغال أمة العلي التي تعود محملة بملفات من إدارة المنطقة التعليمية ويضطر لمساعدتها في مراجعتها، إضافة إلى العناية بالخمسة أطفال الذين بالتأكيد لم يكن عددهم قد دار بخلدهم قط. كانا قد اتفقا

بعد زواجهما على أن يكتفيا بطفلين. جاء سبأ وبعده نشوان. لكن أمة العلي ظل يحز في نفسها. تريد بنتا. حملت للمرة الثالثة وكان لها ما أرادت. سعدت بمجيء البنت كذلك الدكتور وضاح لم تقل سعادته عن فرحتها التي محت متاعبها بين العمل خارج المنزل والعناية بالأطفال الثلاثة وشئون المنزل. حماتها تساعدها في ذلك، لكن كان عليها قبل أن تترك أن تعد كل ما يلزم الأطفال حتى تتوجه إلى عملها، ولأنها وزوجها يجمعهما الشغف بتاريخ اليمن وحضارته من هنا أطلق على الطفلة اسم أروى. تيمنا بالسيدة أروى بنت أحمد تلك الملكة التي حكمت اليمن خمسين عامًا وأعادت له وحدته وازدهاره ومجده وشهرته في الزراعة والتجارة التي كانت قد انحسرت بعد انهيار سد مأرب وبداية هجرة اليمنيين إلى الخارج بالآلاف.

الدكتور وضاح كان يحبذ أن يطلق على المولودة اسم غزال على اسم جدته لأبيه. كذلك على اسم غزال المقدشية تلك الشاعرة المعروفة التي أخذت شهرتها من المقاومة التي أبدتها خلال حكم أحد الأمة الذي كان يفرض على المزارعين من قبيلتها في «ذمار» الضرائب الجائرة مما دفعها إلى نعته وعماله بشعرها الناري. التي يقول في أحد أبياتها:

«سوى سوى يا عباد الله متساوية ما حد ولد عبد والثاني ولد جارية»

رفضت أمة العلي إطلاق اسم غزال على ابنتها. استعانت بوالدته وكذلك بزملائه وأصدقائه الذين أقنعوه بالتنازل عن رغبته. ومنهم من قال له: «الثانية أطلق عليها اسم غزال» لكنه وزوجته كانا قد قررا أن يكتفيا بالصبيين سبأ ونشوان وأختهما أروى.

برغم ما كانا يعانيان من ضغوط الحياة وما يواجهانه من مضايقات واستفزازات. خاصة بعد أن تم تعيين الدكتور وضاح في الوزارة بدرجة وكيل، إلا أنه وزوجته كانا يتمكنان بالكاد من التغلب على المصاعب والمضايقات. وبالذات الجانب المادي الذي يواجهانه آخر كل شهر وأحيانا في منتصفه. فكان الدكتور وضاح على طريقته الخاصة يبدأ في تطبيق فلسفته الخاصة بالتثقف عبر الاستغناء عن المظاهر الاستهلاكية والكثير من الضروريات. مهما احتجّت وتذمرت والدته أو والدة أمة العلي التي كانت تتوقع حياة رغدة لابنتها الجامعية، لم يدع ذلك يؤثر على صفو حياتهما. . كان ذلك قبل أن وجدت كتبه ومؤلفاته في القانون الدولي طريقها إلى خارج الجامعة التي يقوم بالتدريس بها، بل إن بعضها قد ترجم إلى لغات أخرى. كل ذلك دار برأس أمة العلي قبل أن يخلع زوجها ملابسه ويستريح من العناء ذلك اليوم المليء بالغضب والإحباط.

برغم ما كان يحدث من مضايقات شتى لم يكن الدكتور وضاح يسمح لها أو يمكنها من أن

تنغص حياته وزوجته وأطفاله الثلاثة الكبار. تتذكر أمة العلي كيف تصرف بكل رحابة صدر عندما اكتشف أنها حامل للمرة الرابعة لم يتأثر. كانت ابنته أروى في السنة الخامسة من عمرها. حسب بأن الطفل الرابع سوف يأتي وقد التحقت بالمدرسة مع إخوتها سبأ ونشوان. حتى بعد أن أخبرتهما الطبيبة في بداية الشهر الرابع للحمل بأن من المحتمل أن تكون زوجته حاملا في توأم. لم ينزعج. تقبل الخبر بصدر رحب وصار يسأل والدته وحماته مَن مِن الأسرة رزق بتوائم. لكن أحدا لا يتذكر.

بدأ يبحث عن سكن آخر أوسع وأكثر راحة وأن لا تكون له سلالم عالية. كان هو وزُوجته قبل ذهابهما إلى العمل يصطحبان التوأم إلى منزل الأسرة وتقوم والدته بالعناية بهما ومن يعود الأول من عمله يعرج على الجدة ويأتي بهما في طريق العودة. فيما سبأ ونشوان وأروى يعودون بحافلة المدرسة في الساعة الواحدة والنصف. لم يتغير نظام حياة الدكتور وضاح وزوجته منذ أن انتقلا من منزل الأسرة في حي البونية قبل ثلاث سنوات إلى السكن الجديد في «حدة» قرب الصافية الجنوبية. عادة تعود أمة العلي قبل زوجها وتستقبله هاشة باشة. وهما يتناولان طعام الغداء يتبادلان الأخبار في شؤون شتى. تروي له النوادر التي تحدث بينها وزميلاتها في العمل وكيف أن إحداهنّ كادت أن تفسخ خطبتها قبل الزفاف بأسبوع لأن الخطيب خدع أسرتها وادعى بأن قطعة الأرض التي يبني عليها سكن الزوجية في عصر، ولاتبعد عن صنعاء إلا لمسافة عشرين دقيقة بالسيارة. بعدها اكتشفت الأسرة أن قطعة الأرض بعيدة ولن يقبلوا أن تسكن ابنتهم في منطقة نائية ليس بها عمران. بعد وساطة المعارف والجيران وافق الأب في النهاية على إتمام الزواج بعد أن تعهد له الخطيب على المصحف بأن يكون في المنزل قبل غروب الشمس حتى لا يترك زوجته وحيدة في هذا السكن النائي..

تتذكر أن الدكتور وضاح علق على الخبر قائلا: «لعلهم على حق فالترابط الأسري والحرص على فلذات الأكباد مسألة يجب أن تكون في الاعتبار».

ترد عليه زوجته وتقول: «بالنسبة لي ولك في ظروفنا هذه، الحمد لله على كل حال. لن نتعرض لشيء من هذا القبيل ولن أحلم أنا أو أنت في أن نبني لنا سكنا مستقلاً سواءً في صنعاء أو في ضواحيها البعيدة. ثم تضيف باسمة وتقول: «ترى لو تقدم لأروى خطيب له نفس ظروف زميلتي، ليس له أسرة معروفة ولا سكن قريب هل ستوافق عليه؟».

ـ من السابق لأوانه التفكير في هذا. لازالت صغيرة لا تشغلي بالك من الآن.

تضحك أمة العلي وتقول: «بل يجب أن نفكر من الآن في مستقبل أولادنا. خاصة البنات».

البنات سيتزوجن بالطريقة التي تزوجتك بها . لن نقبل أن تتزوج إحداهنّ قبل التخرج ـ من الجامعة . مثلهنّ مثل أخواتهن الصبيان .

ـ لكننا تزوجنا قبل تخرجي بعامين . وأنت الذي صممت على ذلك .

ـ لا تنكري أنها كانت رغبتك أنت أيضا . وبعد الزواج أنا الذي شجعتك على مواصلة الدراسة حتى تخرجت بامتياز ، وبَعد ذلك قبلت أن تعملي وسعيت معك حتى حصلت على وظيفتك في وزارةَ التربية .

لو حدث وتم تعييني في إدارة حكومية مختلطة . هل كنت ستوافق؟

بالطبع سوف أوافق وأوصلك بنفسي كما أفعل الآن . ولو أنك أحيانا ترفضين بحجة ـ احتمال تكرار تعطل سيارتنا في الشارع العام . خاصة بعد أن صرت عَضوا بارزا في حزب كبير يتمتع بسمعة طيبة وشعبية كبيرة . .

تعلم أنه حزب اعتماده الرئيسي على ما يدفعه الأعضاء من اشتراكات مالية .

وصحيفته واسعة الانتشار ، لكن أين يذهب دخلها؟ .

بالكاد يغطي تكلفة الطبع ومرتبات محرريها . كذلك لا يفوتك أن بعض الكتاب الذين يحررون بعض المقالات يطلبون ثمنها قبل تسليمها لمراسل الصحيفة .

* وأنا وما تأخذينه من مقالاتي ومحاضراتي التي تنشر لماذا لا تدفعون لي أجرا؟

* هل تريد مني أن أتقاضى ثمن ما يكتب زوجي لصحيفة حزب يؤمن بمبادئه؟

* معك حق . لذا قبلت عضويتك في هذا الحزب وأتمنى أن يظل محافظا على استقلاليته ـ وأهدافه كونها هدف ومبدأ كل مواطن شريف وفيّ لوطنه . عدنا لحديث الوفاء والشرف والوطنية . .

* هل ترين غير ذلك؟

* لا . لكنني لن أقبل أي عريس لابنتنا إذا لم يكن غنيا ويملك أكثر من سيارة . .

منذ متى أصبحتِ تهتمين بالمادة؟! لم أدرك تحولك وبأنك صرتِ مثل البقية .

* هذه أمنية وليس شرطا بالطبع!

أحيانا تكون والدة الدكتور وضاح حاضرة وتشاركهما الحديث عن مستقبل أحفادها وتدعو الله أن يمد في عمرها حتى تعيش اليوم الذي ترى حفيدتها عروسا . الجدة هي الأخرى

تحلم بأن يتحسن الوضع المادي لولدها. ويكون له منزل ملك بدلا من بيت الإيجار، وتكون له سيارة جديدة وسائق خاص مثل بقية الوكلاء في الوزارة. لكنها تعلم أن ذلك من رابع المستحيلات مادام ولدها يصر على مبادئ وأهداف لا تنسجم مع الوضع الحالي ولا تسير في فلكه. ثم تحدث أمة العلي وتقول لها أن سباحته ضد التيار ستجعله يواجه الكثير من المصاعب. وربما لن تتوقف عند استعداء الوزير ونائبه لابنها فحسب. تسمعها أمة العلي كما تسمع ذلك من زملائه، ولا تجد ما تقوله.

في أحد الأيام وبينما يتناولون طعام الغداء في منزل الأسرة تخبرهم أمة العلي بقصة الطبيب زوج زميلتها الذي يعمل في مستشفى الثورة وأكثر الليالي يناوب حتى الصباح ولايكفيه مرتبه ومرتبها مما اضطره للعمل لدى خياط في صنعاء القديمة ويقوم بثني أطراف الثياب ورتق الأزرار.

يضيف زوج الأخت ويقول: «أعرف بعض المهندسين والأطباء على هذا الحال»، زوج أخت الدكتور وضاح يعمل في مكتب عقاري. كان قد تمكن من أن يجمع مبلغا من المال أتاح له بناء دور آخر فوق منزله يؤجره بمبلغ لا بأس به. كان ذلك في فترة من فترات الازدهار الذي كان إيجار المساكن مرتفعًا لتواجد الأجانب قبل أن تنتشر عمليات الخطف التي أضعفت السياحة وتراجع نشاط العديد من شركات الاستثمار التي تكاد أن تختفي وتقفل أبوابها.

يعلق الدكتور وضاح قائلا: «نعم. عمليات الخطف والاختلال الأمني إلى جانب الفوضى والتلاعب بالمناقصات واستشراء ظواهر العمولات والرشوة. كل ذلك سوف يؤدي إلي تراجع مشاريع التنمية أو زيادة كلفتها المالية.. وبالتالي يهدد بتراجع التطلعات إلى المستقبل الأفضل. ويضيف. للأسف أن كل عمل أو مناقصة لا تتم إلا بواسطة. تقاطعه أمة العلي قائلة إنها قد حصلت أخيراً على ترقية لم تكن تتوقعها. فكم عانت هي الأخرى من الوساطات والمحسوبيات. وسبق وتعدتها الترقيات. تذكر زوجها بأنها عندما كانت تشتكي له يقول لها: «لا تقلقي. مع الأيام سوف تتغير الأحوال إلى الأفضل، ولن تكون هناك وساطات أو محسوبيات.. ويضيف الدكتور وضاح ويقول: «أنا متأكد من ذلك». هكذا كان يدور النقاش سواءً في محيط الأسرة أو في محيط الزملاء. كان يعتقد بأن النقد البناء والبدء بالنفس والأهل والأصدقاء كفيل بتغيير الأوضاع المقلوبة..

كسر الكرامة في مكتب الوزير

اليوم وضاح لم يعد ذلك الفيلسوف الذي يحلل ويبرر ويتمسك بالمبادئ. بعد تلك

المقابلتين الصاخبتين في الوزارة. لم يعد يفكر إلا بقبول العرض والعودة إلى التدريس في جامعة «كولومبيا» التي نال منها الماجستير. ظلت تلك الجامعة العريقة تراسله حتى بعد أن سجل في جامعة «ييل» التي منحته الدكتوراه في القانون الدولي. هي الأخرى تراسله إلى اليوم وتعرض عليه مرتبًا عاليًا. كان يرفض رفضا قاطعا. لكنه اليوم وبعد ما جرى له لم يعد أمامه سوى العودة إلى الجامعة أو قبول الإعارة لإحدى جامعات الخليج. هكذا وجد نفسه يفكر في العرض الذي رفضه قبل ثلاث سنوات. إذ كان متمسكا بالبقاء داخل الوطن وكله أمل بتحسن الأوضاع بعد إعادة الوحدة اليمنية، خاصة بعد توقيع وثيقة العهد والاتفاق التي كان يأمل في حسمها الخلاف على قمة السلطة وحل المشكلات والقضاء على السلبيات. كانت إحدى الرسائل التي تصله من الخارج على فاكس الوزارة قد سلمتها موظفة الهاتف لأحد زملائه. فما كان منه إلا أن أخبر كل الزملاء بفحواها. حمل البشرى وطار خلفه ليلحق به قبل أن يتوجه إلى جامعة صنعاء يخبره الفرّاش بأن الدكتور وضاح غادر الوزارة. يلحقه إلى مرآب السيارات على أمل أن عربة وضاح لن تتخلى عن عادتها ويستجيب محركها بسرعة. لكنه وجده قد غادر فلحق به إلى الجامعة على أمل أن يجده في مكتب رئيس الجامعة، فقد يقنعه بقبول العرض بحكم إعزازه للدكتور وضاح وإدراكه للمتاعب التي يواجهها في الوزارة، ولابد إذن أن يكون في هذه الساعة يتبادل وإياه حديث الهموم. لم يجده. كان قد توجه إلى كلية الشريعة التي يدرس بها مادة القانون. انتظره في آخر المدرج حتى انتهى من إلقاء محاضرته ورغم علمه التام بأن الدكتور وضاح لن يقبل الرحيل، إلا أنه لم ييأس. ظل يأمل في إقناعه بقبول العرض خاصة بعد أن صار الجميع على علم بأن نائب الوزير يحيك له المكائد تباعا، وربما لن يتورع بأن يلفق له تهمة تزعزع ثقته بنفسه أو تؤدي بالتالي إلى مسايرة النائب في ارتكاب جرائمه الفادحة أو دفعه إلى الجنون أو الانتحار، وربما الموت الفجائي الذي لحق بالعديد من الذين يتساقطون بالسكتة القلبية وآخرهم الذي كان قد تم تعيينه سفيرا في إحدى العواصم العربية المهمة. لقد سقط ميتا وهو يشيع جنازة زميل آخر!

لم يجد صديق وضاح إلا أن يحمل الفاكس ويطير به خلفه ويتابعه من مكتب إلى مكتب ومن مدرج إلى آخر. وهو يحدث نفسه. ترى هل يطير فرحا بالفاكس ولا يتأخر أو يتردد في قبول العرض مثل عادته.

فعلا خيب أمله الدكتور وضاح. بعد أن أنهى محاضرته، تجمع حوله تلامذته وكل واحد منهم يريد أن يكون هو الأقرب من أفكاره وفلسفته. لوح له زميله في آخر المدرج بالرسالة. وفي طريق الخروج من قاعة المحاضرة يخبره بأنه اقتفى أثره في كل مكان، لأنه وجد في

الرسالة حلول المشكلات التي يتعرض لها صاحبه من الوزير ونائبه بل ومن بعض زملائه. لم يعلق. أخذ بيد زميله. ذلك الصديق الذي كان يحرضه دوما على الهروب بعد كل مشكلة يواجهها. لكنه يرفض الهروب ولا يمل من أن يعيد على مسامعه مقولته الشهيرة: «لو أن كل واحد منا صادفته مشكلة أو نوع ما من المضايقات يفكر في الهروب، فعلى الأرض السلام.

ثم يستدرك قائلا: «بعد أن ترسخ دعائم الوحدة سوف تحل الكثير من المشاكل». .

اليوم وبعد الذي حدث في الوزارة وما كان في المقابلة الأخيرة وما لحقها بداءةً بهستيرية الأستاذ عبد الباري وتجمع موظفي الوزارة وتجاهل من كان في الدور الرابع. يئس الدكتور وضاح من كل شيء وبدأ يفكر في الرحيل. لا لم يعد يفكر. بل حزم الأمر.

لم يكن من السهل عليه اتخاذ قرار الهجرة في السابق، لكنه في هذه المرة اتخذه بعد أن أغلقت جميع الأبواب في وجهه ولم تعد هناك أي وسيلة أخرى يحافظ بها على بقية عقله غير الهجرة، وجد بأن لا فائدة من أي محاولة لإصلاح أي شيء، اقتنع بأن هناك قوة جبارة لا ترفض بل تقاتل حتى لا تستقيم الأوضاع على العدل والشرف والقانون. اليوم غير كل تفكيره وهدم كل حصونه وحطم آخر قلعة من قلاع مقاومته.

حتى عربة الدكتور وضاح. هي الأخرى صار يتهمها بأنها اشتركت في المؤامرة. خلافا لعادتها لم تتعطل. استجاب محركها أول ما أدار المفتاح! لذا وصل الوزارة قبل الموعد الذي اعتاد الوصول فيه. قبل أن يترك سيارته في موقفها لاحظ حركة غير عادية على مدخل الوزارة! عساكر وجنود ومرافقين مدججين بالأسلحة الخفيفة والثقيلة. في البداية اعتقد بأن شخصية مهمة في طريقها إلى الوزارة، «خُبرة» ومخبرين في الطرقات والممرات مما جعله يتصور بأن الزائر هو نائب رئيس الجمهورية، أو ربما قد يكون الرئيس نفسه تعود على تواجد المرافقين عندما يكون هناك زائر من الوجهاء الذين يحرصون على الوجاهة. ولكن ليس إلى هذا الحد. قبل أن يدلف إلى مكتبه وجد الساعي يهرول خلفه ويبلغه بأن نائب الوزير يبحث عنه ويريده أن يتجه مباشرة إلى الدور الرابع. أخذ الملفات التي يحملها ووضعها على مكتبه وتبع الساعي الذي كان يستعجله. كذلك في الطريق إلى الدور الرابع، هناك المزيد من المرافقين يتوزعون هنا وهناك. مدير مكتب الوزير يقف بينهم ويطلب شيئا من الهدوء. . باب مكتب الوزير كان مفتوحًا حين طالع أمامه وجها لم يكن غريبا عليه. إنه الشخص نفسه الذي سبق وهدده وتوعده مرات عديدة. استمر الدكتور وضاح في التقدم نحو مكتب الوزير، إلا أنه لم يره يجلس على مكتبه. كان الوزير يقف قرب النافذة دون أن ينبس بكلمة. لم يصدق الدكتور وضاح بأن كل ذلك الحشد هو من أجل هذا الرجل الانتهازي. هكذا يصفه العديد

من الذين سبق وتعاملوا معه . يقولون أنه يتصيد الفرص ولا يتورع من أن يقسم باليمين تلو اليمين ويحلف بالطلاق بدون سبب . كان قد اتخذ مجلسه مقابل مكتب الوزير وهو يعيد ويزيد الوعيد والتهديد سبًا وشتمًا . . السب والشتم على مسمع الوزير الذي لم يصدق الدكتور وضاح بوجوده . كاد أن يتراجع ويعود إلى مكتبه بدلا من أن يلبي دعوة نائب الوزير الذي يعتقد بأنه استغل الوقت المبكر وجاء بهذا الرجل الذي يصفه الكل بالانتهازية والفساد والإفساد. قبل أن ينسحب الدكتور وضاح من الدور الرابع ويعود إلى مكتبه أو مغادرة الوزارة ، يقترب منه السكرتير ويؤكد له بأن الوزير في الداخل . كذلك لم يصدق بعد أن اقترب أكثر من المكتب ليتأكد من وجود الوزير . وجده يقف قرب النافذة محاولاً أن يكون بعيدا قدر الإمكان . وهو يشغل نفسه بمطالعة بعض الأوراق .

مرة ثانية أراد الدكتور وضاح أن يعود من حيث أتى . حتى لا يزيد من حرج الوزير المتشاغل . خلال التفكير والتردد بين الدخول والانسحاب ، يسمع اسمه يتردد بين كل جملة وأخرى . لم يبال بترديد اسمه بين نائب الوزير والضيف . كان قد تعود على ذلك ولم يعد يهتم . لكنه أشفق على الوزير الذي يبدو أن لا حول له ولا قوة وهو الشخصية المعروفة بالمكانة الرفيعة في سلك القانون . والحاصل على الشهادة العالمية من الأزهر الشريف . تسمر الدكتور وضاح في مكانه . مدير مكتب الوزير الذي كان يجلس على مكتب صغير في وسط الممر وحوله ثلة من مرافقي الضيف ، لاحظ حيرة الدكتور وضاح وتردده . لم يكن منه إلا أن فرق الجمع من حوله بلطف ونهض وفي يده بعض الملفات واقترب منه ثم مال برأسه هامسًا في أذنه : «يعلم الله ماذا سيكون مصيرك يا دكتور إذا لم تتنازل عن غرورك بعض الشيء» . خلال همس السكرتير يناديه النائب بشيء من الاستفزاز والتحدي قائلا : "أين أنت يا وضاح؟ مع أنك بكرت غير عادتك في الحضور أعلم أنك تأتي الوزارة قبل الكل . لكنك اليوم أبكرت جدًا! ترى ما السبب؟

لم يجد الدكتور وضاح إلا أن يقتحم المكتب ويواجه هذا النائب الأبدي الذي لا يتغير مهما تغيرت الوزارات والحكومات . يظل في منصبه لا يتقدم أو يتأخر . . دون أن يرد على تعليقات النائب . بادره الوزير بتحية الصباح . قبل أن يرد تحيته . يسمع النائب يقول للجالس أمامه وهو يشير بسبابته نحوه : «لا عليك من الدكتور وضاح أو غيره . عليك أن تسلم المطلوب وتضعه في هذا الدرج بدون نقاش أو مفاصلة» . يرد عليه الجالس بطريقة متغابية : «لا . لا أنت تمزح ، لا يمكن أن تطلب مني هذا وفي حضور الكل» .

* أنا لا أمزح . إذا أردت تخليص المعاملة ضع المبلغ الذي ذكرته لك على الهاتف . .

* هذه القضية كنت قد كسبتها وبمبلغ أقل مما ذكرت بكثير لولا المدعو وضاح . .

* لا عليك من وضاح. ضع المطلوب وستصلك الأوراق التي تثبت ملكيتك للأرض التي تريدها مع ما حولها من إكام. . أتعهد لك بذلك وأمام الكل.

كان النائب قد وجه تعليماته لمدير مكتب الوزير أن يترك الباب مواربًا بعد دخول وضاح ليشهد حضوره أخذ الرشوة طائفة من الموظفين لكي لا يدعي الوفاء مرة ثانية. . .

الوزير لا يزال يتشاغل بتقليب أوراق فارغة عندما قال الضيف: «لماذا التعقيد؟ أنا لاأريد إلا الأرضية التي سبق ووافقت رئاسة الجمهورية على أن أتملكها.

يقول له النائب: «أقول لك لن تحصل عليها إلا إذا دفعت مبالغ طائلة وبعد أخذ ورد لسنوات وسنوات. . .

* لا تهمني المبالغ التي سأدفعها. المهم الحصول على الأرض وبطريقة رسمية.

* أنت تعرف أن الأرض التي تريد الاستيلاء عليها معظمها ملك الأوقاف.

* لكنني سوف أبني عليها مؤسسة ثقافية عامة من جيبي الخاص.

* لا تضيع الوقت وادفع المعلوم وسوف تحصل على الأرضية.

كان الدكتور وضاح قد وقف مذهولا على مقربة من الوزير وكل منهما ينظر إلى الآخر! بالنسبة للوزير الذي يحدث اليوم لم يكن جديدا عليه. استمر النائب في التفاوض مع الانتهازي، دون أن يعير الوزير أي اهتمام أو يحاول أن يتستر في حضور الكل تطاوله على القانون وتفريطه في ممتلكات الأوقاف وقبول الرشوة. كل ما يهمه هو حضور الدكتور وضاح ليدرك مكانته ويعرف بأنه الأول والآخر ليس في الوزارة وحسب. بل في مؤسسات عدة. . .

الوزير المغلوب على أمره تجاهل كل هذا التطاول والتجاوزات، بينما ظل يقلب في الأوراق وكأن الأمر لا يعنيه.

فار الدم في رأس الدكتور وضاح ولم يجد بدا من مواجهة الموقف وبدون تردد سأل الوزير: هل أنت موافق على ما يدور؟! . سأطلب مقابلة رئيس الوزراء. .

بدلا من أن يشرح له السبب الذي دفعه للحضور مبكراً وفتح مكتبه حتى تتم الرشوة تحت سمعه وبصره. أمسك بالدكتور وضاح وهمس له: « أمر هذه الأرضية ليس بيدي أو بيد رئيس الوزراء أنها أوامر عليا، كل ما هنالك أن النائب يحاول إقناع هذا المدعي الانتهازي بدفع بعض الثمن. . .

لم يقتنع الدكتور وضاح، ظل يرفع صوته في وجهه مستنكراً أن تتم هذه الفضيحة في مكتب الوزير وبحضوره . .

قبل أن يوضع المبلغ المطلوب على الطاولة، كان الدكتور وضاح قد هم بالانصراف حتى لايكون شاهدا على جريمة الرشوة . فزَّ نائب الوزير من مكانه هائجًا وهو يبرر أخذ الرشوة ويشد يد الدكتور وضاح بطريقة تبدو شبه ودية محاولا أن يجلسه إلى جوار الضيف بالقوة . رفض الجلوس وهم بالخروج . لم يكن من الضيف إلا أن وقف وأفرغ ما في جعبته من السباب المقنع للدكتور وضاح متهمًا إياه بالوقوف حجر عثرة في طريقه، وقال: «من أنت ومن يقف معك ويساندك على أن تتحداني؟!» .

* أنا لا أتحداك . لكنني لن أقبل التوقيع على أوراق أعرف حق المعرفة أن التوقيعات والأختام التي تحتويها عريضتك حصلت عليها بنفس الطريقة التي تفعلها الآن .

* من أنت حتى ترفض التوقيع على ورقة معتمدة من رئاسة الجمهورية ووزارة الأوقاف - والعدل وأمانة العاصمة . لم يعد يلزمها إلا توقيعك بحكم صلاحيتك القانونية لعن الله من وضعك في هذا المنصب .

* مهما تطاولت وهددت وتوعدت لن أوقع وسبق وأخبرتك في الهاتف عندما طلبتني قبل أسبوع . لكنك لم تقتنع أرسلت رسولك قبل ثلاثة أيام وعدت أنا وبلغته بما سبق وقلته يبدو أنه لم يجرؤ على نقل ما قلت له . أو أنه عظم الرسالة الشفوية مما دفعك على المجيء بهيلمانك وحرسك ومرافقيك إلى الوزارة لتهدد شخصي المتواضع . . .

* كم من المرات قلت وأقول لك ولأمثالك أنه لم يخلق بعد الذي سيقف في طريقي . . .

باب مكتب الوزير لازال مفتوحا حسب الأوامر التي تلقاها مدير المكتب من نائب الوزير الذي لا يجرؤ أحد على مخالفة أوامره . في تلك اللحظة نهض الضيف واقفًا وسحب يده من يد النائب ووضعها على مقبض خنجره الذهبي بنوع من التهديد للدكتور وضاح، بينما تدافع حرس الضيف ومرافقوه يريدون الفتك بالذي يتطاول على ولي نعمتهم . .

تجمع العديد من الموظفين في الممر الذي قد كان مكتظًا سلفًا .

في ثوان كان الدكتور وضاح بين أياد لا ترحم . وجد نفسه محاصراً من كل جانب . هناك من يقبضه من الخلف ومن يشده إلى الأمام ومن يسحبه من كتفه الأيمن وآخر بالأيسر . ومن يشده بربطة عنقه . وهناك من يرقب متى سيتحرك الوزير لفض الاشتباك، أو يبعد قليلا من قرب النافذة الواسعة التي تطل على مرآب السيارات، ومنهم من وقف دون حراك بعد أن

أصابه الهلع مخافة أن يتم رمي الدكتور وضاح منها! بعض مرافقي الشخصية وقفوا على يسار المكتب مكتفين بما يقوم به زملاؤهم «حمران العيون» الذين ينكرون على المدعو وضاح شجاعته، وآخرون على اليمين في حالة إحباط وجلد مبرح من تأنيب الضمير عندما وجدوا العديد من زملائه وقد أصابهم الشلل التام ولم يتقدم أحدهم بتخليصه من الذين يشدونه يمينا ويسارا. . الوزير لازال في مكانه قرب النافذة دون أن يحرك ساكنا. النائب هو الآخر كان قد اتخذ له موقعًا قرب الوزير بعد أن وجد أن الوضع قد خرج عن سيطرته وعن الخطة التي كان قد سبق له ورسمها بدقة. لم يكن يتصور أن يتحول الموقف إلى الدرجة التي جعلت الضيف يهدد باستعمال السلاح الأبيض. كل الذي كان يريده هو أن يكسر شوكة الدكتور وضاح ولن يكون ذلك إلا إذا حضر عملية الرشوة وشارك في المساومة. حرص على أن يترك الباب مواربًا ليشاهد زملاء الدكتور وضاح سقوطه في أوحال الفساد.

كان الهرج وأخبار المعركة الدائرة في الدور الرابع قد وصلت إلى الأدوار الأخرى، الكل تركوا مكاتبهم وتدافعوا إلى الممر الذي يؤدي إلى مكتب الوزير، لم يصل الأستاذ عبد الباري إلا بعد نهاية المعركة، وقد كان الدكتور وضاح في وسط الممر يساوي من ربطة عنقه وحوله صغار موظفي الدور الرابع، وبشكل عفوي راحوا يتبادلون الثناء والإكبار على موقف الدكتور وضاح. .

حتى أولئك الذين لم يكونوا على وفاق معه أبدوا استعدادهم لمناصرته حتى وإن فقدوا وظائفهم أو تعرضوا للسجن. غمرهم الإحساس بالندم والشعور بالمهانة لأنهم لم يتقدموا ويخلصوا الدكتور وضاح من قبضة تلك العصابة التي تستمد قوتها من هذا الرجل المعروف بانتهازيته، ومن نائب الوزير الذي دعاه في تلك الساعة المبكرة. النائب برغم أن الوضع خرج من يد النائب. إلا أنه ظل يرمق الدكتور وضاح بنظراته النارية الغاضبة مهددا وهو يقول بينه وبين نفسه: «لن تفلت من يدي بعد هذه المرة أقسم أن أخلصك من عنادك وادعائك الشرف».

المفاجأة لثمت الجميع كالشلل، لكنها لم تنل من عزيمة الدكتور وضاح الذي لم يتخل عن موقفه بعد أن ظل يقاوم الأيادي التي تحاصره وتجذبه إلى الأمام وإلى الخلف وتشده يمينا ويسارا. ظل محتفظا برزانته وهو يواجه كل ذلك الامتهان الذي لحق بكرامته، وراح يكيل للنائب وللوزير وضيفهما أفظع النعوت والأوصاف، مهددا بإبلاغ الجهات العليا بما يحدث في الوزارة. . مدير مكتب الوزير الذي هو على يقين بأن وضاح لن يتمكن من عمل شيء. لكنه بعد أن وجد الموقف وقد خرج عن الخطة التي رسمها النائب بدقة. وقف بدون حراك في انتظار أي توجيه من نائب الوزير الذي هو الآخر وقف في انتظار النتيجة بعدما تيقن أنها لن تكون في صالحه. الوزير في وضع لا يحسد عليه بعد أن كان قد وجد أن وقوفه مسلوب

الإرادة مخافة من أن يتشجع الجمع في التمادي للنيل منه، وقد لا ينجو من صفعة أو ركلة من الضيف ومرافقيه وحرسه حاملي الأسلحة الخفيفة والثقيلة . . . كان قد خاب ظن الوزير في الجمع الغفير من موظفي الوزارة والمحامين والقضاة الذين تقاطروا تباعًا يقفون في صف الدكتور وضاح الذي لا يزال محتفظا برباطة جأشه يقاوم الشد والجذب إلى الأمام وإلى الخلف وإلى اليمين واليسار. خاب ظنه هو الآخر عندما لم يجرؤ أحدهم على الدخول وتخليص وضاح من قبضة أولئك الرعاع الذين يحيطون به من كل جانب. . .

فلما رأى نائبه يعض على أنامله من الغيظ لم يصدق. . وبدون تفكير انتفض من مكانه وتقدم نحو الضيف وطلب منه التدخل لفض المعركة غير المتكافئة. بكلمة واحدة من الضيف تفرقوا. . شعر بالنشوة واستعادة هيبته عندما أدرك أنه أوقف تلك المعركة التي كادت تؤدي إلى ما لا يحمد عقباه.

رأس الأسـد

برغم نشوة الوزير في تلك اللحظة وشعوره بأنه سيد الموقف إلا أنه كان يحس بأنه لن يفلت من قبضة نائبه الذي لن يغفر له تلك المبادرة لصالح الدكتور وضاح عدوه اللدود. نائب الوزير وجد أنه قد وضع نفسه في مصيدة من الصعب الخروج منها. لم يجد أمامه إلا أن يحذو حذو الوزير ويتدخل لفض الاشتباك الذي تحول لصالح الدكتور وضاح لا ضده. كان قد تجمع العديد من موظفي الوزارة وكلهم صوت واحد مع الذي يواجه الموقف بشجاعة وأنفة ويتصرف بكل تعالٍ وبرود.

الكل كان يتوقع بأنه إما أن يستل أحد خناجر المعتدين عليه ويغرسها في صدر النائب أو ضيفه الانتهازي ويستعيد كرامته المهدورة، أو يسلم ويوقع على الأوراق الموضوعة على مكتب الوزير. لم يفعل أي شيء من ذلك. بعد أن سوى من ربطة عنقه، التفت نحو الضيف وبكل ثقة قال له: «لن تحصل على المزيد من الأراضي مادمت أعمل في هذه الوزارة». .

لم يكن من الضيف إلا أن وقف من مقعده الوثير وهم بترك المكان وقد انتشر مرافقوه في أنحاء المكتب الواسع وكلهم تحفز لخوض معركة جديدة إذا أراد ذلك بإشارة لا يفهمها غيرهم. لكنه لم يؤشر. وضع شاله الأبيض على كتفه وحرص على أن تظهر الحواشي الملونة بالأخضر والأزرق لتنسجم مع خطوط الشال الذي يعتمره على رأسه الحليق بعد أن اكتفى بطول اللحية. أخذ عصاته من على حافة مكتب الوزير وقد ترك رأسها الذي على شكل رأس

أسد، ولا ينسجم مع حديثه الأخير الذي أدلى به عبر الفضائية واجتهد وأكد بأن وضع التماثيل وحملها وصنعها من الكبائر. . . علقها في ذراعه اليسرى وحرص على أن تكون أنياب الأسد البارزة في اتجاه الوزير الذي مد يدا ذليلة وهو يسلم عليه ويطيب خاطره ويعده أن كل طلباته مجابة، وأن لا يلتفت لما تفوه به الدكتور وضاح هذا الشاب المتهور الذي لا يدرك كيف تدار الأمور في الوزارة. لم ينس الوزير أن يشيد بحكمة الضيف وصبره وكيف تدخل لفض المعركة التي كادت أن تؤدي إلى خلط الحابل بالنابل. . لم يصدق الوزير ونائبه بأن الضيف يغادر المكتب ومرافقيه وحرسه الخاص يحيطونه من كل جانب. كان الدكتور وضاح هو الأقرب من باب الخروج، غادر المكتب قبل الضيف الذي تعمد أن يصب آخر ما في جعبته من قذائف السب والشتم للدكتور وضاح الذي لم يسمعه وهو يقول: «الأيام بيننا».

كان وضاح قد تمكن من المروق من بين الحرس والمرافقين وموظفي الوزارة الذين لا حول لهم ولا قوة سوى الدعاء لوضاح بالنصر على الوزير ونائبه وضيفهما الذي قلب الوزارة رأسا على عقب. . .

أولئك الذين لم يجرءوا على الدخول أو لم تتح لهم الفرصة دخول المكتب ومشاهدة المعركة. أحاطوا الدكتور وضاح والتفوا حوله مهنئين بسلامته. لم يعلق أو ينبس بكلمة! استدار نحو السلم ليهبط إلى مكتبه. . مضى من الوقت أقل من نصف ساعة وكان نائب الوزير أول من يهبط بكل هيلمانه ويهرع خلفه ويلح عليه في العودة إلى مكتب الوزير بدعوى أنه يكبر فيه موقفه الشجاع، ويرى أنه الخيار الصحيح الذي كان يجب أن يتخذ منذ البداية! وهكذا وسط الدهشة والذهول الذي أصاب زملاء الدكتور وضاح حين شاهدوا نائب الوزير يمسك بيده ويعود به إلى الدور الرابع وكأن الإهانة التي لحقت به لم تكن! . . حاول أحدهم أن يعترض طريقه ويمنعه من العودة، كانوا جميعهم قد اتخذوا موقفا جماعيا لا رجعة فيه بأن يقدموا استقالاتهم للوزير المتواطئ مع النائب الأزلي الذي يتحكم بالوزارة ويديرها كما يدير مزرعته في «باجل» أو مزرعته في ذمار، تلك المزرعة الشاسعة التي استولى عليها من أصحابها تحت التهديد والتزوير. لم يكتف بما أشاعه بأنها ملك لمسؤول كبير وأن دوره اقتصر على المسائل القانونية. ولم يختلف عن دوره في مزارع مأرب عندما كان القوم يأملون بأن إعادة بناء السد سوف يعيد الخير الوارف والجنات التي جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

الأستاذ عبد القادر قبل أن ينضم إلى مكتب المغضوب عليهم، كان بعد أن تصل إليه تلك الأوراق التي يدعي أصحابها بأنهم المالكون الحقيقيون للأرض التي حول السد. كان يقول:

«هيهات أن تعود تلك الجنات ونحن على ما نحن فيه من حسد وطمع. . ويضيف: روت وأثمرت بلاد الفسقة ولم ترو أو تثمر بلاد الحسدة» تمسك الأستاذ عبد القادر بالأمثال الشعبية وبالذات حكم وأشعار علي بن زايد وما ينسب إليه من الأمثال. كان يدفع الأستاذ عبد الباري إلى التندر عليه وسؤاله هل أنت قاض ابن قاض كما تقول أم مزارع ابن مزارع خائب يعتمد في زراعته على ما جاء في أمثال علي بن زايد. «متى يزرع الذرة ومتى يزرع الشعير والحنطة في قاع جهران ولم يستفد بالعلم الحديث في الزراعة كما لم نستفد نحن من دراسة القانون». . بعد الغضب الذي اجتاح زملاء الدكتور وضاح وكل من أبدوا تعاطفهم معه، إلا أنهم استصوبوا استجابته لدعوة النائب والصعود معه إلى مكتب الوزير. من بين من استحسن عوده بل وتحمس لها، كان الأستاذ عبد القادر الذي أضاف واحدة من الحكم التي يرددها. قال: «يد لا تستطيع كسرها قبلها» هب في وجهه من هب. ولكن وضاح كان قد طمأنهم بابتسامة عريضة. مما حدا ببعضهم أن يتصور بأن صاحبهم هو الأقوى وأنه هو المنتصر لأن الضيف الانتهازي غادر بخفي حنين! الأستاذ غانم وعبد الباري وحمود. لم يكن منهم إلا أن مزقوا العريضة التي كان أحدهم قد صاغها بالفعل حتى يوقعوا عليها توطئة لتسليم نسخة منها للوزير وأخرى لرئاسة الوزراء، بينما اقترح البعض إرسال نسخة ثالثة لمجلس النواب ورابعة لمكتب رئاسة الجمهورية. مزقوا تلك العريضة وألقوا بها في سلة المهملات. منهم ومن موظفي الأرشيف من تبع الدكتور وضاح ومنهم من غشته حالة من السخرية والإحباط. خاصة الأستاذ عبد الباري الذي كان يعتقد أنه بعد انضمام الدكتور وضاح إلى مكتب غير المرغوب فيهم، قادراً علي وضع الأمور في نصابها. لكنه خذلهم وصدق النائب وتنازل عن كرامته. كذلك الأستاذ غانم انضم إلى من عاد إلى مكتبه ليمارس عمله الروتيني في مراجعة الملفات والأحكام والقوانين التي لم تنفذ. عاد من تبع الدكتور وضاح إلى الدور الرابع يتبعهم الفراش العجوز الذي لم يكن منه إلا الدعاء. عادوا وهم يضربون أخماسا في أسداس غير مصدقين بأن الدكتور وضاح هانت عليه نفسه وكرامته وصافح وتصالح مع نائب الوزير. منهم من يفسر ويبرر تراجعه ويبحث عن الأعذار التي جعلته يتنازل عن مبادئه ويخذل كل من وقف إلى صفه.

حين صعد الدكتور وضاح إلى الدور الرابع لم يكن الوزير يتوقع عودته بعد الذي حدث، وفي حالة من الترقب والتوقع لما قد يحدث في الجولة القادمة. لم يكن يريد عودة الدكتور وضاح لكنه رحب به بعد أن وجد نائبه قد تمكن من إقناعه بالعودة، وهو يجهل المصير الذي ينتظره. . كان يقف إلى جوار الوزير مدير مكتبه. لم يتفوه الدكتور وضاح بكلمة واحدة برغم محاولة نائب الوزير جره إلى حديث الصفح بدعوى أن ما حدث مجرد سوء تفاهم.

دقائق ودلف ثلاثة آخرون وكل واحد منهم يحمل حقيبة أنيقة. اتخذوا مقاعدهم أمام مكتب الوزير الذي احتله بعد انصراف لضيف الذي كاد يعصف بالوزارة وما فيها ومن فيها. بدون مقدمات، بدأ الزوار الجدد بعرض المهمة التي جاءوا من أجلها. سبق وتحدثوا مع نائب الوزير ونصحوه بعدم الخوض فيها علنًا وبالذات في الوزارة. لكنه أراد أن تأخذ شكلها الرسمي وفي نفس الوقت أراد أن يشرك الدكتور وضاح. لم يكن يتوقع ما حدث في المقابلة السابقة. ولم يرتبها في نفس اليوم إلا لاعتقاده بأنها هي التي ستمهد للمقابلة الثانية وأنها هي التي ستجعل وضاح يخضع. لا يزال ممسكا بيده وكأنه قد اتفق معه على كل شيء. وجه حديثه للزوار الثلاثة وقال: «سبق وتحدثنا في الموضوع، ولكن هناك بعض العراقيل يجب حلها قبل موافقة الوزارة. لذا علينا التفاهم مع الجهات المسؤولة في هذه الأمور التي قد تحتاج إلى عرضها على مجلس النواب». . كان يوجه حديثه إلى الثلاثة وهو ينظر نحو الدكتور وضاح الذي لم يدرك المهمة بعد. لم يكن منه إلا أن التفت إلى الوزير الذي عاد إلى مطالعة بعض الأوراق، كما كان يفعل في المقابلة الأولى. من الحديث المقتضب من قبل الزوار والتفصيل من قبل النائب الذي صار يشرح حجم المكان الذي سوف يلزم للدفن. الدكتور وضاح لم يكتف بالنظر للوزير مسلوب الإرادة بعد أن تكشفت له الأمور، وفهم ما نوع الزيارة ومغزاها وما تحمل في طيها من غموض واستخفاف. اقترب من الوزير وقال: «هل يعقل أن يتم هذا في مكتبك وفي حضورك. كيف تقبل على نفسك هذا الرخص وهذا الهوان؟ إذا لم تعد تهمك كرامتك ومكانتك العلمية فعلى الأقل خفْ على أولادك وعلى الأجيال القادمة. أطرد هذا النائب الوغد. دعه يذهب إلى الجحيمَ مع هؤلاء الزوار الذين يحملون الدمار. واصل ثورته العارمة وهجومه غير المسبوق، دون أن يلتفت نحو الزوار الثلاثة، أو إلى النائب الذي صار واثقا بأن هذه المنازلة بينهما ستكون الأخيرة وأنه سيهزمه هزيمة تخلصه من غروره وثقته بنفسه وبالقانون الذي يتشدق به. . .

الدكتور وضاح لازال في ثورته العارمة غير مبال بما سيناله. كل الذي يهمه أن لا تتم الصفقة المريبة. في محاولة أخيرة جرب أن يستنهض كرامة الوزير عله يثور. نظر إليه من جديد بعيون كلها صرامة وتحدٍّ، وفي نفس الوقت فيها أمل بأن يستجب ويوقف هذه المهزلة. قال له: «الكل يعلم بأن ما يدور في الوزارة لا دخل لك به ولا شأن. وأنك هنا مجرد «ديكور». لا أحد يلومك أو يتوقع منك أن تثور على الوضع الذي لا يخصك وحدك، ولكن أن تقبل وتبارك مشروعا خطيرا مثل هذا لن تجد من يرحمك». وجد بأن لا فائدة ترجى من الوزير الذي صار يشبهه بالخليفة العباسي المسبل العينين.

غادر المكتب من جديد وهو يحدث نفسه: ما الذي عاد بي مرة ثانية إلى الدور الرابع؟!

بعد خروجه من مكتب الوزير، أراد أن يصرع الباب خلفه. تصدى له مدير المكتب وحال بينه وبين دلفة الباب. مدير مكتب الوزير لا ينفذ إلا ما يقوله النائب. في المرة الأولى أمره أن يظل الباب مواربا. إذًا يجب أن يبقى كذلك. وفي المقابلة الثانية أمره أن يوسط الباب ولا يسمح لأحد بالدخول ليزيد من إظهار سيطرته على الوزارة ومن فيها، وجه الأوامر بقفل الباب وفتحه وتركه مواربا لمدير المكتب فيما الدكتور وضاح ومدير مكتب الوزير يتجاذبا دلفة الباب. التفت وضاح إلى الخلف ليرى الوزير المغلوب على أمره. التقت نظراتهما من بعيد وكل منهما يشفق على الآخر. في ثوان كان الدكتور وضاح في منتصف الممر الذي يفصل بين مكتب الوزير وبقية المكاتب الصغيرة في الدور الرابع. لم يكن الممر مزحوما كما كان خلال وجود الزائر الأول. إنما كان هناك من ينتظر، تجدد المعركة بين النائب والدكتور وضاح الذي لم يعد مهتما بما سيناله من عقاب على يد النائب المصمم على تحطيمه وجعله يركع كما ركع الذين قبله.

برغم دراية الدكتور وضاح أنه لن يجد من يقف معه ويوقف نائب الوزير عند حده، إلا أنه أصر على التحدي والمواجهة والتصدي لأن الأمر خطير. أصبح غير مبال بما سيحدث إذا انتشر الهلع بين المواطنين الذين سيصلهم خبر البحث عن مقبرة للنفايات في السعيدة. . وجد بأن من واجبه الوطني أن يتحرك وبسرعة ليحول بين نائب الوزير وإتمام هذه الصفقة الخطيرة. تجمع حوله الموظفون والسعاة والكل على يقين بأنه لن ينجو هذه المرة لم يعد يهمه حتى وإن تعرض للتصفية الجسدية. كل الذي كان يهمه في تلك الساعة أن يجد من يقف معه للحيلولة دون إتمام الصفقة المريبة. .

وجد أن من واجبه التحرك بسرعة قبل أن ترتكب الجريمة. فكر في طلب مقابلة سريعة مع رئيس الوزراء. حدث نفسه بأنه سيجد من يقف معه بالتأكيد هناك في الدولة من لن يتخلوا عنه عندما يتضح لهم خطر المقبرة. حزم أمره وقال: «علي بمقابلة رئيس الوزراء أولا ويتم التصدي من هناك». من مكتبه حاول أن يجري بعض الاتصالات بمن يعتقد قدرتهم على أن يحددوا له موعدا سريعا مع رئيس الوزراء. زملاؤه احترموا صمته برغم علمهم ببعض ما دار في الدور الرابع. كان الفراش العجوز قد نقل لهم ما فهمه من النقاش الحاد وما كان من تطاول على الوزير من قبل الدكتور وضاح. من كان بالمكتب من زملائه في تلك الساعة كانوا يشفقون عليه وهو يحول إجراء المكالمات الهاتفية. يعرفون مسبقا بأنه لن يجد من يقف معه في وجه النائب واسع الاتصالات والنفوذ.

كما توقعوا. لم يفلح في أن يجد من يقف إلى صفه. كل الذين هاتفهم خذلوه عندما عرفوا بأن الذي يريد منازلته هو النائب الأزلي. . دون أن يدري زملاؤه ما كان الرد على

الطرف الآخر من الهاتف. إلا أنهم اكتشفوا خيبته من قراءة وجهه المتجهم وذلك الحزن الذي يكسوا ملامحه لأول مرة. .

لم يتمكن من تحديد موعد لمقابلة رئيس الوزراء أو حتى الحديث مع مدير مكتبه. فكر في نائب رئيس الجمهورية أو الرئيس نفسه. الوضع خطير والمؤامرة أكبر من كل تصور. .

مع أن الحديث عن دفن بعض النفايات السامة كان متداولا منذ فترة بعيدة ولكن لكثرة الإشاعات لم يعد أحد يصدق الحقائق منها. كثر الحديث عن المسؤول المرتشي وعن الوزير الذي يستلم عمولات ومدير الجمارك الذي يتغاضى عن عمليات التهريب التي تحتوي على الأغذية الفاسدة ويتسامح مع أولاد المسؤولين الذين يقال إن معظمهم احترفوا التجارة التي يمارسونها إلى جانب وظائفهم في أجهزة الدولة المختلفة. وأن منهم من يستغل مركز والده وينافس التجار منافسة غير شريفة. والدليل على ذلك هو أن التجار الكبار نقلوا تجارتهم إلى خارج البلاد وعزفوا عن الدخول في أي مناقصة. لكثرة تلك الإشاعات التي قد يكون فيها الكثير من المبالغة. لم يعد أحد يصدق الحقائق. . . زملاء الدكتور وضاح في المكتب ومن تمكن من التحدث معهم عبر الهاتف لم يصدقوا ما قاله بأن هناك مشروعا لدفن النفايات. .

الزوار الثلاثة لا يزالون في الدور الرابع. هذا ما يقوله الحج أحمد الفراش الذي منع من دخول مكتب الوزير بعد أن قام المدير بإغلاق الباب حين تلقى إشارة النائب الذي لا يرد له أمر. .

حاول الأستاذ حمود أن يخرج الدكتور وضاح من حالته تلك وإعادته إلى تفاؤله بالمستقبل وفلسفته وتحليلاته الهادئة لكل معضلة تواجه أي من زملائه أو تلامذته. بادره قائلا: «هذه ليست أول مشكلة أو حادثة تتعرض لها يا وضاح. مهما كان حجمها لن تكون أشد من سابقتها التي تعرضت فيها إلى ما لم نكن نتوقعه وتصورنا بأنك لن تسكت. لكننا وجدناك تنسحب من المعركة بهدوء وتعتقد بأنك المنتصر! ثم بعدها تصدق النائب وتستجيب له وتعود معه إلى مكتب الوزير وكأنك لم تتعرض لما تعرضت له من قبل حرس ومرافقي الضيف الانتهازي! . الكل يعلم بأن هناك صفقة مريبة سوف تتم اليوم. هذا إذا لم تكن قد تمت فعلا من قبل كما يشاع لكننا كما ترى لا نريد أن نصدق».

لم يرد أو يعلق. لازال يبحث عن منقذ للبلاد من الكارثة. كل الذي قاله: «ما دخل الوزارة في هذا الأمر الذي لا يخصها وحدها! إنه يخص البلاد كلها ويخص الأجيال القادمة».

زملاؤه من المحامين والقضاة الذين يعملون خارج الوزارة كانوا قد عرفوا بما حدث من رئيس محكمة الاستئناف الذي كان مجتمعا بهم حين جاءته مكالمة الدكتور وضاح . لذا تركوا الاجتماع وهبوا لنجدته وكلهم أمل أن يقفوا إلى جانبه ويوقفوا ما يتعرض له ، لكنهم بعد أن وجدوا بأن غريمه هو نائب الوزير تفرقوا في ممرات الوزارة ولم يعد لهم هم سوى استطلاع الحدث الذي حدا بالوزير ونائبه على الحضور المبكر! الدكتور وضاح لم يعد يحتمل، طفح به الكيل. الذي حدث اليوم يفوق كل ما سبق من تلاعب وتزوير ورشوة يهدف إزاء ما ينوى الوزير ونائبه ارتكابه من جرم عظيم.

الأستاذ حمود بعد أن وجد كل الزملاء وقد أصابهم الذهول من وقع الصدمة. اكتفى بالحديث مع نفسه عن وضاح : " يقول كيف له السكوت وهو الذي لم يسبق له وتخلى عن مواقفه الرافضة التي دفع ثمنها مراراً، وبخسائر كبيرة. العلاوات والترقيات تعدته. كان الكل يتوقع تعيينه نائباً للوزير. أو على الأقل وكيل أول. الكل كان يتوقع ذلك منذ أول يوم التحق بالوزارة. يتذكر الأستاذ حمود تلك الشروط التي وضعها الدكتور وضاح أمام الوزير وبحضور نائبه الذي أعجب بالشروط التي كان أولها أنه لن يقبل أي واسطة تخل بالقانون أو تعرقل مصداقية العدالة. . وكيف ظل على مواقفه الثابتة وتمكن من أن يوجد لنفسه مكانة مرموقة جعلته يتمتع بسمعة طيبة بين زملائه وينال الرضاء من أصحاب القضايا التي حلها بعد أن ظلت حبيسة في ملفات الوزارة لسنوات وسنوات. .

الهدوء المريب

ساد الهدوء المريب مكاتب الوزارة. الكل في حيرة وترقب لما قد يحدث. . . وماذا سيكون مصير الدكتور وضاح! كيف له أن يسكت؟ . يفض الصمت الأستاذ عبد القادر ويحدث الأستاذ غانم الذي يحتل المكتب الملاصق لمكتبه. يقول : «وضاح لن يسكت مهما كان الثمن الذي سيدفعه. سيوف يتصدى لما ينوي نائب الوزير إتمامه ليس هناك ما يخشى عليه. لا بتهمة الترقية التي وعد بها من قبل».

كان هناك خبر عن تلك الترقية التي جعلت أمة العلي زوجة الدكتور وضاح، مثلها مثل والدته وأخته يتوقعن أن يتم تعيينه في منصب مرموق في أول تشكيل وزاري قادم. تلك الشائعات بالترقية التي كانت تدور من حين لآخر، لم يكن يدري الدكتور وضاح كيف كانت تصل زوجته! يعلم أن ذلك لن يحدث. حتى وإن كان ذلك صحيحا فهو لن يقبل خاصة بعد ما حدث اليوم. لن يقبل أن تكون ثمنا لما يجرى ويجري في الوزارة من انتهاك للقانون وحقوق الوطن والمواطنين.

خلال تفكيره في الكارثة المتوقع حدوثها، كان الزملاء يتزاحمون حوله، منهم من يحمله مسؤولية ما تعرض له من إهانة بسبب عناده الذي لن يغير من الوضع شيئاً، ومنهم من يشتكي من تردي القيم وسوء الأحوال والغلاء الخانق الذي حول الكثير من الشرفاء إلى استجداء ثمن الدواء أو سلفة تمكنه من ترميم سقف منزله الذي يكاد أن يسقط عليه وأولاده. من جديد يخترق الصمت الأستاذ عبد الباري ويذكر الدكتور وضاح بالسلفة التي كانت تحثه زوجته على طلبها لترميم منزل والدته والانتقال إليه وتوفير أجرة السكن. يقول عبد الباري بالطبع لم تتمكن من الحصول عليها. وكيف أتاك زميل لا أريد ذكر اسمه وعرض عليك مبلغاً ضخماً يمكّنك من إصلاح المنزل، بل واستبدال سيارتك القديمة. بأخرى جديدة كل الذي طلبه منك هو أن تعيد النظر في قضية أرض الوقف العالقة بين أحد المستثمرين ووزارة الأوقاف. بدلا من أن توافقه أو حتى تتيح له الفرصة ويتم حديثه في موضوع العرض المغري. طردته من مكتبك. كان ذلك عندما كان لك مكتب مستقل وقبل أن تصير محشوراً بين خمسة مكاتب..

لم يكن مع ما قاله الأستاذ حمود أو ما يقوله عبد الباري كان سارحا فيما حدث اليوم. بات عليه التفكير في حياته وثوابته المبدئية بعد أن خذله الصديق قبل الزميل..

كان الدكتور وضاح قد حصل على شهادة الحقوق والدكتوراه في القانون الدولي من جامعة جورج تاون إلى جانب إجازته في الفلسفة التي درسها بجامعة كولومبيا. درس الفلسفة اليونانية. كان يعتقد بأن رسالته أعمق من كونها وظيفة في الوزارة أو في الجامعة. ظل متمسكاً بمبادئه التي استقاها من عدالة الإسلام، كما راهن على الفلسفة التي كانت تدعو إلي حرية التفكير، والإيمان بالديموقراطية التي يعتقد بأنها العلاج الناجح للقضاء على التخلف والجهل وكل السلبيات.

وربما من هنا ظل يتجاهل الطرق والأساليب الملتوية التي يواجهها حين تمر عليه قضية ويشتم فيها رائحة التلاعب والتلميحات الخفية بالرشوة. لم يكن ينفعل أو يهدد ويتوعد بإبلاغ المسؤول. كان يتحلى بالصبر وبالوعظ والنصيحة واللين من القول. لم تكن تمر قضية دون أن تحدث مهاترات واتهامات. آخرها ما كان مع الزميل الذي استوقفه قبل أن يغادر مكتبه ويتوجه لطلبته في الجامعة قال له: «لماذا التشدد في قضايا حسمت من قبل أن تعرض علينا؟ ستمشي سواءً تمت المصادقة عليها من قبلنا أو لم تتم الموافقة»..

برغم ما تفوه به، ذلك الزميل إلا أنه ظل يحترمه ويوقره، وفي نفس الوقت يقدر ظروفه، لكنه لم يكن يتصور أن يصل به الحال وينحدر إلى هذا المستوى الرديء...

برغم حالته وما تعرض له وما سيناله من عقاب لا يزال في علم الغيب، إلا أنه من خلال الحديث الدائر تذكر المواقف التي عرضت عليه فيها الرشوة خاصة ذلك الموظف الذي أوقفه من قبل أن يصل إلى مرآب السيارات ويقول له: «بالطبع مرتبك من الوزارة ومن الجامعة والعائد المالي الذي تتحصل عليه من توزيع كتبك، لا يجعلك تحس بالأزمة أو تشعر بما يواجهه زملاؤك من ضنك». .

لم ينفعل أو يرد عليه. تركه يحكم ضميره وذهب لطلابه في الجامعة. قبل المقابلتين الصاخبتين. كان كله أمل في الجيل الصاعد وكيف ينشر بينهم التفاؤل والأمل بغد أفضل.

في مرة سأله أحدهم: «كيف تحتفظ بهندامك وربطة عنقك الأنيقة وحذائك اللامع يومياً مع أننا اكتشفنا أن وضعك المالي لا يختلف كثيراً عنا؟!.

رده عليه في هدوء: «الترتيب ولياقة الهندام أو الأناقة التي يحلو لكم نعتي بها، ليس لها دخل بنوع الزي الذي نرتديه أو ثمنه. وإنما الحرص قدر الإمكان على التناسق بين الألوان. وبالنظافة. كما تعرفون زوجتي تعمل في وظيفة دوامها لا يختلف كثيراً عن نظام الدوام هنا. لكننا لا يمكن أن نقبل على أنفسنا أو أولادنا ارتداء ثياب غير نظيفة ولا مكوية. حتى وإن لم تكن زوجتي تعمل، ومتفرغة تماما لعمل البيت وشئونه، إلا أننا نساعد بعض لكي تستمر الحياة جميلة ومنظمة. لا يمكن لأحدنا أن يرتدي جورباً مقطوعا أو حذاءً متسخاً. تعودنا على النظافة والترتيب والتعاون. كما أننا عودنا أولادنا على الالتزام بالنظام، لم نخسر شيئاً، بل كسبنا. هل في ذلك ما يشين في نظركم؟!.. ثم ما فائدة العلم إن لم نطور حياتنا إلى الأفضل؟

كان الأستاذ عبد الباري قد قاطعه قائلاً: «وضاح له طريقته الخاصة في تخطي العقبات المادية التي تعترض حياته، يفلسفها ويحللها ويبسطها ويخرج بقناعة تامة، بأن كل شيء له حل بالتفاهم والصبر مع بذل الكثير من التضحيات.. هل تذكرون العتاب الذي وجه له من قبل أحد أصحاب القضايا الذي قال له: «لماذا تتظاهر بالتقشف وضيق ذات اليد مع أننا نعلم بأنك تتقاضى أتعابك خارج المكتب وتحصل على هدايا قيمة من العملاء الذين تنجز معاملاتهم» لم يثر في وجهه أو يكذبه. عندما نهرت ذلك المفتري عاتبني ولم ينس أن يتلو عليَّ من أقوال الرسول ﷺ. «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» هل تلاحظون الطريقة التي يتصرف بها عندما تخذله سيارته؟ شاهدته أكثر من مرة، وهو يحاول إصلاح العطل ولا تسعفه الفلسفة حتى يجعل محركها يدور من دون أن يدفعها المارة دفعاً. رأيت ذلك مراراً. في إحدى المرات كنت قد سبقته في الخروج من مرآب السيارات، كنت أتلمس

الفرصة التي تمكنني من الولوج إلى الشارع الرئيسي. رأيته واقفاً يعطي استشارات قانونية لأحد الأشخاص كعادته. بعدها يشكره الشخص على الاستشارة المجانية ويركب سيارته الحديثة ويذهب في حال سبيله. بينما عربة صاحبنا جاثمة غير مبالية بتوسلاته. يومها كانت الإشارة الضوئية التي كنت أنتظرها قد فتحت. لكنني عدت إلى الوراء حتى أرى ماذا سيفعل مع سيارته التي أعرف مقدما بأن محركها لن يستجيب له بسهولة. وجدته يعالج محركها الذي أبى الاستجابة. عرضت عليه التوصيل إلى حيث يريد. رفض أن أوصله وكله تصميم على أن المحرك سوف يستجيب في النهاية. من جديد بدأ في معالجتها ونحن نساعده على دفعها. والعجيب أنها استجابت في النهاية...

لوح لنا مودعا وهو يضحك كأنه طفل تمكن من تشغيل لعبة أكبر من سنه».

معظم زملائه على دراية بالحكايات والمؤامرات التي تحاك ضده والتقارير الكيدية التي تجد طريقها تباعا إلي المسئولين , وكان آخرها ذلك التقرير الذي صاغه نائب الوزير بعد أن جاء إلى الوزارة أحد المسؤولين وبرفقته ثلة من العساكر والجنود وكلهم يتسابقون إلى فتح الأبواب أمامه لكي يدلف إلى مكتب الوزير مباشرة دون أن يعترضه مدير المكتب. لم يكن ذلك الضيف يختلف كثيراً عن ضيف اليوم. كل ما هنالك أنه لم يتطاول ويأمر خُبرته بالإجهاز على وضاح. كما فعل ضيف اليوم. هل تذكر يا وضاح سبب قدوم ذلك المسؤول وبتلك الطريقة التي توحي بأن هناك حدثا استدعي وصوله شخصياً. قال ما جاء إلى الوزارة بتلك الطريقة إلا لأن قاضياً يدعى وضاحاً يعرقل الأمور. ذكر أنه هاتف وضاح قبل أن يحضر وعرفه بنفسه وبمكانته المرموقة والقامة الرفيعة والمعارك السياسية التي خاضها , التضحيات الجسام التي بذلها من أجل الحفاظ على الوحدة والتي لولا بطولاته الخارقة في الحرب ضد الانفصال ما بقيت الوحدة. هل تدرون ما قاله له وضاح ساعتها؟ قال: «ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر. يحكي انتفاخا صولة الأسد»..

عندما لم يسمع صوت وضاح على الطرف الآخر، سأله هل تسمعني يا دكتور؟! لم ينتظر الجواب. هل يسمعه أم لا. بكل بساطة أخبره بالسبب الذي جعله يتصل به ولم يتصل بغيره في الوزارة لأنه يعرف بأن له سمعة طيبة لذا خصه بأوامره وتوجيهاته...

قبل أن ينهي المكالمة ويقفل الخط أوصاه خيراً بالذي سيأتيه في الصباح الباكر، ويرجو أن لايرده خائبا حتى لا يتعرض لما قد لا يسره.. عرفت من أحد مرافقيه أنه ظل يردد: «أنت كالهر»...

برغم ما بثه ذلك المسؤول المهم على مسامعه، أتذكر بأنه لم ينفعل أو يغضب على العكس

من ذلك أخذ الأمر كعادته على أنه من مخلفات التخلف والجهل بالقوانين التي مع الوقت والعلم والتوعية، سوف تنتهي كل هذه المهازل وهذا الاستهتار والتعالي الذي يمارسه هؤلاء الثلة المتعجرفين. .

لم يكن يتصور أو يتوقع بأن هناك في الدوائر الحكومية من هم أشد وأخطر من الجهلاء الذين يعتقدون بأن زمام الأمور في أيدهم. .

شلة الظرفاء

حاول الدكتور وضاح أن يبعدهم عن سرد شريط الذكريات برغم ما كان يتخللها من ظرف لكي يهونون الإحساس بالمرارة والشعور بالإحباط الذي يكتنف ما حولهم أراد أن ينسى كل الأحداث التي سبقت اليوم. وجد أنها كلها تهون إلا أن يسكت على المؤامرة التي لن تصيبه وحده. .

عاد الهرج بين الزملاء. متظاهرين بأن ما حدث اليوم لا يعني أياً منهم أو أولادهم. هكذا تظاهروا. بعد أن وجدوا بأن لا أمل في ردع النائب من تمرير الصفقة ومن خلال الوزارة التي لا يخصها الأمر وحدها، وفوق ذلك من المفترض أن هذه الوزارة هي صمام القانون ولايجوز أن يتم التآمر فيها وتحت سمع وبصر الوزير الذي كان يشهد له الكل بالاستقامة والنزاهة. كان ذلك قبل أن يصبح خاتماً رخيص الثمن بيد النائب الذي يدعي صدقاً أو كذباً بأنه لا ينفذ إلا الأوامر التي تأتيه من جهات عليا. .

بعد أن تسرب الزملاء الذين جاءوا زرافات ووحدانا لنجدته ثم انسحبوا عندما وجدوا أن النائب هو الطرف المؤثر.

الثلاثة الأغراب لا يزالون في مكتب الوزير! الساعة تقترب من الواحدة ظهراً. . حركة غير عادية تعود في ممرات الوزارة. يتوقع من بقي في مكتب الدكتور وضاح بأن هناك نجدة آتية من مكان ما للقبض على الوزير ونائبه ووضعهم في الحجز الاحتياطي إلى حين التحقيق مع هؤلاء الثلاثة الأغراب الذين دخلوا الوزارة في الصباح الباكر بحقائبهم الأنيقة. لم يكن توقعهم في محله أو قريباً منه. سبب تلك الجلبة، لم تكن إلا لبعض عمال الفندق الفخم الذي تم طلب طعام الغداء منه. جاء الجرسونات الهنود لتحضير الطاولة وتزيينها بالورود قبل أن يصل الطعام الفاخر الذي أعد بعناية حسب طلب السيد النائب الذي أوصى باختيار الشروخ الكبيرة الطازجة التي يتم جلبها من «المكلا»، كذلك لم ينس أن يوصي الطباخ بلحم الخراف البلدية التي لم تصبها «الحمى القلاعية» لذا جاء الطباخ بنفسه ليشرح مكونات الطعام. .

الدكتور وضاح لازال في مكتبه يقلب في بعض الملفات ومن وقت لآخر يجري بعض المكالمات الهاتفية التي لا جدوى منها. انتهى الدوام الرسمي ولم ينصرف أحد. تجمع حوله زملاؤه الذين لم ينسحبوا مع من استصحب السلامة وغادر الوزارة مخلفاً وراءه الوزير ونائبه والزوار الثلاثة والدكتور وضاح وفلسفته التي لن تنفعه اليوم.

الذين بقوا حاولوا من جديد إخراج وضاح من ضيقته النفسية، يقترب منه الأستاذ حمود ويذكره بالنوادر التي كانت تروى وكيف أن كل الزملاء ينبرون واحدا وراء الآخر في روايات مختلفة عن سيارته العتيقة. يذكره باليوم الذي نهض فيه الأستاذ عبد الباري من خلف مكتبه وجلس القرفصاء على مكتبه ويبدأ في رواية آخر طرفة. ادعى أن أحد العاملين في موقف السيارات قال له وهو يضحك: «تصور يا أستاذ أن لنا زميلا هنا، كل مرة يرى الدكتور وضاح متوجها نحو سيارته يشمر عن ساعديه ليساعد في دفعها». .

يقاطعه الأستاذ غانم ويقول: «هذه الحكاية ليست جديدة. كل يوم نرى السائس وأولاده وزوجته أحيانا تشمر عن ساعدها وتعاون زوجها على دفع عربة وضاح». .

في الماضي كان عندما يسمع النكات يحاول أن يفلسفها ويبحث عن الدواعي التي تجعلهم يؤلفونها ويتناقلونها. ويعلل ذلك بأنها انعكاس تلقائي للأوضاع الاجتماعية والسياسية المقلوبة والسخرية منها ومن التدهور كل يوم، كم من النوادر والنكات وبعض المزاح الذي كان يضايق البعض بعد أن يحس أن المزاح يتحول تدريجياً إلى تندر عليه وعلى الطريقة التي يعالج بها أموره وضائعته المادية التي استعصى علاجها إلا بالطريقة التي لا يقرها الدكتور وضاح. فلا يكون من زميل آخر إلا أن يروي حكاية أخرى عن نفس السيارة. يقول كنت أتجول في الجامعة قريباً من كلية الحقوق التي يدرس بها وضاح. سمعت الطلبة يتندرون على سيارته وأمامه كما نفعل نحن على مسمع منه. يظل مبتسماً سعيداً حتى لو كانت التعليقات ساخرة أو موجعة.

في السابق. كان يطرب ويكتفي بالابتسام. مما يدفع زميلا آخر للإدلاء بدلوه ويقول: «دراسة الفلسفة، علمت وضاح كيف يبني داخله عالما متناغما، وفي نفس الوقت له قدرة عجيبة على إقناع كل من يحاول أن يدحض وجهة نظره» ويضيف قائلاً: في إحدي المرات التي أضربت فيها سيارته عن السير والتزم محركها بالصمت المطلق، عرضت عليه التوصيل إلى الجامعة، ولأنه كان قد ترك سيارته في الوزارة، وجدت أنه من غير اللائق أن أتركه تحت رحمة أحد الطلبة حتى يوصله إلى داره انتظرته حتى ينهي محاضرته. وجدت طلبته يلتفون حوله، وكلهم سعداء بعلمه وأسلوبه في التدريس، حتى طلبة الدراسات العليا يتسابقون ليشرف على رسائلهم».

في الأيام الخوالي كان من حين لآخر يسترق السمع وينظر نحو الذي يتندر عليه. ويقول: «أليس ذلك استفتاء حقيقيا على نهجي في الحياة؟». ثم يستدرك قائلا: «ألم يبق أمامكم الكثير من الأوراق يجب الانتهاء من مراجعتها وتسليمها لأصحابها الذين ينتظرون في الممرات؟! لقد جعلتموني أشعر بأنكم تقيمون لي حفل تكريم». .

يجيبه أحدهم وغالبا ما يكون الأستاذ يقول: «يا دكتور. . خليها على الله. دعنا نهون قليلا عنك وعن أنفسنا. وفي نفس الوقت قد نتعلم شيئاً من فلسفتك التي تتغلب بها على مشاكل الحياة». .

زملاؤه في الوزارة والعديد من رجال القانون وتلامذته في جامعة صنعاء، لا ينسون حديثه في تلك المقابلة التليفزيونية التي زادت النائب غضبا على غضب، يتذكرون أن المذيع عندما قدمه للمشاهدين بتلك المقدمة الطويلة التي عدد فيها الشهادات التي حصل عليها من جامعات مختلفة. ثم عاد إلى بداية رحلته الدراسية وبحثه عن المعرفة وهو شاب صغير. قال المذيع: «بعد تخرجه من الثانوية بمجموع يؤهله لدراسة الطب أو الهندسة، وحصل على منحة للدراسة في أي جامعة أوروبية أو أمريكية يختارها. لكنه فضل دراسة القانون. سافر في بداية الإجازة الصيفية، وعلى الفور دخل فصلاً دراسياً مكثفاً ليتعلم كيف يفهم ما حوله. لم يكتف بما كان قد درسه في الإعدادية والثانوية من اللغة الإنجليزية. خلال ثلاثة أشهر يخرج الشاب إلى الحياة العملية، وهو يتكلم اللغة بطلاقة مثل أهلها. ثم التحق بالجامعة ودرس القانون إلى جانب الفلسفة اليونانية. بعد أن نال شهادة الماجستير في القانون الدولي والدكتوراه في الفلسفة اليونانية سافر إلى ألمانيا لزيارة والده الذي كان يعمل آنذاك في السلك الدبلوماسي، لم يضيع وقته في المجاملات، اغتنم وجود والده وتوفير السكن المجاني، والتحق بمدرسة لتعلم اللغة الألمانية وهي لغة صعبة كما تعرفون. لم يكن يعرف حرفاً واحداً منها. في نفس الوقت بحث عن عمل هناك وحصل عليه في قسم البرمجة بإحدى الشركات التي تصدر الأجهزة الحديثة للشرق الأوسط. عمل وتعلم في نفس الوقت، حتى يتقرر مصير عودته والجهة التي سيلتحق بها للعمل. بعد أن طالت المدة دون أن يتمكن والده أو أقرباؤه من الحصول له على عمل بشهاداته العالية أبدى رغبته لوالده في مواصلة الدراسة، أحب الفلسفة الألمانية فدرسها واختار من بين الفلاسفة، الفيلسوف «هدجر» وحصل على الدكتوراه حول فلسفة «هدجر».

بعد تلك المقدمة الطويلة التي سردها المذيع عن سيرة الدكتور وضاح، يسأله: هل أصبحت فيلسوفاً يا دكتور؟

يرد بكل تواضع ويقول: «لا. أنا محب للفلسفة. ولكن أن أصير فيلسوفاً فهذه قضية أخرى.. فالفيلسوف يجب أن تكون له رؤية فلسفية تشمل الدين والعلم والطبيعة والإنسان.. وأنا لا أملك هذه الرؤية الشاملة».

عندما تم حشر الدكتور وضاح بين خمسة من المحامين المغضوب عليهم في الوزارة، لم يكن قد تجاوز الثانية والأربعين من عمره. متوسط القامة يوصف بجسم رياضي. قمحي اللون تميل بشرته للسمار أكثر منها للبياض. له عينان هادئتان. يتسم بالسماحة والتواضع لم تكن ظروفه تختلف كثيراً عن ظروف بقية زملائه الخمسة الذين يشاطرونه العمل في المكتب، كل ما هنالك أن وضاحاً لديه قدرة عجيبة على الاستغناء عن أشياء كثيرة كان يرى أنها ليست ضرورية لتسير الحياة.

لذا يختلف عنهم بشكل ما. خاصة أن بعضهم يتمنى أن تقع في يده قضية تمكنه من تحسين وضعه المعيشي. لم يخف الأستاذ حمود رغبته عن زملائه بل وأمنيته في العثور على صاحب قضية له ثقله في المجتمع ويدفع له بسخاء لكي يحرر له ورقة مدموغة وعليها توقيع المسؤول والشيخ الوزير والقاضي والغفير بأنه «السبتمبري» والوحدوي الأول، وأنه هو الذي يستحق أضخم القصور في منطقة «معاشيق» وأجمل الشاليهات في سواحل عدن وشاطئ «أبين» وبأن نصف الأراضي في العاصمة وضواحيها ملكه. المهم أن لا يبخل في دفع «حق ابن هادي»...

الأستاذ حمود خريج جامعة صنعاء. كلية الشريعة والقانون.. ثم يبرر الأسباب ويقول: «منذ أن كان عمري ١٤ عاماً وأنا أرافق والدي إلى المحاكم والدوائر الحكومية وأحضر الجلسات التي كان يفصل فيها بين أصحاب الخلافات والمنازعات. لم يكن يغادر المكان قبل أن يحلها. نعود وقد امتلأت جيوبنا بالنقود وخلفنا عربة نصف نقل تئن من الحمولة الثقيلة التي وضعت على ظهرها. حبوب، فواكه، سمن، عسل، بيض، وأحيانا خرفان سمينة أحببت هذه المهنة. بعدها لا أدري من نصح والدي في أن يعدّني لدخول كلية الشريعة من هنا كف عن اصطحابي معه إلى تلك الأماكن «الدسمة»، أصبح يعاقبني ويحرمني من المصروف ولعب «الكيرم» حتى أتفرغ للمذاكرة. نجحت عاما بعد عام والتحقت بالجامعة وتخرجت بدرجة جيد. تصورت أن مؤهلي سيمكنني من أكون، إما محامياً أو قاضياً معتمداً أو على الأقل مدرس لغة عربية. من هنا، نفخت ريشي وتعاليت على شباب الأسرة الذين يتخذون لقب «قاضي» بالوراثة، لم أعترف بأي واحد منهم. بل وبدأت أتندر على أبي وبالطريقة التي كان يتحصل بها على أتعابه.. رفضت ارتداء الصاية والجلبة. بل واستنكفت من وضع العمة. مرت ثلاثة أعوام وأنا من مكتب لمكتب أبحث بالكاد عن عمل يناسب مؤهلي. بعد

واسطة تلتها عشرات الوسائط، كان تعييني بمحكمة ابتدائية في لواء «المحويت» وبدرجة كاتب. لم أتبرم أو أشتكي. على الأقل حتى أبعد عن إلحاح الوالدة وحثي على سرعة إتمام الزواج لأن أهل الخطيبة سامحهم الله خاصة النسوة كنّ يسمعنها من سم الكلام لتباطئنا في تحديد موعد الزفاف. لذا كانت بعد أن تعود من «التفرطة» تنقل إلى مسامعي ما تلوكه النسوة عن ولدها العاطل عن العمل.. في إحدي المرات التي عادت فيها مشتكية من كلامهن، بحت لها برغبتي في فسخ الخطبة.. ما كان منها إلا أن ثارت في وجهي وعادت تكرر حديثها عن حظها المنحوس مع أولادها الذين جعلوها سخرية أمام الناس خاصة أنا بالذات لأنني بلغت سن الزواج منذ سنوات ولم أتزوج راضيتها وطيبت خاطرها ووعدتها بأن أحدد موعد الزفاف في أقرب وقت. من يومها بدأت تشيع أمام الجيران أنها تبحث عن المغنية التي ستحيي الحفل وعن القاعة التي تليق بولدها القاضي! لم تعد تتملص من أم الخطيبة وحماتي المقبلة. كانت الوالدة قد فاتحتها في الموضوع، وبعد أن وجدت منها الترحيب الحار. أحضرت ما كانت قد ادخرته من مال لشراء ما يلزم الخطبة الرسمية. بعدها ذهبت بالنيابة عني حسب العادة والتقاليد اصطحبت معها بعض القريبات وألبست الخطيبة دبلة وساعة وسلسالا ذهبيا بعدها ذهب العم والخال وتمت الخطبة رسمياً.. تم ذلك في الوقت الذي لم أكن مقتنعاً بالوظيفة الموعودة في لواء «المحويت». بما أني الخريج الوحيد في الأسرة خلال تلك الأيام، فقد كنت أطمع بوظيفة محترمة. لذا لم أهتم بمعاملة الأوراق التي لن يتم إلحاقي بالعمل في المحكمة بدرجة كاتب بدونها. بقيت أبحث عن عمل بالشهادة المعلقة على حائط منزلنا الآيل للسقوط. لأنه بعد رحيل الوالد حدثت منازعات بين أفراد الأسرة. الكل يدعي بأن له نصيباً فيه، بعدها لم نعد نهتم بإصلاح ما هدمته الأمطار وما أفسده الزمن بفعل تقادمه، وما كان يتم من حفريات حوله!

لعلمكم. بيتنا في قاع اليهود. في حياة الوالد، لم نسمع بأن هناك أحدا له إرث. حتى كان اليوم الذي جاء فيه ذلك الفوج السياحي الذي كان وصوله سرا وبعد أن كشف موطنه الجديد ونوع المهمة التي جاء من أجلها قامت الدنيا ولم تقعد. حدث ذلك الضجيج مع أول دفعة سياحية بعدها استتبت الأمور وصار الأمر معتادا.. من هنا بدأ الاهتمام بحارتنا. دون أن يستأذنا أحد أو يستأذن من بقية السكان، بأن هناك فوجاً سياحياً سيزور الحارة. بدأت الحفريات. يوم باسم المجاري ويوم باسم كوابل الكهرباء أو الهاتف. مما جعل كبار السن يتقولون بأن الحارة تضم آثارا قيمة. حتى أن الهمس بدأ يدور بين الجيران: «إن هناك كنزاً مدفوناً منذ أيام سيدنا سليمان!».

من ضمن من صدق تلك الحكاية. كانت الوالدة الله يسامحها. على ضوء ذلك بدأت

تبحث عن بنت الحلال. لا أدري هل السبب نجاح الواسطة في إيجاد عمل لي، أم الكنز الموعود الذي سيكتشف تحت معقم باب المطاحن! . المهم أن الوالدة لم تكن تنفك عن ترديد القول أنها تخشى ضياع بنت الحلال المناسبة التي عثرت عليها أخيرا! وأنه لا يجب التباطؤ بعد اليوم عن إتمام الزواج. يجب أن يتم. كان لها ما أرادت. . تم الزفاف قبل أن يتم العثور على الكنز أو الثبات في الوظيفة حتى بدرجة كاتب. .

مع الأسف لم تكن العروس بنت حلال البتة، من الشهر الأول الذي يسمونه شهر «العسل» بدأت تندب حظها العاثر الذي أوقعها على زوج فقير يسكن في منزل حقير آيل للسقوط. بعدها اتضحت الأمور طلبات لا تنتهي. تهوى النكد ولا تكف عن الشكوى، وعدتها أن ألبي كل طلباتها بعد استلام العمل. بعد أن تم تعييني رسميا رفضت الانتقال معي إلى «المحويت». لمحت منها خيط التسويف والتهرب. عززت الأمر لارتباطها بأسرتها وصديقاتها. قبل سفري تنازلت عن كبريائي وبدأت أستدين من الأقارب والأصدقاء. حتى معاش الوالد الذي بدأ صرفه بعد وفاته من وزارة الأوقاف. كنا قد تنازلنا عنه أنا وإخوتي الثلاثة وتركناه لوالدتي وأختي الصغيرة. لم يكن يعني زوجتي المصون من مكالمتها الهاتفية سوى السؤال دائما: متى يصل التحويل؟ لم يمر شهر إلا وتخبرني هاتفياً بأنها قد استدانت مايوازي مرتب ثلاثة شهور. مما دفعني للعودة للعمل بالطريقة التي كان يتبعها الوالد في حل النزاعات بين المتخاصمين. كنت أحيانا أتمكن من حل بعض النزاعات خارج المحكمة وآخذ أتعابي وأرسلها للزوجة المصون، علها تخفف من حنقها على الوالدة، وعصبيتها التي تستقبلني بها في كل زيارة. بعدها وجدت أن معاشرتها مستحيلة لكني تحملت على أمل أن الأيام كفيلة أن تحسن من طباعها وأن المبالغ التي أرسلها كل ما توافرت لي سترضيها بعض الشيء. حتى وإن كانت قليلة. لم تكن تلك التحويلات كافية في نظرها ظلت تطلب المزيد وتهدد بأنها ستترك منزل الزوجية أحيانا كنت أتغاضى عن طلباتها وأحدث نفسي بأن الأيام ستجعلها تقدر الظروف وتصرف على قدر الدخل. لم يحدث أي تغيير على العكس من ذلك تماماً صارت في كل مكالماتها لا تتحدث إلا عن المجوهرات التي تراها على أعناق النسوة اللاتي يشاركنها جلسات القات، أخيرا وجدت أنه لم يعد أمامي إلا أن أسرح بنت الحلال بإحسان. . .

قبل أن يسترسل بالمزيد من سرد حكايته يقاطعه الأستاذ عبد الباري ساخرا: «ما رأيكم لو حولنا هذا المكتب إلى «مبكى» ونندي المحبطين والعاطلين في الوزارة للانضمام؟! ويمكن أن نصيغ إعلانا ونوزعه على كل الوزارات والمصالح الحكومية حول ما تحدثنا فيه عن الفساد والتجاوزات والمؤامرات. . بالتأكيد. لن تمر أيام إلا وقد صارت لنا دولة داخل الدولة

ووزارات وسـ فـارات . قبل أن يختم حديثه المضحك كـالبكاء ، كـان الدكتـور وضـاح يهم بالانصراف بعيدا عن هذا النقاش الذي وجد أن ما هو إلا حديث يبرر أخذ الرشوة ويشجع على المزيد من الاستهتار بالقيم والمبادئ . . .

يعترضه عبد الباري ، قائلا : ابق معنا يا دكتور . هأنت ترى زميلنا الآن وقد تخلى عن مظهره وكشف النقاب عن حقيقة . . ماذا تقول؟ .

الأستاذ غانم ، وبطريقة هستيرية يقول : لماذا حالة حمود وحده؟ نريد من وضاح فلسفة أو دراسة وضـعه؟! ليس هناك مـا يستحق الـدراسة . هو الوحيد الذي نال مأربه بالواسطة بل وعلى استعداد لقبول «حق ابن هادي» أو حق القات باعتبارها التسمية الجديدة للرشوة» . . .

استسلم الدكتور وضاح للرجاء ووضع الملفات التي يحملها على مكتبه , ثم جلس يستمع للنقاش الذي احتد وكاد يتحول إلى توجيه الاتهامات . . ويتحول هو بالتالي إلى حائط مبكى . وإذا بزملائه في دهشة من تراجعه عن الانسحاب! كيف يقبل البقاء وسماع هذا من زميلهم حمود الذي يتباهى بأنه على استعداد لعمل أي شيء لتحسين دخله . ما الذي جعله يستمع دون أن ينتقد أو يحلل أو يبرر أو يعلق مثل عـادته . كيف تخلى عن مبادئه وموقفه الثابت بالتمسك بالنزاهة والوفاء؟! صمته واستمـاعه لذلك الجدل ، جعل معظم زملائه يعتقدون بأنه قد غير رأيه لماذا لم يعترض؟!

لم يدركوا أنه خلال ذلك النقاش المشبع بالاتهامات يحاول أن ينهيه عند هذا الحد لكي لايتحول إلى عداء وخصام . . خاب ظنه حين انبرى الأستاذ عبد الخالق الذي صار يعذر من يعذر ولا يلوم من يراه مولعاً باقتداء من يتهمهم بالتلاعب بالقوانين . يقول : «بالله عليكم ، هل تثقون بالتحقيق الذي جرى في الجامعة؟! من يصدق أنه بعد كل تلك المظاهرات والاحتجاجات وما نشرته الصحف عن الجرائم التي ارتكبت في مشرحة كلية الطب عبر المتهم الأول محمد آدم الذي أطلق عليه فيما بعد «سفاح الجامعة» . ما رأيكم في موقف وزيرنا ومتابعته لسير القضية؟! هل علم أحدكم كيف صار التحقيق مع المشتبه فيهم؟»!!! بقدرة قادر صفت القضية في متهم واحد . لم يسأل أحد من كان معه ومن شريكه؟ ومن سهل له ومن غرر بالضحايا . تعتيم ما بعده تعتيم . . الذي يحيرني كيف همد كل شيء! حتى صحف المعارضة خرست . . بعد صدور الحكم على السفاح بالإعدام .

لا أحد يصدق بأنه وحده الذي ارتكب كل تلك الجرائم بالتأكيد له شركاء . . وزيادة في حبك النهاية وإسدال الستار على المأساة تم إعدام محمد آدم في ساحة الكلية؟

الكل غير مصدق بأن محمد آدم هو السفاح الوحيد . .

ينهض الأستاذ غانم وهو أحد المرابطين الذين أصروا أن لا يغادروا الوزارة إلا بعد أن يغادرها الدكتور وضاح. عاد الأستاذ غانم ووضع شاله على مسند الكرسي وهو يقول: «يا جماعة خلوها على الله. كفاكم جلد الذات انظروا إلى وزيرنا الحاصل على الإجازة العالمية. هل ترون الوضع الذي أصبح عليه ما الذي جعله يتحول من إنسان كان يتمتع بالنزاهة القانونية وبالوفاء للقيم والمبادئ الوطنية. كيف تحول وصار يتبع النائب الذي يجره ويقوده كما تقاد الشاة. مما دفع النائب أن لا يتردد أو يخجل من أن يصرح ويعلن باسم الوزير ما يراه هو، لا ما يراه هذا الوزير الذي كانت له مواقف وطنية لا يستهان بها. ما الذي جعله يتغير وينحدر هذا الانحدار المهين؟! لم يكن هكذا قبل أن يتسلم هذه الوزارة. لقد تغير كثيراً بعد أن تم وضع صورته داخل ذلك البرواز الضخم الذي يحتل صدر الحائط خلف مكتبه. ألم تلاحظوا كبر البرواز الذي لا يتناسب مع حجم صورته الصغيرة التي لم يفكر هو أو أحد أولاده في تكبير حجمها لكي تملأ جزءاً من الإطار! . يرد على نفسه ويضيف. الإطار كان موجوداً من قبل لكننا نحن الصعاليك كما يحلو للبعض تسميتنا، لا ندري لمن أعدّ البرواز ليتناسب حجمه مع حجم الإطار الذي عليه الصورة الرئيسية. ما علينا المهم أن وزيرنا ياسبحان الله. صار مع الأيام لا يختلف كثيراً عن الصورة المعلقة فوق رأسه. تخلى عن ماضيه الذي كان مشرقاً وواعداً وبعد أن كنا قد توسمنا خيرا بعد أن تسلم هذه الوزارة وتصورنا أنه سيعيد ترتيبها ويحد من تسلط النائب الأزلي ويوقف التلاعب. . تغاضى عن كل شيء، واكتفى بوضع صورته في إطار ضخم. ولم يعد له هم إلا أن يظهر في التليفزيون خلال الاجتماع الوزاري كل يوم أربعاء. قد يكون مثقلاً بأعداد أسرته الكبيرة وأصبح كما يقال «رهينة للأقرباء». هناك من يسميه ابن «عفان».

يرد عليه الأستاذ عبد القادر، قائلاً عثمان بن عفان من؟ لا يجوز هذا التشبيه. صحيح وزيرنا يرزح تحت أعباء وحمل كبير من الأقارب والأنساب، ولكن هذا لا يبرر له أن يخضع كل هذا الخضوع ويسكت عن جرائم ترتكب في حق الوطن والمواطنين. .

يقول الأستاذ غانم: «لماذا التجني ولماذا تحملونه فوق طاقته مع أن الكل يعلم بأن وزيرنا لايتمتع بأي سلطة تخوله لمطاردة الفساد وتحويل المفسدين للمحاكمة. كم وكم من المهازل تمر عليه ولا يحرك ساكناً».

الأستاذ عبد الباري من جديد، يقول: «تكلم يا وضاح تفضل يا فيلسوف، أفتني بالله عليك في هذه المصيبة وما هي رؤيتك الفلسفية لعمليات التزوير والتباطؤ المتعمد في متابعة الأحكام التي تتقاعس وزارة الداخلية عن تنفيذها. ويضيف بنوع من الحنق والسخرية: كلنا نعرف أن وزيرنا لم يتحرك ولن يتحرك. لا يجب أن نوجه له كل اللوم، ما بيده وما هو الحكم

الذي يمكن أن يسطره وينفذ؟ نعلم بالتكتم الذي حدث على الأموال التي سحبت من البنك المركزي، ونعرف أن هناك عمولات ستقبضها شخصيات نافذة، فلو أن ثمة رقابة مسئولة لكان في الثروة السمكية دخلها يوازي دخل البترول الذي هو الآخر لا ندري كم الدخل ولا أين تصرف الأموال. . يا دكتور لا تتصرف كما تتصرف النعامة. . إنك بسكوتك هذا لاتختلف كثيراً عن موقف ذلك الشخص الذي صوره الأديب العالمي نجيب محفوظ في إحدى رواياته المشهورة التي يحاول البعض هنا مصادرتها ومنعها من التداول. مع أن الرواية ظلت متداولة ردحا من الزمن.

يقاطعه الأستاذ حمود قائلاً: «أدخل في الموضوع يا عبد الباري إذا كنت تقصد رواية المرايا أو اللص والكلاب حدثنا عن الشخص الذي يشبه وضاح».

* لا ليست المرايا. أو اللص والكلاب. إنها «أولاد حارتنا» والذي أشبهه بوضاح، لم يكن بطل الرواية ولعل الكثير من الذين أتيحت لهم قراءتها لم يلفت انتباههم لضالة دوره. كل ما هنالك هو أنه كان يدرس كل شيء قبل أن يدلي برأي. الذي كان يهمه هو الحرص على النظام وإدارة النقاش مع بدء معارضته الحادة لكل من يحاول الإخلال بالقواعد التي يعتقد بأنه في يوم من الأيام سيتمكن من أن يجعلها راسخة. ليس في المكان الذي تدور فيه الأحداث وحسب. بل في المجتمع كله! انتهت الرواية دون أن تخبرنا عن مصير ذلك الفيلسوف وقواعده».

يتذكر وضاح أول يوم تم نقله فيه إلى هذا المكتب. فيخرج عن صمته وتأملاته ويقول في نبرات حزينة آسية: «ما هو النظام أو القواعد التي تتهمونني بأني أريد إرساءها هنا؟! كل ما هنالك ببساطة أنني كنت أحاول ولا زلت أحاول ما استطعت على حثكم لإنجاز معاملة المواطن دون تأخير أو عرقلة تضر بالمصالح العامة». .

يرد الأستاذ عبد القادر ويقول: «معك حق يا دكتور. والله ما تكدس كل هؤلاء الموظفين في الوزارة إلا لزيادة تعطيل القوانين والمعاملات التي من الممكن أن يتم إنجازها في ظرف أسبوع، أين نحن من احترام المواطن والحرص على الوقت».

الأستاذ حمود: لا داعي إذن للمثاليات والأمثال يا عبد القادر. . لا مجال للتفاؤل بإصلاح الأحوال هل نسيت أننا ننتمي إلى العالم الثالث وأنا في شبه جزيرة لازال البعض فيها لا يعترف بكروية الأرض؟! بالله يا دكتور. انس النظام والقانون والعدل الآن وهيا فلسف حالة زملائك في هذا المكتب فقط. ربما نتمكن من تحسين وضعنا المادي الذي يشغلنا؟. قبل أن يسمع الجواب يضع الأوراق التي كان يقلبها جانباً ويقول: ما رأيكم في مشروع استثماري نحسن به دخلنا. .

الأستاذ عبد الباري. مثل ماذا يا قاضي يا ابن القاضي؟ هل تريدنا أن نفتح مصنعاً لأشغال الإبرة؟! أو نعمل مزرعة لتفريخ البيض والدواجن؟

برغم ما كان يبذله الدكتور وضاح من جهد في أن يجعل زملاء المكتب الذين يهدرون ساعات الدوام في التذمر واللوم والانتقادات التي لن تغير شيئاً، حتى أنه لم يكن ينجح في إقناعهم بالكف عن الشكوى من الصعوبات المالية، على نحو نجاحه في إقناع أمة العلي عن ذلك. لقد تمكن من أن يقنعها وأخته وأمه وحماته بالكف عن تحسين أوضاعهم خلال هذه الظروف التي يرى أنه من المستحيل تحسينها. كان قد نجح في أن يجعل أمة العلي تكف عن التطلع لمستوى مادي يمكنهم من اقتناء الأدوات المنزلية الحديثة. اقتنعت بنظريته الفلسفية. لم تعد تهتم بالكماليات. بل إنها استغنت عن الكثير من الضروريات.

إلا أنه مع زملاء المكتب لم يتمكن من صرفهم نهائياً عن التذمر الذي لا طائل من ورائه، ظلوا دوما يحاولون تخفيف مرارتهم بالشكوى من أوضاعهم الاقتصادية علهم يتغلبون عليها بالتنكيت والسخرية من بعضهم البعض. .

هذا ما كان في الأيام الخوالي. أما اليوم فالوضع مختلف. هناك مؤامرة كبيرة تحاك على رؤوس الأشهاد وبكل تحدّ.

لم يكن يخطر على باله من قبل بأنه سوف يأتي اليوم الذي سيتوقف فيه عن توجيه النصح والتحلي بالصبر على الظروف التي كان يأمل في تحسنها. عندما عجز عن تهدئتهم طلب منهم الرحيل. لم يقبلوا الرحيل وتركه وحده ليواجه المحنة، صار يتصور أنه إذا انصرفوا قد يتمكن من عمل شيء ليوقف الصفقة. كل من بقي معه في المكتب لم يستجيبوا رفضوا المغادرة. بعدها لم يكن منه إلا أن طلب منهم أن يوقفوا المزاح أو ينصرفوا إلى بيوتهم ولن يلومهم إذا تركوه وحيدا. . .

رفضوا الانصراف وأصروا على ألا يتركوه وحيدا. من جديد ينبري الأستاذ حمود الذي ينادونه القاضي ابن القاضي. ويقول: «بربك ما الذي سنخسره إذا وقفنا معك؟ كل الأمور واضحة الترقيات والعلاوات لم نعد نحلم بها. . لقد تعدتنا منذ أن شرفتنا وشاركتنا هذا المكتب المتواضع ويضيف: دعنا يا دكتور نرفه عن أنفسنا. وربما قد يتكرم علينا الحاج أحمد ويعطينا مما أعطاه الله من بقايا الطعام الدسم في الدور الرابع ويأتينا حاملا ما تبقى من الشروخ طيبة المذاق. يقاطعه عبد الباري: هل سبق لك وذقتها، أم أنك لا تختلف عنا وكل الذي تعرفه من خيرات البحر هو سمك الجحش».

* في الحقيقة لا. لم يسبق لي وذقت لحم الشروخ أو الجمبري لكنني رأيته على شاشة

التليفزيون في برنامج عالم البحار، وطبعا لم أتذوقه ولم أفكر يوماً في صرف مرتب شهر كامل على نوع من أنواع الشروخ التي يقال أن لحمها نادر بين أشواكها وعظامها. .

عقل الدكتور وضاح يدور حول مصير الاتفاق الذي جرى وتجري المفاوضات حوله في هذه اللحظة. كل فكره في مسرح الجريمة التي تحاك خيوطها في الدور الرابع. كان على يقين بأن الوزير يعرف جيدا بأن الذي يتم التفاوض عليه في مكتبه وبحضوره الشكلي، سوف يلحق مخاطر فادحة يشده الأستاذ غانم للمشاركة في الحديث، بعض زملاء المكتب يشكون بأن الأستاذ غانم على علم مسبق بأن هناك مفاوضات سرية سابقة جرت في كواليس عدة وفي أماكن مختلفة منذ فترة. لكنه لم يفاتحهم بها. الأستاذ عبد القادر الذي هو أكثر الزملاء حرصاً على أن لا يوجه التهم. هو الآخر كان يشك في ذلك. لكنه اليوم تيقن فعلا بأن زميلهم غانم كان على علم بأن هناك مساومات جرت مع جهات أخرى في الدولة حول تلك الصفقة التي قد تقلب الموازين رأساً على عقب. لم يكن يتصور بأنها ستتم ويبرم الاتفاق وفي الوزارة التي لا يخصها الأمر وحدها. .

برغم الهرج والمرج الدائر في المكتب الذي يحتل وضاح أحد زواياه إلا أن الأستاذ غانم ظل يتابع عن قرب ما يدور حول الموضوع في مكتب الوزير منذ ثلاث ساعات، صار يدرك بأن الدكتور وضاح لن يسكت مهما كلفه الأمر.

الأستاذ غانم يعاني أزمة حادة بين ضميره ووظيفته في الوزارة، هذه الوظيفة التي هو الآخر لم يحصل عليها إلا بواسطة كلفته الكثير. وضع يده على كتف الدكتور وضاح قائلاً: «هل من الممكن أن يشغلنا ما يدور في مكتب الوزير عن بقية همومنا؟ دعونا نترك الحديث عن ذلك وعن أحوالنا المادية ونوع خيرات البحار والقفار. لماذا لا نفكر في غيرنا وأوضاعهم الأسوأ من أوضاعنا بكثير. ومع ذلك نراهم سعداء يصحبون أولادهم بعد الصلاة كل جمعة إلى السوق ويبتاعون الحلوى.

يقاطعه الأستاذ حمود بشيء من الاتهام أو بنوع من التبرير لنفسه مما يتهمه البعض بأنه على استعداد لأخذ الرشوة. يقول: «عمن تتحدث يا غانم؟! لعلك تقصد بعض الذين يطلعون على معلومات ولكنهم يكتمونها حفاظاً على منصب أو علاوة».

يهب في وجهه الجميع ويقول الأستاذ عبد القادر: «يا جماعة. لماذا يتحول نقاشنا إلى توجيه الاتهامات لبعضنا البعض؟! ألا يكفينا ما نحن فيه من إحباط وتخبط»؟

يرد عليه الأستاذ عبد الباري ويقول: «لعل الأخ غانم يقصد الأسر التي تملك الدكاكين هي التي يمكنها شراء الحلوى. ولو أني أستبعد ذلك. اليوم لم يعد هناك من تسمح له الظروف

المعيشية أن يشتريها حتى في الأعياد. إلا إذا فرضوا على أنفسهم الحرمان طوال الأسبوع ليس من اللحم بل وحتى من أكل الخبز الحاف حتى يشتروا الحلوى. أتحداك أن تسمي أسرة واحدة من أمثالنا حتى وإن كان له دخل آخر يمكنه من أن يبتاع الحلوى لأطفاله ولو مرة في الشهر. ولكي يحول الحديث من تبادل التهم. يضيف جائز أن البعض لا يزال متمسكاً بتلك العادة لكنه بالتأكيد ليس من طبقتنا.

بعد النقاش الأخير خيم الصمت على المكتب. ظل كل واحد على مكتبه في انتظار فهيم الفراش المستجد في الوزارة. هو الوحيد الذي يوزع الشاي ولا يدقق في الحسابات ومن شرب ومن دفع.

بدلا من أن يأتي فهيم، دخل الحاج أحمد الفراش العجوز دون أن يحمل أي من بقايا الطعام الذي كان يحلم به البعض. يسأله الأستاذ عبد الباري: «هيا ما هي الأخبار الجديدة ياحج أحمد؟ لا يرد الفراش العجوز. ظل يركز نظراته نحو الدكتور وضاح وكأنه يتنبأ له بالغرق وكل من يقف معه. لأنه يسبح ضد التيار..

خلال الترقب الذي كان فيه الظرفاء أو الصعاليك. بعد أن كان قد انضم إليهم بعض موظفي الأرشيف وعلى رأسهم الأستاذ مطهر. دخل الفراش فهيم ووضع كوب الشاي أمام الأستاذ عبد القادر الذي يصر على ارتداء العمة والخنجر والقفطان. لم يكن الفراش العجوز إلا أن ينهر فهيم قائلا: «ألم أخبرك منذ ساعة أن تغلق البوفيه».

بعدها وجه حديثه للمرابطين في المكتب بنوع من التوسل: «يا الله يا أولادي عليكم الانصراف إلى بيوتكم حتى أغلق هذا المكتب المشؤوم الذي لا يأتي منه إلا المشاكل والكروب.. من أنتم ومن ورائكم؟! ثم يستدرك ويقول "لن تتمكنوا من إيقاف ما يحدث أنني مشفق عليكم ولا أخفيكم بالخبر الأخير وأنا في طريقي إليكم سمعت بأن هناك فرقة موسيقية في طريقها إلى هنا! أي والله فرقة موسيقية في الوزارة!. يبدو بأن أولئك الزوار الأجانب لم يعودوا مستعجلين مثلما توهمنا في البداية صار عندهم متسع من الوقت ليقضوا بقية يومهم هنا. ثم يضيف وهو يضحك بسخرية. ربما يفضلون المبيت في الوزارة»...

لم يعلق أو يتحرك أحد من مكانه..

بعد انصراف الفراش العجوز، يقول عبد الباري: «لو أن ما يحدث في الوزارة كتب في قصة أو رواية طويلة لن يصدقها أحد.. حتى وإن اكتفى بما تعرض له وضاح من شد وجذب وتهديد بالرمي من النافذة. موقفنا هذا المتردي وموقف الذين جاءوا للنجدة وعندما عرفوا بأن طرف النزاع فيه النائب والرجل الذي يدعي الوجاهة. هل يصدق القارئ ما حدث؟! وهل

يصدق بأن النائب تحت سمع وبصر الكل يأتي بالعملاء ويتفاوض معهم في الوزارة عن دفن نفايات سامة وعلى مسمع ومرأى ولا أحد يقف في طريقه أو يبلغ عنه. نكتفي بترويج أخبار الذي استولى على قطعة أرض من البلدية، أو عن الذي أدخل سيارة بدون أن يدفع الجمرك أو الذي بنى بيتا من ثلاثة أدوار أو تزوج أو طلق وننسى العمولات التي تدفع للعملاء الكبار الذين يبيعون تراب الوطن وكرامته. . نكتفي بالهمس الجبان. . لقد أصبحنا عبارة عن نعام تغطي رؤوسها في الرمال، ونحن الذين ندعي أننا سلالة قوم أولو قوة وذو بأس شديد! . . .

يتدخل الأستاذ غانم قائلا: «بالله عليك هجعنا من الادعاء والتفاخر. . نحن الشعب الذي سقطت عنه النقطة بدلا من أن نكون شعب الله المختار صرنا شعب الله المحتار. كلما جاءت أمة حاولت أن تمحو الأمة التي قبلها. لا داعي للعودة للماضي البعيد. يكفي ما يقوله ثوار سبتمبر ٦٢ عن ثوار نوفمبر ٤٨ ثوار سبتمبر يقولون بأن الذي قام بالحركة هما جميل جمال العراقي وفضيل الورتلاني الجزائري وهذه الأيام نسمع بأن ثورة ٦٢ قام بها المصريون ولا أستبعد أن نسمع غدا بأن الذي أعاد الوحدة هو الاتحاد السوفيتي قبل أن يتمزق إرباً. . .

الأستاذ حمود: «سامحكم الله. بحديثكم هذا وتقليب المواجع، أطفشتم الحج أحمد الذي كان في طريقه بالتفضل علينا ببعض طعام الوليمة».

ثم ينادي الفراش العجوز ويقول له: نرجو أن تبعث أحد زملائك ليبتاع لنا شيئاً من الطعام لأننا جائعون وهنا صامدون حتى يأتي الله أمرا كان مفعولا».

يقول الأستاذ عبد القادر: «من الذي يغامر في ابتياع المأكولات من الأسواق؟ سقى الله أيام زمان عندما كان كل شيء نظيفا وبسعر في متناول الكل. اليوم ارتفعت الأسعار واختفت النظافة وحلت القاذورات مكانها». .

يتنهد الأستاذ عبد الباري وبصوت خافت، يقول: «القاذورات! . . ما يخفي هو أعظم هناك النفايات التي هي في طريقها إلينا.

فهيم الفراش المستجد الذي لم يسبق له ونطق بكلمة غير تلبية الطلبات المتكررة لأكواب الشاي. قال في حدة ومن خلف الفراش العجوز: «أي نفايات! ما رأيك يا دكتور في هذه الإشاعة التي تدور في الوزارة؟!

كل من في المكتب ينظر بدهشة إلى فهيم الذي نطق أخيراً! وأول كلمة أو سؤال هو عن النفايات وكله إصرار على معرفة الحقيقة. .

الأستاذ عبد الباري يغادر مقعده خلف مكتبه، ويتقدم من فهيم ويخطف الصينية الفارغة

من يده ويقذف بها إلى آخر الممر وسط دهشة الكل. عند اصطدامها بالأرضية أحدثت صوتا يشبه ارتطام صفيحة مليئة بالزيت على صخر صلب. كل من بقي في مكاتب الوزارة هب لاستطلاع الحدث. ما عدا من في الدور الرابع.

النائب برغم انسجامه ومشاركته في الحديث أو على الأصح هو المتحدث الوحيد، إلا أنه بخبرته الطويلة في الإصغاء لعدة جهات في آن واحد. سمع الحركة غير العادية التي صدرت من مكتب الدكتور وضاح وزمرته من الصعاليك كما كان يسميهم. لم يتحرك من مكانه ظل يرحب بضيوفه الكرام الذين سيرفعون رصيده المالي بعد إتمام الصفقة ويصير من أصحاب «الملايين» الذين تنشر أخبارهم في المجلات المتخصصة التي تسطر في الغرب وعليها أسماء أصحاب الملايين ومن ضمنهم رموز العالم الثالث الذين يصادرون المجلة ويخفونها عن مواطنيهم إذا تضمنت أسماؤهم وثرواتهم. أما الذين يدعون الديموقراطية وحرية النشر والقول قد يكتفون بقص الصفحات التي ذكرت ثرواتهم. .

لم يتحرك النائب أو يهتز عند سماعه تلك الضجة وعلمه بمسطرها قبل أن يعود إليه جواسيسه بالأخبار، اكتفى بأن يطمئن الوزير والزوار بأن الدوي الذي سمعوه ما هو إلا من قبل قطة تتخذ من الوزارة سكنى لها ولغرامياتها مع قطط الوزارات المجاورة. أو أن الصوت المزعج ما هو إلا لصينية مليئة ببقية الأطعمة سقطت من يد حاملها على السلم الرخامي. . ظل مع الأحلام التي تراوده منذ أن قام بثاني زيارة لبلد شقيق أو على الأصح الزيارة التي تم استدعاؤه فيها، وأوحي إليه بأنه عن قريب سيكون الشخص الذي سيقع عليه الاختيار ليكون الرجل الأول. . .

في تلك اللحظة كان الأستاذ عبد الباري يأخذ بيد الفراش الصغير ويجلسه على مكتبه ويقول له: «نعم هناك مفاوضات وصفقات ما رأيك في الموضوع يا فهيم، هل الحديث عن نفايات وسموم في طريقها إلينا حقيقة أم مجرد إشاعة يروج لها مغرض»؟

لم يعد هناك ثمة مزاح من بقي من زملاء الدكتور وضاح وموظفي الأرشيف حتى عمال النظافة تجمعوا حول الأستاذ عبد الباري. الكل على استعداد لمهاجمة الدور الرابع وطرد الزوار الثلاثة وإخراج الوزير ونائبه بالقوة.

حاول الدكتور وضاح تهدئة الوضع وأخذ بيد الأستاذ عبد الباري إلى آخر الممر ورجاه مغادرة الوزارة كما فعل الزملاء والأصدقاء الذين جاءوا للنجدة في المقابلة الأولى، أولئك الزملاء الذين عندما علموا بأن الخصم هو النائب انسحبوا تباعاً.

لم تهدأ ثورة الأستاذ عبد الباري. ظل يحتج ويرفع صوته على من كان في الدور الرابع

يهبط إليه وتكون معركة ثالثة يسمع بها الكل، ومن هنا قد يعيد للدكتور وضاح بعض كرامته التي هدرت . .

هدوء تام في الدور الرابع وكأن ما يدور في الوزارة لا يخصهم ولا علاقة له بالاجتماع المشبوه في مكتب الوزير الذي لا حول له ولا قوة. هذا الوزير الذي لم يعد إلا صورة معلقة من جملة الصور . .

عاملات الهاتف، حال سماعهن الضجة. تركن أماكنهن وسماعاتهن وجئن تتقدمهن صفية التي هي على علم بما يدبره النائب من مكائد للدكتور وضاح زوج صديقتها . .

فهيم لا يزال منتظراً للجواب عن سؤاله. ظل واقفاً بين المكاتب المكتظة في حجرة صغيرة وقد خلت من روادها بعد أن صار الجميع في الممر المؤدي إلى بقية المكاتب التي صارت خالية هي الأخرى . .

الأستاذ عبد الباري لا يزال في ثورته العارمة وهو الذي كان في السابق يخلط الجد بالمزاح. خرج عن طريقته الساخرة في مواجهة الصعاب والتهوين من وقعها. لم يعد ذلك المرح، انقلب إلى شخص آخر كما لو أن ثعباناً لدغه. ترك من حوله وعاد إلى باب المكتب الذي لازال فهيم يقف بداخله وحيداً في انتظار من سيطلعه على الحقيقة وسط دهشة الذين يتبعون الأستاذ عبد الباري بأعينهم. قال وبعصبية غير مسبوقة. «إنها ليست إشاعة يروج لها مغرض أو حزب معارض. يا فهيم إنها حقيقة. هناك نار تسري من تحت الرماد وقودها الزرع والضرع وفلذات الأكباد». كان يتحدث وكأن لا وجود لأحد غيره وفهيم

عند هذا الحد انتفض الدكتور وضاح. وبكلمة آمرة وصارمة. تفرق الجمع في الممر وعاد كل إلى مكتبه يلم أوراقه ويستعد للانصراف بعد أن كانت قد مرت ساعات طويلة على نهاية الدوام دون أن يغادر أحد.

خلال ما كان الأستاذ غانم يتناول شاله الذي تعود أن يضعه على المشجب خلف الباب، يستوقفه الأستاذ عبد القادر ويقول ماذا يحدث؟ لماذا هذه المهزلة الفارغة من المستفيد منها؟ هل وصل بنا الحال إلى الحد الذي يجعلنا وكأن لا هم لنا إلا تهدئة عبد الباري وثورته التي في غير محلها! . لقد أنستنا ما يدور في الدور الرابع. لولا ثقتي بنزاهة عبد الباري كنت قلت إنه ما قام بتلك الضجة بسبب كلمات تفوه بها الفراش، إلا ليلهي الجميع عما يدور في مكتب الوزير. عار علينا كرجال قانون أن نسكت على جريمة تكاد أن ترتكب أمام أعيننا» . . .

ظل الدكتور وضاح واقفا وسط الممر، لا يريد أن يعود إلى مكتبه إلا بعد أن يغادر زملاؤه

وبقية موظفي الأرشيف الذين يشغلون نفس الدور، ومن انضم إليهم من المكاتب الأخرى. يريد منهم أن يغادروا إما إلى منازلهم أو على الأقل إلى أماكن عملهم. عندما وجد التباطؤ ثار في وجه الجميع وصار يتلفظ بكلمات لم يسبق له وتلفظ بها ولم يتصور من سمعها أن الذي يقولها هو الدكتور وضاح. لم يكن أحد منهم يتوقع أن يثور بتلك الطريقة وهو الذي يفكر في كل كلمة يقولها..

صفية عاملة الهاتف انسحبت مع زميلتها إلى حجرة شبكة الهواتف التي لا يتوقف رنينها سواءً خلال الدوام أو بعده. قبل أن تسكت الرنين المتواصل همست هل ما أصاب الأستاذ عبد الباري من هستيريا هي التي أخرجت الدكتور وضاح عن وقاره وهو الذي يحلل الجملة ويبحث عن السبب الذي دفع بصاحبها إلى قولها إذا كانت خارج نطاق التندر أو المزاح كيف له أن يتصرف هكذا!..

انفض كل من كان حول وضاح. حتى الفراش العجوز دون أن يجمع الأكواب الفارغة. سحب فهيم من يده وغادرا الحجرة في صمت.

على أنه برغم انشغال النائب بتلك الضجة وبزواره الذي يريد أن يطمئنهم بأن الأمور تسير على ما يرام. إلا أنه لم ينس الدكتور وضاح. من حين لآخر يرسل جواسيسه لاستطلاع الموقف ويعود له بالأخبار من كل المكاتب. أبلغ صفية عاملة الهاتف أن تمكن الدكتور وضاح من كل المكالمات التي تأتيه. استغربت ذلك التوجيه! لأنه بطبيعة الحال من واجبها إيصال المكالمات لأصحابها في المكاتب مهما كانت درجات وظائفهم، فما بالك إذا كان طالب المكالمة أو المستقبل لها هو الدكتور وضاح الوكيل الأول في الوزارة! قبل أن ينهي المكالمة طلب منها بأمر صارم. بأن تشبك خط الدكتور وضاح بهاتفه المباشر! ارتبكت ولم ترد بنعم أولا. لحظن الزميلات ارتجاف صفية التي خلعت السماعة من على رأسها ووضعتها جانبا لم يكن من التي تجلس بقربها إلا أن رفعت السماعة علها تسمع بقية الأوامر التي جعلت صفية ترتبك ولا ترد. عندما وضعت الزميلة السماعة على أذنها كان النائب قد أقفل الخط. تلعثم صفية وارتباكها دفع بقية عاملات التحويلة إلى المزيد من الحيرة. خاصة اللاتي لم يفقن بعد من الجلبة التي أثارها الأستاذ عبد الباري، ظلت صفية في ارتباكها هل توافق النائب على طلبه الغريب! وبأي صفة أخلاقية أو قانونية تسمح للنائب بالتنصت على المكالمات؟! لم يكن خافياً على أحد بأن النائب يصنف الدكتور وضاح بعدوه الأول الذي يقف في طريقه ويعرقل أموره ويعطل المشاريع الحيوية التي يراها مفيدة..

في تلك الساعة من القيلولة كانت الوزارة قد خلت من زوارها وممن لهم مصلحة. كما

خلت من معظم موظفيها. لم يبق هناك إلا القليل من الموظفين الذي صدرت لهم الأوامر بأن لا يغادروا حتى يغادر وضاح الذي لم يركع بعد. ظل الهمس يدور بين من أرغموا على البقاء في الوزارة. أحدهم يهمس في أذن صاحبه ويقول: «بإمكان النائب أن يقبض على وضاح ويضعه في السجن منذ الصباح الباكر بعد العراك الذي دار خلال تواجد الزائر الأول. يرد آخر: النائب لا يريد ذلك. يدرك أنه إذا قام بالقبض عليه، قد يجعل منه بطلا في نظر الآخرين. لذا فقد تركه يجري مكالماته ويتصل بمن يريد ويستدعي زملاءه من المحامين والقضاة. أولئك الزملاء الذين انسحبوا سراعاً حين عرفوا أن نزاعه لم يكن إلا مع الذي لايتهاون.

حان أذان العصر. لم يغادر الزوار بعد. برغم انشغال النائب بضيوف الوزارة إلا أنه لم يكف عن مراقبة وضاح وما يدور حوله. يعود جواسيسه وعيونه التي بثها في كل الطوابق ويخبرونه بأنه لا يزال مرابطا في مكتبه. يبتسم النائب ويعود للترفيه عن زواره غير مهتم بالوزير الذي ظل يوزع ابتساماته الباهتة أو ضحكاته العاثرة على الزوار دون أن يتفوه بكلمة واحدة. الكلمة الوحيدة التي قالها هي الاستئذان لتأدية الفرض عندما سمع المؤذن ينادي للصلاة..

من حين لآخر يقوم النائب من مكانه ويرفع سماعة الهاتف عله يسمع صوت وضاح وهو يحادث أي جهة. يتذكر بأنه قال لصفية أن تشبك المكالمات إلى خطه الخاص الذي يوجد في مكتبه. يرفع السماعة من جديد ويطلب صفية. تخبره زميلتها بأنها غادرت الوزارة.. لم ينبس بكلمة، أعاد السماعة إلى موضعها وعاد للترحيب بالزوار الذين لم يكن خافيا عليهم الموقف المتكهرب بين نائب الوزير والوكيل الذي يدعى وضاحا. سبق لأعينهم أن جاسوا خلال البلاد واطلعوا على بواطن الأمور وعرفوهم أين توجد مناطق الضعف والقوة.

النائب على علم بأن هناك من سبق ونقل كل صغيرة وكبيرة قبل أن يصل الوفد لكنه لم يستسلم. سافر بنفسه مرة ثانية ووعدهم بتسهيل الأمور وأن أنسب وقت للمشروع هو الوقت الحاضر. تمكن من أن يقنعهم بالحضور وهون الموضوع وطمأنهم تماما ووعد بأن كل شيء سيتم على ما يرام..

الشرح كان يتم خلال الزيارات السرية التي يقوم بها من حين لآخر. وأهمها الزيارة الأخيرة التي استلم فيها بقية الثمن مضاعفا عما اتفق عليه بحجة أن هناك مسئولا كبيرا يشاركه. وأن الصفقة لن تتم إلا بتعاون تلك الشخصية المجهولة..

بعد ذلك الشرح الطويل والمطمئن تماما من قبل النائب، وصل الزوار الثلاثة. تجاهلوا ما كانت أعينهم قد نقلته لهم من أخبار عن بعض الذين قد يثيرون المتاعب وقد لا يمكنوهم من إتمام الصفقة. تجاهلوا كل التحذيرات واعتمدوا على ما قاله النائب الذي يطمئنهم مرة ثانية وثالثة بأن كل شيء على ما يرام. بالذات في وزارته وما يخصها في الأمر. ما عليهم إلا أن يعتمدوا عليه اعتماداً كلياً ولا يحسبوا أي حساب لما كان قد ذكره جواسيسهم عن وضاح ذلك الوكيل الذي يدعي الحرص على مصلحة البلاد وخلوها من النفايات ولا يدرك الفائدة..

إشاعة الأقاويل

كثرت الأقاويل بعد أن قام الأستاذ عبد الباري وقذف بالصينية. والأكثر غرابة أن إشاعة انتشرت سريعا في أركان الوزارة مفادها أن الدكتور وضاح شتم زملاءه وطردهم من مكاتبهم! وأنه هو الذي قذف بالصينية التي أحدثت الهرج في الممر. كما قيل أن الفراش العجوز لم يسلم من ثورته وأنه دلق الشاي على رأسه.

لا أحد يذكر ما كان في الدور الرابع وما آلت إليه الأمور. تعتيم كامل. في الممرات والمكاتب. لا حديث إلا على ما دار في الدور الذي يوجد فيه مكتب الدكتور وضاح الذي مسه الجنون.

أنهار السمن والخمر والعسل

صحيح أن ثورة الأستاذ عبد الباري كانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير وجعلت الدكتور وضاح يخرج عن حكمة التحلي بالصبر لكنه لم يقذف بالصينية أو يدلق الشاي على الفراش و يحطم الأكواب. ولم يشتم موظفي الوزارة ويخرجهم من مكاتبهم ويجمعهم في الممرات كما يروج زمرة النائب كل الذي قام به هو أنه نهر الجمع بصوت عال وطلب منهم العودة إلى مكاتبهم وأعمالهم بعد أن تجمعوا في الممر متسائلين عن سبب ثورة الأستاذ عبدالباري الذي استنكف وشعر بالمهانة عندما وجد بأن فهيم الفراش الصغير، هو وحده الذي يريد معرفة الحقيقة. بينما بعض القضاة والعديد من المحامين ورجال القانون الذين بعد أن عرفوا بأن الذي جاء لنجدته، غريمه النائب شخصياً. لم يسألوا ما هي المفاوضات التي رفض الدكتور وضاح المشاركة فيها. لقد انسحبوا دون أن يسألوا عن شيء..

عاد الدكتور وضاح إلى داره بعد يوم طويل من المعاناة والمحاولات الفاشلة في إيجاد شخص. شخص واحد يقف إلى جانبه دون خوف من الذين يقفون وراء النائب كما يدعي

ويوهم ضعفاء النفوس. عاد ليقضي سحابة يومه وطنين الأفكار السوداء تكاد تلقي به في غياهب الجنون، سأل نفسه: ما الذي عاد بزمن الخوف وأيام الرعب التي كانت في العهد البائد؟ ذلك العهد الذي كان يدفع بالعديد إلى الانحناء على ركبة أصغر موظف من موظفي الإمام ويقبلها. أين الثورة أين أهدافها؟ تلك الشعارات الرنانة التي انطلقت بعد إعادة الوحدة وكلها تنادي بمحاربة الفساد والمفسدين والتصدي لكل من تسول له نفسه المجازفة والاستهتار بصحة المواطن وتعرض حياته للخطر مقابل حفنة من المال يدلى بها لزمرة الحكام ماذا حدث في الدنيا حتى يتكالب الناس على المال وجنيه بأي وسيلة حتى لو كانت دنيئة وعلى حساب الأخلاق والدين والقانون، ونكبة الوطن والشعب بالكوارث التي لا يعلم سوى الله مداها..

لم يسأل عن الأولاد ولا داعب التوأم كعادته.. زوجته تدرك محنته عبر ما نقلته إليها صفية عاملة التليفون في الوزارة. عرفت منها أن زوجها يواجه متاعب جمة وإن خفي عليها الكثير من التفاصيل المهينة التي تجرعها تباعا في مكتب الوزير بعد أن خيب ظنها وعاد لصمته. وظل على ذلك الحال حتى المساء. نامت زوجته والأولاد وهو لم تطرف له عين طوال الليل. بعد أن صلى الفجر غشاه النوم من شدة الإجهاد. كادت تتركه وتذهب إلى عملها مخافة التأخير، وهناك العديد من الأعمال عليها إنجازها لأن العام الدراسي في نهايته. قبل أن تغادر أفاق من نفسه. خرج الزوجان كل منهما إلى عمله في حالة توجس واكتئاب.

بدلا من أن يذهب إلى الوزارة. توجه مبكرا إلى مبنى رئاسة الوزراء التي لم يسبق ودخلها من قبل رد التحية الصباحية على الحارس الذي يقف على الباب مدججاً بالسلاح. هو الآخر كان قد شاهده في المقابلة التليفزيونية. لكنه لم يسمح له بالدخول أو حتى الوقوف قرب المصعد المؤدي إلى مكتب رئيس الوزراء.. فجأة يظهر أمامه وزيره المسؤول عن سبب مجيئه المبكر!.. رآه يتقدم مدير مكتبه الذي يحمل الحقيبة. حدث نفسه: «بالتأكيد الملف المشؤوم بداخلها». لم يطل وقوفه. وجد أن لا فائدة من مقابلة رئيس الوزراء. لن يقدم الوزير على هذا إلا بمباركة عليا. فكر في مجلس النواب. حدث نفسه قائلاً: بالتأكيد لن أخيب هناك. وإذا لم أجد تعاونا من رئيس المجلس، سوف أطرح القضية على نواب المعارضة، لن يخذلوني.

قبل أن يستقل سيارته ويغادر ساحة رئاسة الوزراء، لمح أحد طلبته برفقة شخصية مرموقة كثيراً ما رأى صوره في معظم الصحف التي تنشر تصريحاته النارية بالبنط العريض.

خلال التفكير في الانسحاب من باب رئاسة الوزراء في هدوء. رآه تلميذه الذي يحضر لشهادة الماجستير في الحقوق تحت إشرافه. بعد أن وجد بأن لا فائدة من أن يتجاهل تلميذه

الذي يتقدم نحوه هاشاً باشاً ويحييه بتحية حارة، ويقدمه إلى الشخصية المرموقة قائلا: «أستاذي الكبير الدكتور وضاح. بعدها قدم الشخصية المرموقة قائلا: عمي.. وبصوت خفيض أضاف «أبو المره».

أدرك الدكتور وضاح أن نسيب تلميذه سوف يصنع له مستقبلاً زاهراً يؤهله لأعلى المراكز..

تركهما واستقل عربته التي احترمت المكان ولم تخذله. بدلا من أن يتوجه إلى مجلس النواب كما كان ينوي، عاد إلى الوزارة يجر أذيال الخيبة. عند الباب وجد الكثير من الموظفين والسعاه ينظرون إليه بريبة وبشيء من الإشفاق.. توجه إلى مكتبه دون أن يشغل نفسه بتحليل الوضع أو متى غادر الزوار.

زملاؤه الذين يشاركونه نفس المكتب كانوا قد حضروا وكلهم ترقب ماذا سيكون منه بعد ثورة الأمس التي أشعلها الأستاذ عبد الباري وما كان قد سبقها من أحداث وما أعقبتها من إشاعات. قلب بعض الأوراق التي كانت قد وضعت على مكتبه قبل بداية الدوام. خلافاً للعادة السابقة. كان هو الذي يطلب إحضار الملفات بعد أن يكون قد تأكد بأن الوزير أو نائبه قد مرا على كل ورقة وتمت مراجعتها قبل أن يسلمها لأصحابها. أحيانا يمر أسبوع وأكثر، قبل أن تعود إليه.. اليوم عادت إليه وكلها موقعة من قبل الوزير شخصيا. ومختومة بختم الوزارة..

أعاد فحص الأوراق مرة ثانية وثالثة ليتأكد من الختم وتوقيع الوزير. لم يصدق! حتى القضايا التي كان قد سبق له وعرضها على النائب ورفض النظر فيها، وجدها بين الأوراق جاهزة لتسليمها لأصحابها الذين انتظروها طويلا حتى أن بعضهم كان قد يئس من عودتها إليه وشرع في استخراج غيرها ولم يعد يسأل عنها.

لم يصدق!. فجأة فغر فاه حين وجد ورقة داخل أحد الملفات كان مدير مكتب الوزير قد ادعى أنها ضلت منه قبل خمسة أشهر. كانت المستند الوحيدة الذي يثبت ملكية مواطن بستان عنب صغير في الروضة، كان أحد المتنفذين قد استولى عليه وضمه إلى مزرعته الشاسعة..

من كان على مكتبه من الزملاء في تلك اللحظات، شاهد الفرحة التي كست وجه الدكتور وضاح. الكل صار يرقبه وهو يقلب الأوراق. تعجبوا! وتوقعوا أن الذي كدره بالأمس قد تم حله. وأن الكارثة التي كان يتوقعها قد انتهت..

من هنا عادوا لأعمالهم بجدية وكل واحد يبحث بين الأوراق التي وضعت على مكتبه عله يجد بداخلها ما يفرحه كما فرح وضاح. بعد خلو الأوراق من أي ورقة بها ما يسر. عادوا لتندرهم وتذمرهم السابق وسخريتهم من الأوضاع. .

لكن لم يجرؤ أحدهم على التندر بعربة الدكتور وضاح. ابتعدوا عن مكتبه وجلسوا في ركن من الغرفة وراحوا يصبون جام سخرياتهم هذه المرة على زميلهم الأستاذ عبد القادر صاحب العمة والخنجر الذي يتمسك بارتدائهما في مكتب لا يليق بهم.

كثيرا ما تندروا عليه في السابق. ولم يكن منه إلا أن يرد بالهجوم المباشر على زميله الأستاذ عبد الباري الذي يستنكر عليه ارتداء الثياب التقليدية لرجال القضاء. في مرة من المرات قال: «لماذا يا عبد الباري تريدني أن أتخلى عن خنجري وعمتي و«التفرنج» مثلك؟. الكل على علم بأنك لم تتفرنج إلا لاعتقادك أن ذلك من شأنه أن يحسن من وضعك المالي. لم تدرك أن وضعنا لن يتحسن إلا إذا حدثت معجزة وأمطرت السماء سمنا وعسلا».

يقاطعه الأستاذ عبد الباري قائلا: «لا. لا داعي لأنهار السمن والخمر والعسل وإلا ماذا ينتظرنا إذن في الجنة، ويكفينا في هذه الدنيا الفانية، أن تمطر السماء لبنا ولا بأس إذا أمطرت بعض «الكدم» الدافئة. .

يرد عليه الأستاذ حمود بشيء من المعارضة وبنوع من أنواع الاحتجاج: «لماذا البخل والتقطير يا عبد الباري حتى في التمني! يبدو أنك من الزاهدين الذين يقتنعون بأقل القليل. دع السماء تمطر ما أرادت. لا تعترض يا «عُبد» ألا تحفظ الآية الكريمة ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾. ألا تسمع. إذا تمنيتم فأوسعوا. لعل باب السماء يكون مفتوحاً وتستجاب الدعوة. دعنا نتذوق نعم الله «ولو نظريا»!

عبد الباري: من قال لك إنه يدعو أو يتمنى؟! إنه لم يقل «إلا إذا حدثت معجزة». .

الأستاذ غانم: دعونا من التمني وحديث المعجزات. هاهو القاضي أحمد مقبل نحونا عله يأتينا بأخبار التنقلات والعلاوات التي لم ينفك عن الحديث حول توسطه والجهد الذي بذله في سبيل رفع مرتبات رجال القضاء وزيادتها لكي لا يضعفوا أمام المغريات التي تعرض سراً وعلناً.

الأستاذ عبد الخالق: هل تعتقد بأنه سيضمنا إلى قائمة المتظلمين بعد أن تم حشرنا في هذا المكتب وصرنا خارج رجال القضاء والقانون وأصبحنا في نظره مجموعة من المهرجين؟!

لم يدخل القاضي أحمد. تجاوز مكتبهم وتوجه إلى موظفي الأرشيف في آخر الممر!

ضجوا بالضحك حين سمعوه يبلغ الفراش أن يأتيه بالشاي إلى مكتب الأرشيف. كثير من النوادر يتذكرونها وهم يحاولون إعادتها علهم يتمكنون الخروج من أحداث الأمس التي عصفت بكل شيء. .

يخرجهم الأستاذ غانم من صمتهم وترقبهم لما قد يقوم به الدكتور وضاح أو الأستاذ عبدالباري. يقول: «ألا ترون سرور وضاح بالأوراق التي يقلبها؟ سبحان مغير الأحوال بين ليلة وضحاها. كيف كانت حالته بالأمس وكيف هي اليوم!

الأستاذ حمود بصوت هامس: «لو كانت هذه الأحكام في عهدتي لكنت جنيت من ورائها مبالغ ضخمة وكنت تكرمت على كل واحد منكم بخروف العيد، خروف هل تذكرونه؟!»

الأستاذ عبد الباري: أنت يا حمود ذكرنا به وبطعم لحمه وقل لنا ما لونه؟! لقد تشابهت علينا الألوان ولم نعد نميز بين لحم الخروف والدجاجة والسمك والتيس؟!

الأستاذ حمود: أتذكر بأن طعم لحمه، يختلف عن طعم الدجاج والسمك ولونه لا يشبه التيس. كما أنه لا ذلول يثير الأرض ولا يسقى الحرث. .

الأستاذ عبد القادر: أستغفر الله من هذا الهذر. من تخاطب يا أخ حمود؟ نحن قضاة ومحامون. لسنا بني إسرائيل.

الأستاذ غانم بعد صمت قصير. يخاطب الأستاذ عبد القادر: «مالك اليوم يا عبدو مالك ياصاحبي! لم ندس لك على طرف لماذا تؤول مالا يؤول؟!. .

الأستاذ غانم بصوت مليء بالسخرية يقول: «لماذا التحامل على سيدي حمود؟ دعوه وشأنه يؤول ويفسر ما يريد. صدقني لو كانت هذه الأوراق التي بحوزة وضاح في حوزته كان الآن في شأن آخر، تصوروا لو كانت بيد صاحبنا، لكان طواها خفية عنا ووضعها بجيبه السري وتوجه فوراً لمقابلة أصحابها وساومهم في الثمن قبل أن يسلمها. .

الأستاذ حمود: وأنت يا غانم، لو كانت الأوراق بحوزتك ماذا ستفعل؟

* سأفعل ما تفكر فيه تماماً. قد أتسامح مع ذوي الدخل المحدود من أمثالك لكن بالنسبة للوجهاء والأغنياء والذين ينتهزون الفرص كلا وألف كلا.

يعود الأستاذ حمود إلى تساؤلاته وتمنياته المستحيلة ويقول: بالله عليكم من منا سيحصل على خروف سواءً عن طريق الرشوة أو أي مسمى. .

الدكتور وضاح لازال يقلب في الأوراق التي عادت إليه بمعجزة لا يدرك كنهها. كان منهمكاً في ترقيم الأوراق غير مهتم بمتابعة نقاش من حوله وضجيجهم.

الأستاذ عبد الخالق من خلف مكتبه الذي لم يكن عليه أي ملف أو ورقة تدل على أنه يعمل في وزارة مضطلعة بالعديد من قضايا المواطنين المؤجلة . .

خلال التمني وطلب المعجزات وانهماك الدكتور وضاح في ترتيب الأوراق، يدخل القاضي أحمد الذي من عادته أن لا يغادر الوزارة إلا نادراً قبل أن يعرج على معظم المكاتب في الوزارة. هو الآخر كان قد علم بأحداث الأمس والمفاوضات وما تم فيها وكيف استمرت إلى ما بعد غروب الشمس. لكنه بطريقته المتفائلة وأسلوبه الواثق وثقته الكاملة بأولى الأمر. قلل من الأخطار التي يتحدث عنها همسا معظم الذين مر على مكاتبهم تألم لما لقي الدكتور وضاح، لكنه يرد اللوم عليه لأن المسألة في نظره لا تستحق الثورة التي يتحدث عنها موظفو الوزارة. ماذا يعني مقبرة للنفايات؟ ما نوعها لماذا الخوف؟ قد تكون مكنات استغنت عنها المصانع الحديثة وقد نستفيد منها. وربما معدات طبية وقد تكون بعضها لا تزال صالحة. ويضيف بكل ثقة واطمئنان ويقول: «لماذا نحن هكذا نشك في كل شيء!؟ المعونات، المساعدات، ما يقدمه البنك الدولي من حلول»!

برغم التقدير الذي يكنه للدكتور وضاح ويتألم للإجحاف الذي يلاقيه وأحزانه ما تعرض له يوم أمس. إلا أنه لا يوافقه على إصراره معاندة نائب الوزير الذي يراه أصلح من يتولى منصب النائب لجرأته في اتخاذ القرارات مهما كانت نتائجها وعواقبها! . .

عندما دلف القاضي أحمد إلى المكتب الذي يشغل إحدى زواياه مكتب الدكتور وضاح وقف بقامته الفارعة وعمته التي تميل أحياناً إلى الخلف ويحاول إعادتها دون أن يلحظ أحد حركته الانفعالية. مثل عادته، وقف قرب مكتب الأستاذ غانم الذي هو أقرب مكتب للباب. في الماضي قد يدخل في نقاش طويل مع الأستاذ عبد الباري دون أن يتمكن أحدهما من أن يقنع الآخر بنظريته . . .

بعد الحادثتين أو المقابلتين اللتين قلبتا الوزارة رأساً على عقب في الأمس ولم يتسن للقاضي أحمد المشاركة فيهما، أراد أن يطلع على ما حدث من لسن الطرف الذي يحمله اللوم لأنه أثار عاصفة لا لزوم لها. ظل واقفا وشيئا من الحزن أو الغضب يكسو ملامحه التي يحاول أن يجعلها جادة. بادر بتوجيه النصائح التي في قرارة نفسه يعلم بأنهم لن يعملوا بها. يدرك بأن هؤلاء الذين اختاروا أسلوب المعارضة التي لا طائل من ورائها. لكنه مثل عادته

لا ييأس . . بادر الدكتور وضاح قائلا : « ما الذي جعلك تقوم بما قمت به يوم أمس؟ لماذا توسع الهوة بينك وبين النائب بإثارة المزيد من المشاكل»؟

الدكتور وضاح لازال منهمكا في الأوراق التي عادت إليه .

الوحيد الذي يصغي لما يقوله القاضي أحمد هو الأستاذ عبد القادر الذي نهر الأستاذ حمود عندما بدأ بالتصفير . عندما دخل القاضي أحمد الذي انفعل وأزبد وأرعد اقترب من الأستاذ حمود مناشداً إياه احترام المكان الذي لا يجب فيه التصفير ، وكاد أن ينسحب لكنه غير رأيه عندما رأى الدكتور وضاح يترك ما كان منهمكاً فيه ويوبخ الأستاذ حمود هو الآخر . التقت نظراتهما وشعر بأنه قد يعيد النظر فيما قاله ويحد عن مناصبة النائب العداء . .

القاضي أحمد الذي يطلق عليه البعض «أحمد بن يحيى» بسبب الجدية التي يرسمها على تقاطيعه عندما يتحدث بطريقة توحي بالتعالي على موظفي الوزارة! . . يحدث ذلك في الوهلة الأولى بعدها يتضح للكل كم هو دمث الخلق . .

يرتاح لمجالسة من يلقبهم «بصعاليك الوزارة» إلا أنه لا يوافقهم في آرائهم التي يرى بأن فيها تجنيا وشيئا من الظلم لأولى الأمر . لكنه لا ينفعل أو يخاصم كما فعل اليوم . في السابق كان إذا دخل في خلاف مع الأستاذ غانم أو الأستاذ عبد الباري هؤلاء الاثنين بالذات يحلو لهما إثارته بالتنكيت الذي يراه في غير محله إذا طال الرموز التي هي في نظره خير ما جاد به الزمن . . . كان قد تم تعيين القاضي أحمد مستشاراً قانونياً بعد رحلة طويلة قضى معظمها متنقلا بين مكاتب الوزارة في مختلف المحافظات آخر عمل له كان في الحديدة التي انتقل إليها من بيت الفقيه .

منذ أن تم تعيينه أخيرا بدرجة مستشار في الوزارة . لم يتخلف يوما عن الحضور ولم يفته شيء ما عدا ما كان بالأمس . يحرص دوما على أن يكون متواجدا في كل الاجتماعات . حتى وإن لم يرغب أحد عن حضوره لم يسبق للوزير أو نائبه أن طلبا منه أدنى استشارة . يضيق به النائب ويوبخ مدير المكتب الذي بلغه بأن هناك اجتماعا . يقسم المدير بأنه لم يبلغه . يقول له النائب : «حسنا . في المرات القادمة امنعه من الدخول» لكنه يأتي ويرد التحية على سكرتير الوزير ومدير مكتبه اللذين يمنعهما الحياء من اعتراضه . طالما أن الوزير لم يبلغهما بمنع المستشار من حضور الاجتماع . مما حدا بالنائب أن قالها علنية وفي وجهه : «بأن لا أحد يرغب في حضوره» . لكنه بطيبة خاطر يحضر ويتجاهل الإهانة . القاضي أحمد من الناس الذين تبلغ بهم الطيبة أن يتجاهلوا الحقائق ويظلوا على وفائهم وسذاجتهم مهما تكرر ظلمهم وعدم تقدير أي موقف أو دور لهم . .

في إحدى المرات التي أطل فيها على مكتب المغضوب عليهم وهو معتمر لعمامته التي تميل إلى الخلف أحيانا مما يجعل تقاطيع وجهه تبدو متجهمة وأكثر صرامة عندما يبدأ في طرح توجيهاته وآرائه التي حرم من طرحها في الدور الرابع . .

هكذا هو القاضي أحمد. لا يحسب أي حساب للنتيجة التي قد يترتب عليها تلك التوجيهات والآراء التي لن يعمل بها هؤلاء الذين ظلمه يفوق ظلمهم لكنه تعالياً لا يعترف بذلك. يوبخهم على الطريقة التي يتبعونها في التنفيس عن أحوالهم بالتنكيت. يقول لهم: «لماذا لا عمل لكم إلا ترديد النكات المكررة والسخرية. أو الشكوى من الأوضاع؟ أنتم من أولئك الذين يسعون للخلاص من وزير السوء لكي يأتي الوزير الأسوأ» . . .

يخاف من التغيير ويهدد من أن يأتي الوزير الأسوأ، قبل أحداث الأمس بعام تقريبا. جاء إلى مكتب من يسميهم الصعاليك وبدأ يتحدث عن الاجتماع الذي ضم العديد من المحامين والقضاة وأنه أبلى فيه بلاءً حسناً وطرح أراءه بصراحة وكيف أن النائب أدار الاجتماع بكل جدارة واقتدار. . ولأن الدكتور وضاح لم يكن موجوداً على مكتبه ليفلسف ويحلل. من هنا قام الأستاذ عبد الباري بالمهمة. بدأ بسبر أغوار الشخصية وتحليل آرائها التي ترى بأن «ليس في الإمكان أفضل مما كان». خرج الأستاذ عبد الباري بنتيجة مفادها: «أن القاضي أحمد إما أن يكون من أولئك الذين عاشوا حقبا من الزمان في القهر المستديم الذي خنقهم وجعلهم يرضون بما هم عليه من وضع مخافة من أن تكون للحوائط آذان وتكونت لديهم فكرة راسخة بأن الهواء يحمل في نسماته أجهزة تنصت. وهكذا يتصرفون برغم علمهم بأن لا أحد يراقبهم أو ينقل ما قالوه. لكنه الخوف الموروث الذي يخيل لهم بأن هناك أجهزة تديرها أياد الجن والإنس وتنقل حتى ما يفكرون فيه . . . إلى جانب كل هذا هناك الخوف والفزع بأن الأيام قد تأتي بما هو أسوأ. . .

هذا ما توصل إليه الأستاذ عبد الباري الذي ختم تحليله بنصيحة قيمة في نظره، وهي أن يخرج القاضي أحمد من تحت عباءة الماضي ويتحرر من الخوف الذي يلازمه من التغيير الذي يتصور بأنه لن يأتي إلا بالأسوأ. مما يدفعه إلى التغابي وتجاهل الكثير من المخالفات التي ترتكب أمامه. كذلك عليه التخلي عن الأسلوب المتسامح الذي يتبعه عندما يخطئ في حقه. وتبع التحليلات بالنصائح وقال على صديقنا الغيور والوفي، أن يحتج على الطريقة التي يعامل بها وكيف يتجاهلونه، ويسأل نفسه قبل أن يسأل الذين يسخرون من آرائه وأفكاره. يسأل لماذا وهو القدير والضليع بالمسائل القانونية. وفوق هذا كله هو محب ومخلص لأولى الأمر . .

بعد كل ذلك التحليل والنصائح التي كانت على مسمع ومرأى من القاضي أحمد الذي جلس على مكتب الدكتور وضاح بهدوء غير مسبوق. لم يستخف أو يقاطع ظل ينصت. والأغرب من كل ذلك أن وعد بأن يفكر في كل ما قاله هذا الساخر الذي صار فيلسوفاً جديداً! . لكنه قبل أن ينصرف من مجلس الظرفاء ومن تجمع حولهم من صغار الموظفين، قال: بالنسبة لما تقول بأن هنا من يوجه لي إهانات هذا غير صحيح! أما قولك بأني لا أحتج عندما ألمس التجاوزات. من أنا ومن أنت حتى نحتج على أمور ليست بالخطورة التي تتصورها أنت؟ وفوق ذلك لماذا الاحتجاج والبلاد في حالة مخاض؟!

ضرب الأستاذ غانم كفا بكف. وعاد الجميع للهزار وهم يدعون القاضي أحمد الذي قبل أن يغادر الممر يلتفت إلى الخلف نحو مكتب من يسميهم بالصعاليك الذين لا يستغني عن مجالستهم ويقول: «الله يعينهم على الهذر والأسلوب الذي يتبعونه . .

اليوم لم يطل المكوث في مكتبهم اكتفى بالنصيحة التي وجهها للدكتور وضاح وتركه مع الأوراق التي يعتبرها مهمة وقد تفيد أصحابها وبها يستعيدون حقوقهم . .

الأستاذ حمود لازال ينظر للأوراق بتحسر ويتمنى مثل غيره من المعدمين بأن تكون في حوزته. الأستاذ عبد القادر يلحظ اهتمامه ووقوفه وجلوسه ونظراته الفاحصة لما بين يد الدكتور من أوراق. يخاطبه قائلا. لماذا لا تجلس يا حمود وتترك وضاح يستمتع بالكنز الذي هبط عليه؟ يرد الأستاذ حمود قائلاً: «أي والله كنز. لكنه مثل سيف في يد عجوز» يقول الأستاذ غانم بشيء من الموافقة على ما يرمي إليه الأستاذ حمود ويصرح بأن العمل الذي يمكن أن يستفيد منه الطرفان دون أن يكون هناك إخلال بالقانون لم لا؟ يقاطعه الأستاذ عبد الباري ويقول الذي ترمي إليه هو استغلال حاجة الغير وتبرير أخذ الرشوة. . يعود الأستاذ حمود ويبرر أفكاره ويصدق على ما قاله الأستاذ غانم ويقول: «بطل المثاليات يا عبد الباري. بالله عليكم يا جماعة من منا يستطيع إنكار واقع الحال الذي جعل الكثيرين يتنكرون للمبادئ بعد أن وجدوا العديد منا وقد أصابهم شيء من المس كما كاد أن يحدث في الأمس؟ قال جملته الأخيرة وهو ينظر صوب الدكتور وضاح الذي لم يعد يشاركهم في الهذر الذي لا جدوى منه. لقد حزم أمره وقرر الرحيل. لم يعد أمامه إلا أن يسلم ما بعهدته من قضايا لأصحابها ويفر كما يقول زميله الدكتور عبد الولي في رسالته الأخيرة التي قال فيها: «فضلت الفرار على المواجهة لكي لا أفقد عقلي» الأستاذ عبد القادر لحظ عدم المبالاة التي يتبعها الدكتور وضاح. لم تخف عليه حالة الشرود. لم ينطق بكلمة منذ أن غادر القاضي أحمد الذي حاول أن يتسم بالجدية ولم يمارس انتقاداته المتواصلة لهم عندما يخلطون الجد بالمزاح. . .

حاول الأستاذ عبد القادر أن يعيد الدكتور وضاح إلى عالمهم المزيج من الهموم المرح والضحك والسخرية . لكن يبدو أن صاحبهم يحاول الانسحاب تدريجياً من عالمهم لعل وعسى أن تكون ظروفهم أفضل بدونه . وضع كل ورقة على حدة في ملف خاص بها حتى يسلمها لأصحابها ، ثم يحدث نفسه : «ترى هل يتمكن أصحاب هذه الأوراق من استرداد حقوقهم عن طريق الجهات التنفيذية؟» .

من حين لآخر يتابع السجل الدائر عن بعد بين زملائه . يحسدهم على خلو البال أو التظاهر بذلك وتعمدهم حصر الهموم في خروف العيد ! . . مع أنه على يقين بأن كل واحد منهم في قرارة نفسه ، يدرك خطر المؤامرة التي تحاك بين الوزارة والشؤون البيئية والطاقة . لم يشارك في هرجهم المعتاد . كل تفكيره كان منصباً في الوفد الذي لم يعلن عنه! ولماذا تتم المقابلة في الوزارة؟ ! ما الذي يمكنه القيام به ليمنع إتمام هذه الصفقة المشبوهة . لمن يتوجه؟ يحدث نفسه ويحاورها . هل يكتفي بالزيارة الفاشلة التي قام بها لرئاسة الوزراء ولم ينجح حتى في مقابلة مدير مكتب رئيس الوزراء . هل يعيد المحاولة وإن لم يفلح ، هل يذهب لمجلس النواب؟ دون أن يلحظ كان قد صار حواره مع نفسه همهمة مسموعة . فجأة ران الصمت المطلق على الحجرة وعلى الزملاء الخمسة لم يعلق أحد على ما تفوه به . الكل كان ينظر إليه متوقعا ثورة الأمس . الذي عاد لها هو الأستاذ عبد الباري أخرجهم من حالة انعدام الوزن عندما قال : «هل نكتفي بالسرور الذي يكتنف وضاح بالأوراق التي لن تقدم أو تؤخر ولن تعيد الحقوق لأصحابها؟ ! لماذا مزقنا العريضة السابقة؟ ولماذا لا نكتب غيرها ونقدمها لرئيس الجمهورية موقعة منا جميعا . ويعود ويستدرك ويقول : «لا . أعتقد أنه من الأفضل أن نقدمها لوزارة الأوقاف . لا داعي لتقديمها للمسؤول الأول . المهم أن نقوم بما من شأنه أن يعيد لنا بعض الكرامة . . عار علينا أن نتصرف اليوم مثلما تصرفنا بالأمس بعد أن وجدنا صاحبنا وقد تصالح مع النائب وعاد معه إلى الدور الرابع ناسيا أو متناسيا أنه المستهدف » .

بشيء من الجدية وبنوع من أنواع التهدئة يقول الأستاذ عبد القادر : «لا . وضاح لم يعد وحده المستهدف . أصبحنا كلنا مستهدفين معك حتى أن وضاح خذلنا . ولكن لماذا اخترت وزارة الأوقاف لتقديم العريضة؟ !

* هي الوحيدة التي يمكنها أن تحرك خطباء المساجد وتجندهم لخدمة القضية .

* لا الذي يمكنه تأجيج الدعاة والخطباء هي الأحزاب ذات التوجيه الديني .

الأستاذ غانم : «عما تتحدث؟ وزيرنا عضو في واحد منها وعضو غير عادي» . . .

يقول الأستاذ عبد الخالق : « إذاً . . ليس أمامنا إلا مجلس النواب» . .

ينبري الأستاذ غانم قائلا : «مجلس النواب؟! ألا تدري بأنه غارق في قضية المعاهد العلمية وهل يحق لوزارة التربية أن تضمها أم لا . استبعد مجلس النواب ومجلس الوزراء حتى رئاسة الجمهورية؟ أو ما رأيكم بمجلس الشورى الجديد؟ . . .

ضج المكتب بالضحك . حتى الدكتور وضاح الذي يصف الملفات والأوراق توطئة لتسليمها لمن هي موجهة له . هو الآخر كاد أن يغشى عليه من الضحك . .

الأستاذ عبد القادر: والله أمركم عجيب! لماذا تستخفون بمجلس الشورى مع أن فيه هم من خير رجالات البلاد ومرجعيتها . . منهم المقدم والعقيد والوزير والسفير والمفكر والأديب . هل تريدوننا إذن تقديم العريضة لمجلس الأمن . أم نكتفي بالجامعة العربية بعد أن صارت جثة هامدة لم تشيع بعد إلى مثواها الأخير . .

الكل أراد أن يحد من غضب الأستاذ عبد الباري وتفادي ثورة الأمس . يقول الأستاذ حمود : «إذاً دعونا ننتظر حتى يتم قبولنا في مجلس التعاون الخليجي . بعدها نقدم العريضة .

الأستاذ غانم ساخراً : «هذا إذا عشنا حتى ذلك الوقت الذي ننال عضويته» . .

الأستاذ عبد الخالق الذي يجرب أن يتمسك بفضيلة الصمت كان قد حاول ذلك ولم يفلح منذ أن دخل القاضي أحمد وغادر بسلامة الله . عاد وقال : «يا جماعة دعونا من المزاح . الوضع خطير . علينا أن نعمل شيئاً لإنقاذ أنفسنا من الدمار المتوقع إذا تمت الموافقة على دفن النفايات هنا» . .

عبد الباري : «من قال لك إنها لم تتم بعد؟ تحدثني نفسي بأنه تم الاتفاق على كل شيء» . لم يعد هناك إلا اختيار المكان المناسب للمقبرة والعياذ بالله . ويضيف ساخراً بعد أن استعاد شيئاً من هدوئه : «هناك من يشيع بأن الاختيار قد وقع على قاع «جهران» لأنه المكان المناسب» .

الأستاذ حمود وقد أخذ المسألة محمل الجد : يا جماعة مستحيل . . لن تكون المقبرة إلا في منطقة نائية وخالية من السكان . .

الأستاذ غانم : «تقصد مثل الربع الخالي»؟

* أي ربع خالي؟ صح النوم . الربع الخالي أصبح في يد حمران العيون . .

الأستاذ عبد الباري وقد استعاد بعض سخريته : «إذا لم يعد أمامهم إلا «المخا» . . المخا قريب من البحر وبعيد عن الأعين» . . أي والله المخا . وبدلا من أن يقال «كوفي موكا» يقال «نفايات موكا» . . لا أعتقد . هذه مغامرة معقدة لن يقدم عليها ذلك النائب بمفرده . بالتأكيد هناك من يدعمه . .

الأستاذ عبد الخالق: رجاءً فضونا من هذه السيرة. وتفاءلوا بالخير. أؤكد لكم بأن النفايات لن يتم وضعها في بلادنا. لن تخلو البلاد من الخيرين إلى هذه الدرجة. بكل تأكيد هناك من تهمه حياة الشعب وسمعة البلاد ولن يقبل بتمرير الصفقة.

الأستاذ حمود من قال بأن هناك من يفكر في المصلحة العامة أو السمعة أو الوفاء؟!

الأستاذ غانم: «لا. لا تقل بأن الوفاء اختفى. بالذات الوفاء. إنه موجود والدليل على ذلك تمسك عبد القادر بارتداء العمة و«الثومة» ألا ترى بأن ذلك مسألة تتعلق بالوفاء؟!».

* لا يا صاحبي إنها من المسائل الاقتصادية البحتة. أما الوفاء، ستتركه لك ووضاح..

كان السجال قد خرج عن الجد تلقائياً وتحول إلى مزاح والحديث عن الزي والوفاء. تذكر الدكتور وضاح ما كان يتم من تندر الزملاء وسخرياتهم من الطريقة التي يعقد بها أحدهم ربطة عنقه. أو تعليقاتهم الساخرة عن سيارته. مرة من المرات لم يجدوا من يتندرون عليه سوى الفراش الجديد الذي استفز الأستاذ عبد الباري بسؤاله عن النفايات وما حقيقتها. فهيم هو الوحيد الذي أصر على معرفة الحقيقة. هذا الشاب الأنيق الذي لم يقبل أن يرتدي الزي الرسمي لسعاة وفراشي الوزارة. رفض التخلي عن زيه الحضرمي. بعد محاولات ومداولات قبل أن يتخلى عن الشال زاهي الألوان الذي يضعه على كتفه الأيسر بعناية فائقة. في بعض المرات ينزلق عن موضعه مما يضطره لأن يضع صينية الشاي التي يحملها على أول مكتب يصادفه دون استئذان لكي يعدل وضع دسمانه على كتفه. في البداية لم يكن يتضايق الموظفون من الطريقة التي يدخل بها الساعي المعتد بنفسه إلى الدرجة التي توهم الذي يقدم له الشاي بأنه من أبناء أحد السلاطين الكبار. الكل صار ينادي فهيم لمجرد الدعابة أو المشاركة لو أراد أحدهم ورقة أو قلما من زميله في نفس الحجرة، يناديه! ومنهم من لا يريد الشاي إلا من يد فهيم الذي يصر على أن يرتدي زيه المميز رغم أنه لا يتناسب مع مهنته. المرة الوحيدة التي ارتدى فيها زي السعاة دون أن يطلب منه أحد. كان ذلك هو حالما أدرك بأن الدكتور وضاح قد يترك الوزارة. انتبذ من جانب الفراش العجوز ولم يعد إلا مرتديا زي السعاة الذين يسمعون الكلام قام بذلك لكي يرضي وضاح، عله يغير رأيه ويبقى..

الذي ألحق فهيم بالعمل في الوزارة هو الحج أحمد الفراش العجوز وذلك نوع من الوفاء لوالد فهيم الذي كان له الفضل في إيجاد عمل له في أحد المعسكرات البريطانية في عدن أيام الاستعمار. كان ذلك منذ خمسة وأربعين عاما عندما جاء وهو شاب صغير يبحث عن عمل في ميناء عدن بعد أن جف الزرع والضرع في القرية واستعصت الأرض بسبب الجفاف الذي لم تعرفه البلاد من سنين عديدة، ظل يتنقل بين المقاهي والمطاعم يبحث عن عمل دون

جدوى. حتى صادفه أبو فهيم وألحقه بعمل يدر عليه دخلا لا بأس به مكنه من أن يرسل لوالدته عشرة ريالات كل شهر وهو الذي لم يكن يتقن من الأعمال سوى حرث الأرض والبحث في باطنها عن عروق شجر العوسج ليبيعه حطبا ومن ثمنه يبتاع ما يسد رمقه وأنه في عدن داخل ذلك المعسكر المهيب. وجد ضالته. أقبل على العمل بهمة ونشاط وزاد مرتبه. والفضل لأبي فهيم الذي كان يوجهه ويعلمه ويشذبه ويختار له الثياب التي تتناسب مع عمله الجديد. علمه كيف يصنع الشاي والقهوة. هو الآخر لم يكن يخالف له أمرا كما يفعل فهيم هذا الشاب المعاند الذي يتصرف بطريقة توحي للموظفين بأنه متكبر ومتعجرف، مما دفع ببعضهم إلى الإساءة إليه وتعمد إذلاله كي يكون فراشاً مطيعا كما يقولون. في يوم جاء الحج أحمد شاكيا للدكتور وضاح من المعاملة غير الطيبة التي يتلقاها فهيم من بعض الموظفين الذين يسخرون من طريقته في تقديم الطلبات. وأنهم يتعمدون على مناداته بسبب وبدون سبب.

قال: «هذا ظلم وتعسف يا دكتور. تصور أن بعضهم يدعي زورا وبهتانا بأن أطراف شاله تدلت إلى داخل كوب الشاي! مما حدا ببعضهم القول لفهيم بكل سخرية: اخلع شالك وحذاءك قبل أن تدخل علينا بالشاي. يستفزونه ويسخرون منه بسبب وبدون سبب.

وعده الدكتور وضاح أن يعمل جهده لكي يجعلهم يكفون عن مضايقة فهيم خاصة زملاءه في المكتب الجديد. .

لم يكن من الفراش العجوز إلا أن قال: «أستغفر الله يا دكتور، زملاؤك من خيرة من يعمل في هذه الوزارة. أي نعم يحبون المرح والتنكيت. ثم إنهم لا يتجنون أو يفترون أو يحتقرون من هو أدنى منهم وظيفياً كما يفعل أولئك الذين يحبون تحقير السعاة والسخرية منهم. ويتآمرون على زملائهم ويكيدون لمن هو أحسن وأفضل منهم كما يفعلون معك يا دكتور».

يهدئه الدكتور وضاح ويقول له: «خير. هون عليك الأمر ولاتشغل بالك. غداً تصلح الأحوال وتنتهي كل هذه المفارقات!

* يا دكتور أنا لا أحب أن أحشر نفسي فيما لا أفهمه. كل ما في الأمر أنه بحكم السنوات الطويلة التي خدمتها في هذه الوزارة ومامر علي فيها وجدت أن لا مكان للأوفياء من أمثالك. .

* ماذا أفعل إذن يا حاج أحمد هل تريدني أن أترك الوزارة؟. .

* لا ولكن يجب أن تأخذ حذرك. .

* طالما أني أقوم بما يمليه علي ضميري ولا أعادي أحدا . ممن آخذ حذري إذن؟

* لا تفهمني غلط يا دكتور إذا قلت لك حسن علاقتك بالنائب . .

* علاقتنا رسمية وخلافتنا لا تتعدى وجهات النظر المتباينة . .

* لن يكتفي بأنه نقلك من مكتبك وحشرك بين خمسة موظفين .

* ألم تقل بأن زملائي في المكتب من خيرة موظفي الوزارة؟ ! .

* نعم وأحسدهم عليك . وقد تغيروا كثيرا بعد ضمك ' إليهم !

* حسنا . . دعك مني ومن موظفي الوزارة . وركز اهتماماتك بمن أنت ترأسهم من الفراشين والسعاة . خاصة فهيم الذي يهمك أمره . .

* آه فهيم العنيد . . تصور يا دكتور أن النائب يصر على امتهان كرامته . ويصر على أن يناديه بين لحظة وأخرى ليسخر منه ومن ثيابه خاصة إذا كان هناك زوار يزيد في السخرية منه ، وينادي بأعلى صوته قائلا : «لا أريد أن يدخل علي سوى السلطان فهيم» مع أني يا دكتور كما ترى أحاول قدر الإمكان أن ألبي طلباته بنفسي بقدر السرعة التي يسمح بها سني . وإذا كنت في خدمة الوزير ولا أتمكن من تلبية نداءات النائب المتكررة في الحال . أكلف من يقوم بخدمته وأختار الأكفأ من السعاة ليقوم بتلبية طلباته على الفور . والله يا دكتور لو أن كافرا يشاهد هرولتنا نحو مكتبه لأشفق علينا . لا أدري لماذا يحلو له إذلالنا .

* لا عليك يا حج أحمد . . غدا تتغير الأحوال . .

* لا . لن تتغير الأحوال إلا إلى الأسوأ . اسمح لي يا دكتور أن أقول لك إنك بالسنوات التي أضعتها من عمرك في الدراسة وفلسفتك الطيبة للأمور لن تجدي تواضعك هذا ومحاولتك إيجاد الأعذار لمن يخطيء . لن تزيدهم إلا عجرفة واستهتارا . .

* إيه يا حج أحمد . من الفيلسوف إذن . . أنا أم أنت؟

* يا ولدي أنا عشت الكثير وعايشت العديد من الناس وصارت عندي فراسة أعرف بها معدن الرجال وتيقنت أن الإنسان الواثق من نفسه ، لا يسخر من الآخرين . أو يدبر لهم المكائد . .

* لا تكن متشائما إلى هذه الدرجة . «خليها على الله وقم بعملك على أحسن وجه بعدها لا تخف من أحد» . .

* أنا لست خائفا يا دكتور. مضى من العمر أجله. قضيت معظمه متنقلا بين المدن الكبيرة والصغيرة. . .

تدخل في الحديث الأستاذ عبد الباري والأستاذ غانم اللذين عادا في التو من الممر بعد أن أطفأوا السجائر. كان الأستاذ عبد القادر قد منعهم من التدخين في الحجرة الضيقة والمكتظة بخمسة مكاتب لا عمل لشاغليها إلا تضييع الوقت في التدخين والتنكيت والسخرية من بعضهم البعض. الفراش العجوز كان سعيدا لأن الدكتور وضاح يستمع إليه بإنصات. لكنه خاف من أن دخول الرجلين قد يصرفه عن الإصغاء والاهتمام بالموضوع الذي يراه مهما وبحاجة لحل. إلا أن سعادته عادت إليه عندما قال الأستاذ عبد الباري: «واصل سرد حديث الذكريات يا حج أحمد وكم من بلدان العالم تنقلت بين مدنها أو عملت فيها»؟

* لا أنا لم أغادر اليمن ولم أعمل إلا في مدنها وقراها. بعد نزوحي من القرية كانت أول مدينة خدمت بها هي عدن. بعدها تعز مرورا بقعطبة حيث عملت بدون مرتب منتظم أحيانا كانت تمر شهور دون أن نتسلم ريالا واحدا. كان ذلك خلال الحرب في المناطق الوسطى. «خدمت هناك في معسكر تابع للشمال».

يقول له الأستاذ عبد الخالق: «هات يا حج أحمد هات. خبرنا عن حرب الأيدلوجيات والاتجاهات والنظريات».

دون أن يفهم الجمل الأخيرة التي ذكرها الأستاذ عبد الخالق. عاد إلى سرد رحلته الطويلة لأساتذة كبار وعلى رأسهم الدكتور وضاح الذي لم يكن الفراش العجوز يسرد أو يخاطب سواه. تجاهل الآخرين وقال: «هل تصدق يا دكتور أن المعسكر أو ذلك المخيم في قعطبة، كان يؤمه الكثير من الضباط والجنود من الشمال ومن الجنوب يتناولون طعامهم سويا ويلعبون الورق ويسهرون معا. نحن المكلفون بإعداد الطعام وخدمة الضباط من الجانبين. لم نكن ندري من الذي سيدفع مرتباتنا. حتى إننا لم نعد نحسب. بعد مرور أكثر من عامين انتقل قائد المعسكر إلى القيادة في صنعاء. جئت معه وألحقني بعمل في القصر الجمهوري. عفوا يا دكتور. قد أكون عطلتك عن عمل تريد إنجازه لكنني أريد أن أطلعك على ما كان في الأيام الخوالي، كان الناس يحبون عمل الخير ويقدرون الإنسان الوفي. أنا كنت من ضمن الذين قدروا وفاءهم. استلمت من رئاسة الأركان مبلغاً لا بأس به بعد نهاية الخدمة مع الجيش في قعطبة بدون مرتب منتظم. فرحت بذلك المبلغ البسيط واعتبرته تعويضاً كافياً. بعدها فاجأني قائد المعسكر بزيارة خاصة لي في القصر الجمهوري تخيل يا دكتور كم كانت سعادتي حين ناداني العم عبد الجليل رئيس السعاة في القصر ليبلغني بأن هناك ضابطاً برتبة عقيد جاء ليسأل

عني! قبل أن يغادر أوصى بي خيراً وجدت رئيس المستخدمين يبلغني بأنهم قرروا لي مرتباً مجزياً. بقيت أخدم في القصر لمدة ثلاث سنوات.

رأس المداعة الأثير

زملاء الدكتور وضاح كان معظمهم قد ترك المكتب ولم يعد هناك إلا الأستاذ غانم والأستاذ عبد الباري الذي يحلو له إخراج الدكتور وضاح من الانهماك في أمور يرى بأنها ليست ذات أهمية. لذا قال للفراش العجوز: «واصل حديث الذكريات يا حج أحمد أنا ووضاح آذان تسمعك. ولو أنك تتجاهلني كما يبدو قال الفراش العجوز: «كان رئيس السعاة في القصر من أولئك المولعين بالتدخين من الصباح الباكر بعد أن ينتهي من توجيه المباشرين كلا إلى عمله. يدخل الحجرة المخصصة للسعاة وينصب مداعته العتيقة ذات العنق الطويل المطعم بالصدف والفضة في زخرفة بديعة. ينصبها بعناية ويختار من التمباك العدني أجوده ويبدأ في التدخين وكر مداعته وهو يتأمل جمالها ومن حين لآخر يوجه أوامره وهو يرد التحية للرائح والغادي من عمال القصر وحرسه. في مرة من المرات حل بالقصر ضيف يبدو أنه من أولئك المصابين بداء السرقة. صال وجال في القصر وتفحص محتوياته. استهواه رأس مداعة العم عبد الجليل رئيس المستخدمين. ما كان منه إلا أن فك القطب من جذع المداعة بدراية وخبرة وبدون خجل أو مخافة افتضاح الأمر. لفه بأوراق الصحف ووضعه خلف ثيابه داخل الخزانة. لم يخطر على بال أحد أن الضيف هو الذي قام بذلك. في البداية اعتقدنا بأن اختفاء القطب ما هو إلا نوع من المداعبة وأن أحدنا أراد أن يمزح مع العم عبد الجليل المولع بكر مداعته وجلجلة صوتها الذي يسمع أحيانا إلى الأدوار العليا. بعد بحث وتدقيق يأتي أحد السعاة المكلفين بترتيب حجرة الضيف. وهو يتصبب عرقا. قال وجدت قطب المداعة مخفيا داخل الدولاب المخصص لثياب الضيوف! قال في البداية اعتقدت أنها بندقية قديمة ابتاعها الضيف من سوق الملح. قال: «أخذت اللفة بعناية وحذر ووضعتها جانبا حتى أتم عملية التنظيف. بين ما أنا أنقلها انحسر عن رأسها الورق الذي يبدو أن اللف تم على عجل. عرفت أنها ليست بندقية بل رأس مداعة العم عبد الجليل الذي قلب مخازن القصر وردهاته باحثا عنها. قال بعد أن تأكدت جئت أخبركم لأني ارتبكت واحترت هل أحمل الرأس إلى صاحبه أم أتركه مكانه»!

أصابنا الذهول ولم نكن أقل ارتباكا من الذي اكتشف السرقة. لم نقم بأي تصرف. انتظرنا حتى يأتي العم عبد الجليل الذي لم يكن موجودا حال اكتشاف مكان رأس المداعة. بعد مشاورات ومداولات بيننا، وجدنا أنه من الأفضل أن يترك حيث وجد وعند عودة

الضيف من نزهته في وادي ظهر يأتي الساعي المسؤول عن ترتيب حجرات الضيوف ويعمل على تنظيف الدولاب من جديد وكأنه لم يكتشف السرقة في غيابه. من سوء الحظ أن الضيف عاد وبدأ يحزم حقائبه ووضع الغنيمة في إحداها بكل ثقة. لم يكن منا إلا أن بلغنا رئيس التشريفات. حدث ارتباك كبير. قال رئيس التشريفات: «الضيف مهم ولا يمكن أن يطلب منه إعادة ما أخذ. لأن ذلك قد يسبب إحراجا كبيرا وقد تفسد العلاقة بين الدولتين. هكذا قال رئيس التشريفات الذي سبق وأخبر ضابط الأمن بالواقعة. كان العم عبد الجليل قد عاد وتم إخباره بالعثور على رأس مداعته ومن الذي استهواه. أقسم يمين طلاق أن لا يدع الضيف يرحل بقطب مداعته الأثير..

بعد تفكير وتحليل ودراسة الأوضاع من كل جوانبها. اتفق على أن يقوم أحد السعاة بفتح الحقيبة التي بداخلها القطب وبنزعه ويعيد قفل الحقيبة ولا من «شاف ولا من درى» وفعلا هذا ما كان. عاد القطب إلى موضعه وعاد العم عبد الجليل إلى كر ونفخ التنباك في وجه الداخل والخارج من وإلى المكان المخصص للسعاة. لم يكن أحد منا يجرؤ على مناكفته أو المزاح معه. لأنه «دغري» وجاد في عمله الذي صار فيه عمر طويل. كان في الخدمة من أيام الإمام يحيى، وعاصر كل الأحداث خاصة «فيد» صنعاء ذلك النهب الذي جعل أهلها يفرون بجلودهم ويتركون مدينتهم الجميلة للقبائل الذين عاثوا بها الفساد بأمر الإمام أحمد. من وقت لآخر كان يحلو للعم عبد الجليل أن يسرد لنا بعض النوادر والمواقف المضحكة المبكية في تلك الأيام. إذا سمحت لي يا دكتور سوف أسرد لك نادرة واحدة من النوادر التي سمعتها من العم عبد الجليل.

قاطعه الأستاذ غانم قائلا: «بعد كل هذا الوقت الذي ضاع ونحن نستمع لقصصك تريدنا أن نتخلى عن سماع بقيتها؟!

قال الأستاذ عبد الباري: «تفضل اليوم كله مخصصاً لك».

ظل الفراش العجوز مركزا نظره نحو الدكتور وضاح وكأنه يريد أن يأخذ الموافقة منه. هل يواصل؟. استشف الموافقة. من رؤية مشروع ابتسامة تكسو تقاطيع وجه وضاح، من هنا عاد لمواصلة حديث الذكريات. قال « إن العم عبد الجليل روى لهم قصة صاحب أحد المنازل الصنعانية التي تعرضت للنهب. وأن ذلك الرجل كان مشهورا بالنظام والدقة. وأن أكثر ما أزعجه من نهب بيته وإفراغه من كل محتوياته هي الطريقة التي كان يتم بها خلع الأبواب والنوافذ ووضعها فوق الأشياء الثمينة. فما كان منه إلا أن قال: «بنظام. بنظام. انهبوا بنظام».

على سماع الضحكات المنبعثة من مكتب من يطلق عليهم الظرفاء، هب من كان متواجدا في الممر. مما دفع بالأستاذ غانم أن طلب منه الفراش إعادة سرد الطرفة بقصد أو بدون قصد ظل الفراش العجوز يوجه حديثه للدكتور وضاح فقط. قال: «لن أطيل برغم أنني ألحظ على محياك الانبساط ولم تتضايق بعد من طول حديثي..

* لا أخفي عليك. يا حج أحمد بأنك عطلتنا ولكن حديثك ممتع. ألا ترى التجمع حولك وتلهف عبد الباري لسماع المزيد عن حديث الماضي؟..

* أنا تحت أمرك يا دكتور. كل الذي أرجوه هو أن يتسع صدرك لأكمل لك مشواري في الخدمة مع الدولة..

الأستاذ غانم: باختصار..

عبد الباري ولماذا باختصار؟ تفضل يا حج أحمد ولا يهمك. أسرد ما شئت وتوقف في الوقت الذي تشاء. كما ترى الكل يصغي لك. ووضاح يبدو أنه قد أنهى عمله هنا ولعلمي أنه ليس عنده أي محاضرة اليوم. خذ راحتك الكل متفرغ لك تماما..

* كنت سعيدا بالعمل بين أناس كانوا رمزا للوفاء والإخلاص. من أصغر عامل إلى أكبر موظف. تصور يا دكتور أنه كان يأتي الوزير أو رئيس الوزراء أو القائد العام أو حتى رئيس الجمهورية ويحيوننا ويتبسطون معنا. طلباتهم بسيطة وحراسهم ومرافقوهم قليلو العدد برغم ما كنا نواجه من صعوبات مالية إلا أنه كان هناك قيم وأخلاق وشرف ومراعاة إلى جانب الوفاء. الوفاء الذي نفتقده اليوم. اليوم تغير الحال وتبدلت الأوضاع. لا لم تتغير فجأة بل سبق التغيير تحولات وتنقلات صار هناك الكثير من الذين يكيدون لزملائهم بسبب وبدون سبب. وأصبح الدس والنفاق هو الطريق الأقرب لرضاء السادة الجدد. كثرت المصاريف بحجة الإصلاحات وتغيير الأثاث. نحن السعاة والفراشين لم نسلم من بطش الموظف الجديد الذي تعين بالقصر بدرجة رئيس المستخدمين. صار يأتي بأقربائه ومعارفه ليضايقوننا. أهم وأخطر تلك المضايقات التي دفعتني لترك الخدمة في القصر الجمهوري هي التهمة التي ألصقوها بنا. حدث بقدرة قادر أن اختفى الأثاث القيم الذي كان من الأول. جاء من قام بتحقيق صوري. ثم قفل التحقيق بجملة مفادها بأن هناك عمالا من الفراشين والسعاة. هم الذين استولوا عليه ولا داعي للتحقيق معهم بحجة أن المفروشات كانت قد أصبحت قديمة ولم تعد تصلح.

لم أحتمل تهمة السرقة وأنا الذي عشت عمري كله أخدم بنزاهة وشرف. عندما وصل الحال إلى اتهامي وزملائي بتهمة نحن براء منها ونعرف من الذي قام بها، ولكن لا أحد يريد

أن يسمعنا. معظمنا قرر ترك القصر والبحث عن عمل آخر مع أننا كنا قد وطأنا أنفسنا على تحمل التعالي والعجرفة وهضم حقوقنا. أنا من الذين سبق وخصموا من مرتبه بدون وجه حق.. بررت ذلك التصرف أن سببه الأزمة المالية التي تمر بها البلاد. لكنني اكتشفت بأنهم رفعوا ميزانيات الجدد. بل وارتفعت ميزانية القصر ومقرراته وكل النثريات. علمت بذلك من العم عبد الجليل الذي ترك العمل قبلي. وخلفه شخص آخر، كل مؤهلاته هي السكوت على تجاوزات العم عبد الجليل قبل أن ينتقل إلى جوار ربه. ذهبت لزيارته وهو على فراش المرض وشكيت له من الوضع الجديد. هل تعلم ما قال لي يا دكتور؟ قال: «يا أحمد شوف يا ولدي الوقت غير الوقت. إذا لم يعد بقدرتك التحمل اترك القصر وابحث عن عمل في مكان آخر قبل أن يصيبك ما أصابني هأنا كما تراني لا أجد ثمن الدواء بسهولة.

ينتفض الأستاذ حمود قائلا: «لا يا حج أحمد أنت تبالغ. هل يعقل هذا بعد الخدمة الطويلة أن لا يجد ثمن الدواء!

الأستاذ عبد الباري: «نعم يحدث هذا لا تستغرب يا سيدي حمود. ولكنني أتساءل أين ذهبت مداعته الأثيرة وهل كان له أولاد أو أسرة؟.

* مداعته كانت موجودة وله خمسة أولاد. الصبيان يعملون في نفس مهنتنا «سعاة» والثلاث البنات: الأولى: قتل زوجها في الحرب ولها أولاد كبار لا أدري كم عددهم. والثانية: زوجها يعمل في النجارة. والثالثة: عانس تجاوزت الأربعين.

* اتق الله يا حج أحمد. من الذي دفعك للتسلط علينا اليوم سرد المآسي؟!

* لم يسلطني أحد يا أستاذ عبد الباري. إنما هذه هي حقيقة الحياة التي يبدو أنها لم تعرككم بعد. وأنا صادق في كل ما قلته. أعرف بأني أطلت. وبغيتي هي محاولة تخفيف التأزم من حول الدكتور. ألا تسمعون بالمثل الذي يقول «عندما تطلع على مصيبة غيرك تهون عليك مصيبتك»..

* أنا الذي سألتك وليس وضاح..

* لكنك تشك فيما أقول وتتهمني بالمبالغة..

* عفوا تفضل اختصر أو مدد وفصل كما تشاء..

* لن أتكلم إلا إذا أراد الدكتور أن أواصل..

الفراش العجوز الذي جاء على أمل أن يخفف من السحب السوداء التي تتجمع في سماء

وضاح. كما تصور بأنه قد يجد الحل لديه لمتاعب فهيم. لم يكن ينوي أن يروي قصة حياته وحياة معظم من عايش في رحلته الطويلة. لكنه بعد أن وجد سعة صدر وضاح الذي قال له: «ألم تقل بأنك لا تتحدث إلا إليّ؟ تفضل تم حديثك ولا تهتم بمقاطعة عبد الباري أو غيره».

تنفس الفراش وواصل السرد ووسعه حتى شمل مأساة نهاية خدمة رئيس فراشي القصر الجمهوري.. قال: العم عبد الجليل لم يعمل حسابه لعثرات الزمن. كان يتصور بأن السادة الجدد لن يصل بهم الحد إلى أن يأتوا بشاب في عمر أصغر أولاده ويهينه في ساحة القصر بدون سبب.. بالنسبة لي الحمد لله تركت الخدمة في القصر وكنت لازلت بصحتي. صحيح تعبت في البداية. لكنني واصلت العمل في الليل مع النهار وخدمت في أكثر من قهوة حتى أتمكن من أن أعلم أولادي وهأنا أواصل المسيرة ولم يعد لي هم إلا فهيم...

توقع الأستاذ غانم أن الفراش العجوز سيكتفي عند هذا الحد. لم يكن يتصور بأن عبدالقادر هو الذي سيدفعه للمزيد من الشرح والتفصيل مع أنه كان من الذين أبدوا مللهم من طول الحديث والحكايات المتداخلة التي يخرج منها الفراش ويعود إليها.. فوجئ حين سمع الأستاذ عبد القادر يقول: «واصل يا حج أحمد. أنا من الذين كانوا في القصر عندما حدث الاستيلاء على الأثاث القديم وبحكم عملي في أمانة العاصمة آن ذاك، فقد جاءني أحد موظفي مكتب الموارد البشرية وطلب تدخلي وعمل تحقيق حتى يعرف من الذي استولى على أثاث القصر. فعلا تحمسنا للقضية لأن ذلك تزامن مع سرقة بعض محتويات المتحف الوطني. لكننا بلغنا بأن ما نهب من القصر الجمهوري لا يستحق عمل تحقيق آخر! سألنا من الذي قام بالتحقيق؟ جاء الجواب القاطع «بأن لا نتدخل» كنت في بداية عملي وكان عندي شيء من الفضول أو شيء من الوفاء كما صاحبنا وضاح اليوم. أردت أن أثير قضية سرقة المتحف وأثاث القصر وبكلمة واحدة من رئيسي في العمل خرست تماما حتى بعد أن كشفت سرقة الآثار والمتاجرة بها من قبل مسؤولين كبار..

الدكتور وضاح والفراش ظل كل واحد منهما ينظر إلى الآخر عندما التقط الحديث الأستاذ عبد الباري وقال: لذا تنقلت في مناصب عديدة حتى كانت صحوة الضمير، ثم شرفتنا في هذا المكتب المتواضع. سوف تظل فيه إلى أن ينام ضميرك مرة أخرى فعلاً نوم الضمير هو الخط الأسلم للوصول إلى مركز أعلى..

* استحِ يا عبد الباري ولا تجعلني هدفاً لغضبك..

* أنا لم أخط عليك. على العكس أنا أنصحك وأحذرك من صحوة الضمير التي في النهاية قد تقودك إلى العمل في مرآب السيارات ودفع التي تتعطل منها.

لم يكن من الدكتور وضاح إلا التدخل مثل العادة، طلب منهم السكوت أو المغادرة لكي يتسنى للفراش إكمال قصته.. لم يكن الأستاذ عبد القادر قد هدأ بعد عندما عاد الفراش العجوز يسرد ما بداخله معتقداً بأن حديثه هو الذي سيتعظ به هؤلاء الزملاء الخمسة الذي يحبهم ويقدر معاناتهم ولا يريد أن يرى أحدهم يغادر. قال: لا تختلفوا وتغضبوا وتتهموا بعضكم البعض. احمدوا الله الذي وهبكم هذه الأخلاق العالية وهذه القناعة وهذا الوفاء العظيم لمبادئكم. يا أولادي، هناك الكثير من موظفي الوزارة يحسدونكم وبعضهم في مراكز عالية. نعم يحسدونكم لأنكم شرفاء وأوفياء لمبادئكم. لستم من أولئك الذين لا يهمهم إلا الوصول إلى المناصب العليا والتقرب من المسؤولين الكبار. لا يهم كيف تم بها الصعود. المهم أن تمكن صاحبها من الكسب السريع حتى وإن كان ذلك على حساب الكرامة.

الأستاذ غانم: من تقصد يا حج أحمد؟ من لقنك هذا الكلام ودفعك لتقوله؟!.

الأستاذ عبد الباري: لا تستقل بالحج أحمد يا غانم. لو كان الأمر بيدي كنت وضعته على رأس هذه الوزارة..

* يا دكتور اجنحوا. حتى يغير الله هذا الحال. دعوا العاصفة تمر بسلام..

الأستاذ حمود مازحاً: يبدو أنك يا حج أحمد تريدنا أن نفعل كما فعل أهل الكهف عندما أووا إلى كهفهم. ما رأيكم يا جماعة؟. الموقف كان لا يزال متوتراً بين الأستاذ عبد القادر والأستاذ عبد الباري وكل واحد منهم يريد أن يقول شيئاً خاصة عبد القادر الذي أحس بأنه أهين واتهم في نزاهته، لكنه سكت عندما فاجأهم الفراش العجوز بتلاوة الآية الكريمة من سورة الكهف ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ دون أن يلتفت الفراش أو يهتم للتوتر الحاصل، استمر في سرد حكايته للدكتور فقط! قال: لم أكن الوحيد الذي ترك الخدمة في القصر. العديد من العمال والموظفين تركوا مثلي عندما بدأت المضايقات. أنا يا دكتور من حسن حظي أنني تركت قبل السرقة كان ذلك بعد أن شعرت بأن لا حاجة لي بعد أن صار السادة الجدد يتصرفون وكأن القصر ملكهم الخاص. بالنسبة لي كان الوقت من أصعب الأوقات إذ كان أولادي في مراحل مختلفة من الدراسة وزادت فيه المصاريف على كاهلي. ورغم ذلك تركت القصر الجمهوري وبحثت عن عمل في القصور التي تم تحويلها إلى فنادق بعد اتفاقية السلام التي أنهت الحرب، ومن ثم توافد العديد من السائحين ورجال الأعمال. ولم يكن هناك فندق واحد لائق في صنعاء. لذا تم

تحويل دار الحمد وقصر الروضة إلى فنادق. كان ذلك قبل أن يأتوا السادة الجدد الذين فصلوا من فصلوا وأكرهوا من أكرهوا على ترك العمل. بحثت عن وظيفة في دار الحمد ولم أوفق. فكرت في الضابط الذي عاد بي من قعطبة. علمت بأنه قد تم تعيينه سفيراً. . جاء من نصحني بأن أجرب حظي في دول الخليج. لكنني لم أستسغ الفكرة. قلت لم يعد أمامي إلا العودة إلى عدن وبدء الرحلة من جديد. ولكن هيهات بين عدن أيام الشباب وعدن التي صارت تسمى «الشطر الجنوبي» في ذلك الوقت ولم يعد بإمكاني دخولها وإن تمكنت من الدخول فلن أجد عملا. لم يعد أمامي إلا أن أبحث عن أي عمل في أي مكان. بعد أن تعذر التحاقي بفندق دار الحمد. فندق سبأ في ذلك الوقت لم يكن قد افتتح وبعد فتحه هو الآخر جاء بأكثر عماله من الهنود الذي كنا نسميهم في عدن «بينيان». وجدت وظيفة نادل في قهوة ومطعم شعبي في التحرير. من تلك الوظيفة تمكنت من دفع إيجار المنزل الذي كان يهددني صاحبه بالطرد في الوقت الذي كان ولدي الكبير يستعد لأخذ الشهادة الثانوية. خلال تلك الأزمة جاءني من أعتقد بأنه يحمل لي بشرى. قال لقد تمكنت من الحصول على تذاكر سفر لك وولدك إلى العراق سألته ولماذا العراق؟ قال هناك حرب دائرة بين العراق وإيران وقد تطوع العديد للسفر إلى هناك. قلت له: لكنك تعلم أن ولدي يستعد لدخول الجامعة وأنا كما ترى عملي فراش ولا خبرة لي في الحروب. قال لا. لا لن تذهب إلى الجبهة ستقوم بالخدمة في المطاعم والفنادق التي خلت من عمالها الذين توجهوا لجبهات القتال. ولولدك الرأي يرجع له، أما أنت فبإمكانك الالتحاق بالعمل الذي يناسبك. . رفضت السفر وركزت في البحث عن عمل إضافي هنا في صنعاء فضلت البقاء في وطني الذي تنقلت بين كل مدنه وقراه في شماله وجنوبه. قلت لنفسي أنه مهما تعقدت الظروف لن تكون أسوأ مما كانت في العهد البائد عندما كان يأتي عسكري الإمام وبأمره يجردنا من نصف ما ادخرنا من حبوب وقد يأخذها كلها ويسحب البقرة خلفه ونحن الصغار نتشبث بطرف ثوب أمهاتنا وهن يتوسلن إليه أن يترك مصدر رزقنا الوحيد. لم نكن نجد ما نعمل إذا لم تنزل الأمطار. عانيت الكثير في طفولتي يا دكتور بعدها سافرت إلى عدن وفي جيبي ريال فضة واحد لا سواه صرفته بنصف قيمته لأن له عروة في طرفه لذا رخص ثمنه. لكنني بمساعدة أبي فهيم الذي دبر لي عملا تمكنت من أن أزور والدتي كل ستة أشهر وأن أعيش مستورا وأكمل نصف ديني. عدت إلى القرية وتزوجت ابنة عمي وكانت خير ابنة لأمي وخير زوجة لي وأما لأولادي.

بعد أن كان الأستاذ عبد القادر قد خرج إلى الممر يبحث عن فراش آخر يأتيه بكوب شاي لأن الحج أحمد لا يزال يروي قصته بشغف ولا أحد يستطيع أن يوقفه. تململ الأستاذ عبدالباري. وهو يقول: «طالت القصة يا حج أحمد».

لم يعره أدنى اهتمام . . واصل حديثه قائلا دعني يا دكتور أعود إلى الأيام التي تركت فيها العمل في القصر الجمهوري . كما قلت بعد أن رفضت السفر وعملت في قهوة وبعدها وفقت بالعمل بأحد الفنادق التي افتتحت حديثا . بقيت فيه خمسة أعوام خلالها تحسن وضعي المالي والمعيشي . خاصة بعد أن تم بيع قطعة أرض في القرية . من ثمنها وما كنت قد وفرت من مرتبي . تمكنت من شراء منزل متواضع في أحضان جبل «نقم» ولدي الكبير كان قد التحق بالجامعة . تحت رغبتي دخل كلية التجارة وقضى فيها عامين . ولأنها لم تكن رغبته لم يرتح كان يرغب في الهندسة منذ أن تخرج من الثانوية العامة بمجموع جيد جدا يمكنه من الالتحاق بالكلية التي يريدها . بعد أن ضيع عاما آخر نزلت عند رغبته ودفعت المصاريف الزيادة . نجح الولد حتى أنه خلال الدراسة حصل على وظيفة مع وزارة الأشغال . وبعد تخرجه وثباته في الوظيفة ، لا أدري من الذي وضع في رأسه وبقية الأولاد وأمهم أن أترك عملي بالفندق وألتحق بعمل مع الدولة ! نزلت عند رغبتهم وصدقت المثل الذي يقول . «شبر مع الدولة ولا ذراع مع القبيلي» . التحقت بهذه الوزارة منذ ثمانية عشر عاما . مر علي العديد من الوزراء والقليل من النواب الذين قل عددهم منذ أن حل بنا هذا النائب الذي مضى على تعيينه أكثر من عشرة أعوام وقد استهلك ثلاثة وزراء .

ظل الفراش العجوز يتابع حديثه الذي لا يوجهه إلا للدكتور وضاح متجاهلا للآخرين . قال : «لا أخفيك يا دكتور الوزراء الذين عاصرتهم في هذه الوزارة . كلهم كانوا أفضل من هذا الوزير الرابع . . ولكن لا بأس لن أترك الوزارة مهما كان برغم إلحاح أولادي الذين يحثونني على التقاعد بحجج شتى . مرات بحجة أننا لم نعد بحاجة لمرتبي . وأحيانا يقولون : إني كبرت وصرت بحاجة للراحة ولمن يخدمني . لازلت أقاوم . تدري لماذا؟ لأنني أحب عملي كما أنني تعودت الاعتماد على نفسي ولا أصرف إلا من مرتبي . أولادي لا يقصرون معي وأمهم . بل إنهم في المناسبات العائلية يمدون أقرباءنا بما يستطيعون حتى الذين ظلموني في قسمة الأرض . أولادي يساعدون المحتاج منهم . الحمد لله ربيتهم أحسن تربية وعلمتهم حتى صار منهم المهندس والطبيبة والطبيب الذي على وشك التخرج والمدرسة الفاضلة الأربعة كلهم تزوجوا . الصبيان برغم أن أحوالهما المادية تسمح لهما بالسكن المستقل . إلا أنهما يسكنان معنا أنا وأمهما ، أما البنات ففي بيوت أزواجهن سعيدات . .

كان الأستاذ عبد القادر قد دلف مع القاضي أحمد الذي شكا له من عبد الباري الذي تطاول عليه واتهمه بأنه يختار الوقت الذي يصحو فيه ضميره ! إلا أن القاضي أحمد برغم عدم رضاه عن شطحات عبد الباري لم يتحامل عليه أو يوبخه كان كل همه هو أن يسمع بقية قصص الفراش العجوز الذي كان معجباً به قال : أعرف بأن الحج أحمد رجل صبور وكفء .

لكنني لم أكن أدري بأنه بهذا الوعي الذي جعله يعلم أولاده ويصل بهم إلى أعلى درجات التعليم البنت والولد على حد سواء».

وجد الدكتور وضاح أن من واجبه أن يتمم على ما قاله القاضي أحمد. وجه حديثه للفراش الذي يطمع في المزيد من الاسترسال في الحديث. قال: «لقد زدتني ثقة يا حج أحمد بأن بلادنا برغم العراقيل تسير في الطريق الصحيح.

* عفوا مرة ثانية يا دكتور. لقد أطلت عليك. لكنني أردت أن أخرجك وأصدقاءك من همومكم بسردي الطويل مع أني قليل الحديث ولم يسبق لي هذا إلا معك، كما لا أخفي عليك أن وضع فهيم يقلقني..

* فهيم من تاني؟! ألم أقل لك بأن لا تقلق عليه طالما يقوم بعمله على أحسن وجه ويسمع نصائحك وأنت ترعاه وتوجهه. سوف يتخذ منك قدوة في طاعة الأوامر ويتخلى عن عناده..

* يا دكتور. بالتأكيد أنك لاحظت الطريقة التي يقدم بها الشاي والقهوة وكيف يضع الطلب وهو ينظر إلى الأعلى ولا يأبه بمن أمامه. البعض هنا صار لا يشرب الشاي إلا إذا أحضره فهيم لكي يمازحه أو يسخر منه أمام الزوار. معظمهم صاروا يحذون حذو النائب في الاستهتار والاستخفاف وعدم المبالاة بشعور الآخرين.. كما يقول المثل «الناس على دين ملوكهم» تعرف أن النائب هو الأول والآخر في الوزارة والكل يقلده حتى في تصفيف شعره الذي انحسر عن مقدمة رأسه وصار يأتي بما تبقى منه في الجوانب والمؤخرة. إلى المقدمة.

القاضي أحمد: «يبدو أنك تلاحظ هذه الأمور التي لا تقدم ولا تؤخر..

تجاهله كما يتجاهل الآخرين ويوجه حديثه للدكتور وضاح! ويقول: «يا دكتور هذه الأشياء لا تهمني. كل الذي أريده هو أن ألفت نظرك كيف أن البعض يقلدونه في كل شيء. لا يزعجني ذلك ما يهمني هو أن لا يقلدونه في السخرية من فهيم الذي حلف يمين بأن لا يرتدي زي السعاة ولن يتخلى عن زيه المربك لعمله.

* يهمك إلى هذه الدرجة؟ من يسمعك تتحدث عنه لا يتصوره إلا أنه ولدك.

* إنها مسألة وفاء يا دكتور..

* لا تقلق مع الأيام سوف يسمع كلامك ويكون مثلك ملتزما بالقواعد..

يتنهد الفراش العجوز ويقول: «آه. الفرق كبير بيني وبين فهيم هذا الشاب المغرور الذي لم أتمكن حتى من إقناعه بأن يضع شاله المزركش جانبا لكي يلبي الطلبات. إيه يا دكتور الزمن غير الزمن. لا سامح الله أولئك الذين يملئون رؤوس الشباب بالشعارات الرنانة ويشجعونهم على التمرد على رؤسائهم بل وعلى آبائهم، لكنني وفاءً للمرحوم لن أتخلى عن فهيم. .

* أهنئك على هذا الوفاء النادر وعلي تربية أولادك.

* أولادي الأربعة الحمد لله ناجحون في أعمالهم ويتمتعون بسمعة طيبة. لا أنكر أن بعضهم يواجه صعوبات في التعامل بصدق ووفاء. ولدى الصغير الطالب بكلية الطب يأتي أحيانا ويسأل: «ما هي الفائدة من الوفاء في هذا الزمن الأغبر»؟ أقول له كما تقول أنت يا دكتور «إن الذين نقصدهم بعدم الوفاء هم قلة من الناس» لكنه لا يصدق. .

* طمئن أولادك بأن عديمي الوفاء هم قلة، ومع الوقت سوف يدركون أن الوفاء هو الطريق إلى رضا النفس التي إذا رضت عن صاحبها سوف تحد من حسده للآخرين وتدفعه إلى الصدق معها وتدله إلي الصراحة والوضوح والإخلاص في العمل. لا تكن متشائما يا حج أحمد. بعون الله وبالتوعية مع القليل من الصبر الزمن كفيل بأن يغير النفس إلى الأفضل. .

* يا دكتور. العقلاء من أمثالك بإمكانهم الصبر والتحمل.

* وأنت كذلك صبرت وتحملت الكثير. .

* أعود يا دكتور وأكمل لك أحوال السعاة في القصر بعد أن تركت الخدمة هناك. لم أكتف بزيارات العم عبد الجليل في بيته. كنت أتابع أحوال زملائي الذين بقوا وحاولوا أن يتحلوا بالصبر على السادة الجدد الذين فرضوا طريقتهم المتعجرفة. تخلي من بقي في القصر من الفراشين. لم يشفع لهم الصبر على الإهانة والتغاضي عن التجاوزات. تم الاستغناء عنهم واحدا بعد الآخر. رئيس المستخدمين الجديد الذي جيء به من أحد القصور في قطر شقيق. قال إن السعاة البلدي هم «بلدي» وحل محلهم «جارسونات» وسفرجية ذو خبرة ودراية بخدمة سادة القصر الجدد. .

كان الأستاذ حمود قد عاد من الممر لأخذ مفتاح سيارته ومغادرة الوزارة تعجب من الدكتور وضاح الذي لازال يطلب المزيد من حديث الفراش العجوز! بعدها اقترب من الأستاذ غانم وهمس في أذنه: «ماذا سيستفيد وضاح من هذر الفراش؟ثم صارا يتبادلان الحديث بصوت عال. الأستاذ عبد الباري كان قد عاد للاستماع بحديث الفراش العجوز

ويشارك الدكتور في الإصغاء والتعاطف معه . طلب من الأستاذ حمود والأستاذ غانم أن يتكلما بصوت واطى . لكنهما استمرا في الحديث لم يكن منه إلا أن أسكتهما بقوله : «فعلا اختفت القيم التي كان يتحلى بها أهل السعيدة ويفاخرون بها الأمم اختفت وصدقت المقولة التي تقول بأنه بعد انهيار سد مأرب ، تفرقت أيدي سبأ وهاجر أهلها وعظامها . لم يبق فيها إلا «النخالة» أي والله اختفت وضاعت الأخلاق . ولم يعد لها وجود . .

سكت الجميع ومن ضمنهم الفراش العجوز مخافة من ثورة جديدة يقوم بها عبد الباري ويتكرر ما كان بالأمس . الدكتور وضاح تجاهل هبوب العاصفة وحث الفراش على مواصلة الحديث وإنهاء قصته التي يرويها عن حياته وخوفه الجديد على فهيم بعد أن وصل بأولاده إلى بر الأمان . قال له : « أعتقد أنه بعد حديثنا الطويل لم تعد خائفاً على فهيم» .

* أخاف عليه يا دكتور إنه شاب متهور وقد يثور لكرامته ويرتكب مالا يحمد عقباه . .

* إذًا ابحث له عن عمل آخر وبعيد عن الوزارة . . .

* لا أستطيع أن أبعده عن عيني . هذه وصية والده . إنها مسألة وفاء يا دكتور . . .

ذلك الحوار الطويل والشكاوى والحكايات التي سردها الفراش العجوز . تذكرها وضاح وهو يلملم أوراقه استعداداً لترك الوزارة والجامعة بل والبلاد . . مخافة أن يتهور هو الآخر . . تعود إلى ذاكرته تلك الومضات والشعور بالأمل والسعادة التي كانت تكسو وجه الفراش العجوز وهو يخبره عن نجاح أولاده في دراستهم وحياتهم وكيف استطاع أن يجنبهم عثرات الزمن ولم يعد له هم إلا وضع فهيم مما يجعله ينسى نجاحه مع أولاده، ويعتبر أن رسالته في الحياة ناقصة لأنه لم يفِ مع صديقه ويجعل ولده ناجحاً . . .

كان الدكتور وضاح قد أقنع زملاءه بالكف عن المزاح مع فهيم . والاهتمام بالأوراق التي يجب إعادتها لأصحابها . هكذا كان قبل تلك المقابلتين الصاخبتين . دائما كان صابرا ومتأنيا . كان مختلفا تماما . لم يكن ينفعل أو ينتقد زملاءه على إهمالهم يكتفي بأن يشاهدوه وهو يستقبل أصحاب القضايا ، أو يعيد ترتيب الملفات قبل أن يضعها في درج المكتب . إذا أراد أن يلفت نظرهم لتصحيح وضع ما أو إنجاز عمل . يقول لهم : «لماذا لا توزعون ساعات الدوام بين الجد والمزاح بالتساوي؟ . قد يضيف مبتسما . بلاش بالتساوي يكفي ربع وقت الدوام لإنجاز العمل بعدها امزحوا واسخروا كما يحلو لكم قد يضيف ويقول : « لماذا لا أشاهد كتابا واحدا في يد أحدكم»؟

في إحدى المرات رد الأستاذ حمود : «كتاب مرة واحدة يا دكتور؟ . قل جريدة . مجلة» . .

الأستاذ عبد القادر موضحا: «لا. الدكتور يقصد كتابا من المجلدات القيمة ولا يمانع أن يكون من كتبه..

* ولماذا لا يكون من كتبي؟ على الأقل قد يفيدكم في استيعاب القوانين وأحكامها. أليس هذا أفضل من الاستهتار الذي يعتريكم من حين لآخر ويجعل منكم فرقة من المهرجين وليس رجال قانون..

يرد عليه الأستاذ عبد الباري: «لسنا مهرجين يا دكتور. الحياة جد ولعب وساعة لقلبك وساعة لربك.. ألا ترى أننا آخر ظرفاء هذا الزمن الأغبر؟

الأستاذ حمود: «الزمن أغبر في نظرك وحدك يا عبدوه، أما أنا فلا. أنا سعيد إلى آخر درجة خاصة بعد أن تمكنت من أن أشبك جهاز تليفزيوني بطبق الجيران وصرت وزوجتي الجديدة والأولاد لا نتحرك من أمام الشاشة في انتظار ما سيقرره جارنا العزيز وماهي القناة الفضائية التي يفضلها ويقع عليه اختيارها.

عبد القادر: القنوات الفضائية هي التي ستدمر البقية الباقية من عقولنا».

الأستاذ حمود: مالك يا أخ عبد القادر؟ لماذا هذا التحامل على التليفزيون والقنوات الفضائية؟! ألا تدري بأن لها الفضل الكبير في بقاء السيدات في المنازل خاصة في ليالى رمضان. عندما كن يتركن أطفالهن الرضع ويذهبن للسهرة بدلا من التفرطة وبعضهن كن يأخذن الأطفال الرضع معهن وأحيانا يحدث مالا يحمد عقباه، سوف أروي لكم طرفة لن تصدقوها بسهولة لكنها حدثت لعمي وزوجته كان ذلك قبل أن تنتشر القنوات الفضائية. في مرة أرادت زوجة عمي أن تذهب للسهرة الرمضانية في بيت جارتها لكنها لم تجد من يعتني بطفلها قررت أن تأخذه معها وهناك غلبه النوم فأخذته ووضعته في حجرة كانت الجارة قد خصصتها لأطفال ضيفاتها. في نهاية السهرة فزت العمة على عجل وأخذت الطفل وعادت به نائماً وضعته في مكانه بهدوء وبدأت في تحضير السحور خلال ما هي وعمي يتناولان سحورهما أفاق الطفل من نومه وصار ينادي أمه أنكرت صوته لكنها بقيت مكانها حتى دخل الطفل عليهما يحمل دفاءه وينادي أمه! الدهشة أخرست العم وزوجته لأن الطفل لم يكن طفلهما وهات يا خناق وزعيق من العم والجيران القراب والبعاد. أي والله هذا ما حدث ولكم أن تتصوروا ما كان مع الزوجين الآخرين وما ذا كانت النهاية!

الأستاذ عبد الخالق يؤكد الواقعة وهو يتحسس شنبه الذي لم يستقر بعد على الشكل الذي يريده هل يطلقه على سجيته أم يشذبه أو يجعله مثل شنب هتلر! قال: «فعلا سمعت بالقصة».

[دحباش والمصفحة التي تجول بها في شوارع صنعا]

كان من النادر أن يمر يوم واحد على الزملاء دون أن يروي أحدهم طرفة أو نادرة خاصة أن معظمهم كان قد أقلع عن تعاطي القات إما بسبب الصحة أو المادة. من ضمن تلك النوادر كانت التي رواها الأستاذ حمود. قال: «هل سمعتم آخر نكتة عن «دحباش»؟ قيل أنه شعر بالملل من جلسات القات وتكرار الحديث عن بطولاته في المعارك التي أبلى فيها بلاء حسنا. كما أنه مل من حسبة غنائم الحرب الأخيرة ومن الذي كان له النصيب الأكبر. في يوم من أيام الفراغ الذي لحقه بعد أن تم سحب البساط من تحت قدميه بسبب الخلاف على الغنائم بعد دخول قاعدة «العند». تم الاستغناء عنه لأنه كما قيل راح يدعى بأنه صاحب الفضل الكبير في انتصار الشرعية وأن لولاه لما كانت هزيمة الانفصاليين.

يقاطعه الأستاذ عبد الخالق قائلا: «نسي دحباش أن الذي حافظ على الوحدة هو الشعب الذي حارب ودافع عن الوحدة وقال لا للانفصال».

الأستاذ غانم: لكن الشعب لم يقل نعم للتفرد والهيمنة وتهميش الآخرين».

الأستاذ عبد الباري: «دعوا حمود ينهي القصة».

يواصل الأستاذ حمود: «المهم أن صاحبنا «دحباش» أخذها من هذا المنطلق. أي تهميش الآخرين ومحو تاريخهم من الوجود وبما أنه البطل المغوار على حد ادعائه فمن حقه إذن أن تكون له الأولوية في اختيار أثمن وأنفس الغنائم. بعد فترة جاء من يهمس في أذنه بأن هناك إشاعة مفادها أن هناك من يسعى لعزله من جميع مناصبه العسكرية والمدنية. في البداية لم يصدق أو تظاهر بذلك حتى تلقى مكالمة هاتفية فيها قليل من الاعتذار على ضرورة تنحيته وفيها الشيء الكثير من التهديد إذا فكر في الاعتراض أو كشف الأوراق. خلال المكالمة التي أتت صاحبنا بعد منتصف الليل لم يستوعبها. لم يتفوه أو ينطق غير (تمام يا فندم). في الصباح جاءت الفكرة. أدرك أنه قد فقد كل شيء. انفعل هدد توعد بأن يكشف جميع الأوراق. لكنه لم يفعل اكتفى بالذهاب إلى الذي أوكل إليه تقسيم الغنائم. وكان نصيبه فيلا في «معاشيق» وشاليه على ساحل «أبين». طلب زيادة حراس ومرافقين وكان له ما أراد زاد عددهم إنما الطعام المقرر للخُبرة، من قيادة الحرس. ظل كما هو لم يزد أو ينقص، وجد أنه ليس من اللائق الذهاب بنفسه ومراجعتهم في ذلك. اكتفاء بأن حرر رسالة شديدة اللهجة لقليل المعروف قائد الحرس الذي لم يكن منه إلا أن كتب رده على نفس الورقة بدأها هكذا: «عافاكم الله.. لم تصلنا أي تعليمات بأن مقررات مرافقيكم الجدد على قيادة الحرس. إذا كان ذلك أرجو أن تطلعونا على الأمر».. لم يعقب دحباش. كتم غيظه وكلف

زوجته بأن تزيد من كمية الطعام لتكفي بقية المرافقين ومن يأتيهم من البلاد. حتى يتسنى له مقابلة الفندم وشرح الوضع. صارت زوجته تقضي معظم يومها في المطبخ لتشرف على الطعام لكي لا يقل أو تنخفض نوعيته عما كان عليه عندما كان زوجها من المسؤولين الكبار. لم يمر يوم إلا ويأتيه ابن أخته الذي عينه قائدا لحرسه. جاءه وأخبره بأن قات الخُبرة صار على حسابه. ثار دحباش وهدده بالطرد وعودته البلاد لرعي الأغنام. بعد ثورته وجد أن عليه حق القات والسجائر وما يتبع من مصاريف. ضاق ذرعا ولم يعد يحتمل الصرف عليهم من جيبه الخاص. برغم ثرائه وما يحصل عليه من عائدات ووردیات إلى جانب المرتبات التي يتسلمها بأسماء وهمية لجنود مجندة لم يرها أحد إلا أنه تعود أن يأخذ ولا يعطي. ولكن ما العمل مع قائد الحرس الموبوء بالوفاء و يريد أمرا واضحا وصريحا لكي يزيد المقرر أحتار. كيف العمل؟ ما هو السبيل الذي يتبعه ليحتفظ بالوجاهة وتدافع الخُبرة وثلة من المرافقين حوله عند دخوله وخروجه دون أن يدفع من جيبه الخاص؟. ضاق بهم ذرعا وأصبح فظا غليظ القلب معهم. فانفضوا من حوله واحدا بعد الآخر. بقدر سعادة زوجته وسرورها برحيلهم كان حزنه. أضرب عن مغادرة الدار لأنه لم يعد هناك عدد كاف ممن يضربون التحية وتعظيم سلام عند خروجه ودخوله، ظل حبيس المنزل. مع الأيام خف زواره. ملوا حديثه المكرر عن بطولاته الخارقة. التي ما أنزل الله بها من سلطان، انتابته حالة عصبية وفقد توازنه وكاد أن يفقد عقله. طلق، تزوج، سافر، تجول، تطبب، اعتمر، صلى، سكر، استغفر، أذنب، تاب. بعدها عاد إلى عرينه. هاتف كل الذين وزع عليهم الغنائم. انتظرهم في مقيل القات. لم يأتوا. هداه تفكيره أن يقوم بجولة حول المدينة. لكنه لم يجد أي من العربات التي غنمها. أين ذهبت؟ لم يجد جوابا فقد غير الله الحال إلى حال أخرى. لم يجد في حديقة داره من الغنائم التي غنمها خلال الحرب، سوي مصفحة كانت زوجته قد صنعت لها غطاء من أشولة القمح و«قوارات» الخبز. كان ذلك بعد أن عادت إليه وتحملت جنونه وزواجه وطلاقه حين رأى المصفحة فرح بها ورفع الأغطية عنها وأدار محركها وبدأ جولته الجنونية عند تقاطع الطريق الرئيسي في شارع الستين وقبل أن يدلف إلى ميدان السبعين انطلقت صفارة شرطي المرور تصم آذان المارة والباعة لم يسمعها دحباش، لم ير الإشارات ولم يسمع صيحات باعة الفاكهة الذين يتخذون من أرصفة الشارع الفسيح وساحاته مكانا رحباً لبضاعتهم. المصفحة أوقفت البيع والشراء وأربكت الحافلات. عسكري المرور لازال ينفخ في صفارته لم يصدق بأن الكتلة الفولاذية التي تتحرك ببطء وتسير أمامه هي مصفحة. لم يسمع بأن هناك عرضا عسكريا ولم يخبره أحد بأي تحركات أو تنقلات لأي قوات!. فيما دحباش يواصل سيره غير مبال بحركة المرور التي اختلط حابلها بنابلها وصار سائقو العربات الخاصة والعامة ينظرون إلي عسكري المرور الذي ترك مكانه في منصته ونزل إلى الساحة عله يتمكن من منع المصفحة

من التقدم. عاد إلى نفخ صفارته. كان المرور قد تعطل تماما في كل الاتجاهات وتوقف السير كليا. مصفحة دحباش هي وحدها التي تسير لا تلوي علي شيء. أخيرا وصل عساكر المرور. لم يصلوا إلا بعد نجاح العسكري الباسل في إقناع دحباش بالتوقف جانبا. في لحظات صار صاحبنا محاصرا بقوات الأمن المركزي والأمن الوطني. صرخ بأعلى صوته. «فيد» فيد إنها فيد.

قبل أن يسترسل في المزيد من حكاياته التي تكون أحياناً مبالغا فيها قال له عبد الباري «قديمة». .

* حسنا. قديمة. قديمة لكنها عميقة وبحاجة للتأمل والتحليل!

الأستاذ عبد القادر وقد وضع شاله على رقبته لكي يتجنب لفحات الهواء البارد الذي مصدره النافذة التي فتحها الأستاذ غانم على مصراعيها لينفذ منها الدخان الذي ينفخه الأستاذ حمود بشراهة هو الوحيد الذي لم يلتزم كليا بمنع التدخين في الحجرة الضيقة قال: «بربكم هل هناك نكتة أو طرفة تستغرق كل هذا الوقت لسردها! ما رأيك يا دكتور؟

* إنها ليست نكتة أوطرفة بل رواية كوميديا تشي بمغزي عميق!

الأستاذ غانم: فعلا إنها بحاجة الي وقفة للتفكير وإلى أين وصل دحباش بمصفحته.

الأستاذ حمود فرحاً لأن قصته لفتت نظر الدكتور وضاح ويريد فلسفتها قال: «انتهت القصة في ميدان السبعين». .

عبد الباري: «لا لم تنته في ميدان السبعين ولا شارع الستين بالتأكيد أن لها توابع. .

الأستاذ غانم: «نعم لها توابعها العديدة وكل تابعة بحاجة لوقفة تأملية وفلسفة خاصة.

الأستاذ حمود منتشيا: «دعنا من الفلسفة الآن إلى حين شراء كتاب من كتب وضاح.

الأستاذ غانم: «لماذا نشتري ألسنا زملاء ومن واجبه أن يهدينا كتبه.

عبد الباري: «أنا سبق لي وقرأت معظمها وهي مازالت مسودة. بدون فخر كان لي الفضل في حثه علي تبسيط بعض المصطلحات.

حمود: «بالنسبة لي ربما أقرأها إذا أهديت لي. ولكنني أقولها لكم وبصراحة لن أضيع وقتي في قراءة فلسفة وتري ما فائدتها في وضعنا الحاضر. .

الأستاذ غانم: من الجائز أن أطلع عليها. إذا ما وجدت التشجيع. كأن يضع وضاح خمسين ريالا داخل كل كتاب»!

الأستاذ عبد القادر: «صح تلك كانت العادة في سعيدتنا. يقال إن الذين كانت تأتيهم الكتب والمنشورات من عدن قبل الثورة الأم. كانوا يستمتعون بقراءتها ويتمنون أن يكون معها ثمن القات. سمعت ذلك من والدي قال إنه استلم في السر مظروفا ضخما من أحد العائدين من القاهرة عن طريق عدن. يحوي الجديد من شعر «الزبيري» ونثر «النعمان». وعندما بدأ بتوزيعه على البعض، طلب أحدهم حق «القات» لكي يتوج متعته..

الأستاذ حمود: «علي ما يبدو أن الدكتور يريد منا اليوم أن نقرأ بدون مقابل».

غانم: «فعلا يبدو أننا كما يقول البعض بأننا شعب لا يقرأ وإذا قرأ لا يفهم..

عبد الباري: «تبا لك. شعبنا قارئ نهم. لكن المشكلة أننا لانستفيد بالعلم في حياتنا!

الأستاذ غانم: «نورنا يا دكتور. لماذا يحلو لك الصمت حينما يكون حديثنا جادا؟!

* هل هذا الهذر المعاد يستحق التعليق؟ لن أفتح فمي حتى تكفوا عن الهرج وتنظموا الأوراق المبعثرة وأصحابها في انتظارها ولا شك علي أحر من الجمر. الأستاذ حمود: يا سبحان الله. حديثنا نحن تحسبه هذرا والوقت الذي أضعته مستمعا لسيرة حياة الحج أحمد أهم من سيرة دحباش!

عبد الخالق: أي والله أن وضاح ضيع نصف يومنا في الاستماع. هل تذكر يا عبد الباري كيف نهرتنا أنت ذلك اليوم لأننا لم نكن ننصت للفراش العجوز... عبد الباري: أيهما الأهم في نظركم سيرة حياة الحج أحمد أم سيرة دحباش؟

الأستاذ غانم: لكي لا تسمع مالا يحمد عقباه، اترك المفاضلة والمقارنة يا عبدوه...

العهــــدة

قبل أن يعود كل واحد إلى مراجعة الأوراق المبعثرة على المكاتب وترتيبها كما يريد الدكتور وضاح. يدخل الأستاذ مطهر موظف الأرشيف يعتذر عن التأخير وأحيانا التغيب عن الوزارة. دون أن يعاتبه أحد أو يسأله عن السبب يقول: «تأخرت لأنني كنت أقوم بمهمة أوكلها إليّ شخص عزيز وقد يعز عليكم أيضا إذا أسمعتم لحكايته بالتفصيل.

عبد الباري: بعد تأخرك عن عملك إلى هذا الوقت ألا ترى أنه من الواجب أن تدخل إلى مكتبك وتنجز ما تأخرت عنه بدلا من دخولك علينا؟

* أردت أن أقص عليكم مأساة صاحبي عبد الرحمن وحكايته مع الوفاء..

* أوجز حتى لا نؤخر وضاح عن طلبته مثل المرة الماضية لعلك تذكر غضبه، وهنا نحن اليوم قد أخرناه بما فيه الكفاية وكل منا يروي نادرة بالتفصيل الممل. . ما رأيك تأجيل روايتك إلى الغد.

مطهر: «لا عليك من الدكتور ووقته الثمين. إذا استمع إلى ما أنا بصدد سرده ربما يغير رأيه في مسألة الوقت الذي يتهمنا بتضييعه. .

* إذن ادخل في صلب القصة. تفضل. .

* لن أرويها إلا إذا كنتم جميعا على استعداد لسماعها إلى النهاية ومع وضاح. .

حمود: «مالك وماله دعه وما يعتقد. ألا تسمعه حين يقول: « إن سبب تخلفنا هو استنفاد ساعات العمل، بينما الوقت الذي هو في نظره «ذهب».

* حكاية صديقي مهمة ومثيرة وليست هدرا للوقت. شاب جاد كما وضاح. .

عبد الباري: أتعبتنا يا أخي. مالذي تريد أن تقوله لنا. هل لديك ما ترويه؟ أم أنك تريد أن تبرر تأخرك عن الدوام؟ لعلمك لن يسألك أو يحاسبك أحد عن التأخير. على العكس قد يكون لذلك فائدة على الأقل للحج أحمد الذي قد يوفر كذا من أكواب الشاي الذي تشربه بشراهة. .

* لا تفسد العلاقة بيني وبين الحج أحمد. هو يسقيني الشاي على حساب الدولة.

* صح النوم. ألم تسمع بالقرار الذي اتخذ بعدم تقديم الشاي والقهوة إلا للضيوف وموظفي الدور الرابع؟!

* إذن هذه قضية مخالفة يرتكبها الفراش.

* ما هي المخالفة في نظرك؟

* الشاي الذي يقدمه لأمثالنا في هذا الدور هو خارج ميزانية الوزارة وخارج اختصاص الحج أحمد. لقد سمعت ذلك مرارا بأن مهمته هي خدمة من في الدور الرابع حيث لا أحد يحاسب. .

* حسنا لن أشرب شايا. يا جماعة أنا حزين لما حدث لصاحبي. أرجوكم استمعوا لما سوف أرويه. .

حمود: «مال صاحبك. لماذا تكبر القضية. هل حكم عليه بالإعدام؟

* لا ليس إلى هذا الحد بعد. صاحبي هذا شاب «دغري» أي والله دغري يؤمن بالمثل العليا. هكذا أفهمه والده. . أوهمه بأن عليه المحافظة على القيم المغروسة فينا منذ القدم أراد أن يعيد زرعها في عبد الرحمن ونسى أو تناسى بأن العصر غير العصر. . على العموم. حالة صاحبي تشبه حالة وضاح إلى حد كبير. .

كان الدكتور وضاح يستعد للمغادرة بعد أن وعد الأستاذ مطهر أن يسمع القصة في وقت آخر.

الأستاذ غانم: «ما رأيكم. هل ندعه يروي على سجيته أم أدفعه إلى خارج الممر؟.

عاد الدكتور وضاح إلى الحجرة وقال: ولماذا تدفعه وكلكم لا عمل لكم إلا التكدس في مكتب واحد وتبادل النكات والسخرية من بعضكم البعض.

عبد الباري: «لا تنس عربتك وثياب فهيم. .

* عربتي. لن أتخلى عنها مهما سخرتم منها. .

عبد القادر: «يا جماعة دعوا مطهر يروي حكاية صاحبه. .

* آه صاحبي ومأساته. إنها لا تصدق. . دعوني أوجز بدايتها كما سمعتها منه قبل أن نرغمه على الرحيل. لقد رواها وهو يعتصر كمداً مما جرى له. قال. مصيبتي الأخيرة هي «العهدة» نعم العهدة التي أردت تسليمها قبل أن أترك العمل بعد أن وجدت بأن لا أمل ولا فائدة من البقاء في وظيفة لا أقوم بها على الوجه الصحيح. أخذت العهدة وتوجهت بها إلى المكتب الذي استلمتها منه. لم أجد الذي سلمني إياها. طلبت من الموظف الذي وجدته يجلس في مكانه أن يستلمها ويحرر لي إيصالا. رفض أن يحرر إيصال الاستلام بل ورفض أن يستلم العهدة قال لي عليك المجيء بها في يوم ثان ويكون الذي سلمهالك حاضرا. سألته متى يتواجد الموظف الآخر؟ بعجرفة رد عليّ قائلا: «هل تراني موظفا للاستعلامات هنا؟!. كانت الساعة تشير إلى الواحدة ظهرا. معنى ذلك أن الذي أريده لن يأتي، أخذت العهدة واستأجرت عربة تعود بي وبالعهدة إلى المنزل الذي يجب عليّ تسليم مفتاحه لصاحبه خلال أسبوع. كنت قد استأجرت ذلك السكن الصغير بعد أن قمت بعرض منزل الأسرة للإيجار حتى عودة الوالد والوالدة من القاهرة التي كان والدي معينا بها ضمن موظفي سفارتنا هناك. قمت بذلك لكي أوفر بعض المال الذي قد يعين الوالد على مصاريف المدارس الخاصة لإخوتي الصغار بعد عودتهم، فعلا تم تأجير منزلنا بمبلغ لا بأس به حاولت أن لا أصرف منه شيئا اكتفيت بمرتبي. وكنت مقتنعا بوظيفتي حتى جاءني رئيسي المباشر وصار يطلب مني تسهيلات لا يقرها القانون. تغاضيت في المرة

الأولى والثانية وكأنني لم أستوعب طلبه. بعدها طرح الموضوع بكل صراحة وحاول إغرائي بالفائدة التي ستعود عليّ وعليه وعلى الذي ألحقني بالوظيفة. رفضت رفضا قاطعا وأفهمته أن ذلك لا يتفق مع مبادئي. من هنا بدأت المتاعب. صار يضيق بي ويبعدني قدر الإمكان ويكلفني بأعمال ليست من اختصاصي، وجدت أن بقائي سيعرضني للكثير من المتاعب، وقد أجد نفسي متورطا فيما لا يحمد عقباه. . لم أعد لأحد أخذت الأمور من قاصرها وقدمت استقالتي من حسن حظي قبلت على الفور مع أني خفت أن ترفض ويزيد امتهاني. بعدها وجدت أن من واجبي أن أعيد ماكان في عهدتي من أجهزة ثمينة وأهمها الحاسوب الآلي الذي أعرف ثمنه الباهظ. كنت قد زودته بمعلومات قيمة ووضعت بداخله شفرات تسهل التعامل في المسائل التي تحتاج إلى وقت طويل لترجمتها وتفصيل رموزها. لم أستسلم من المحاولة الأولى. في اليوم الثاني أخذت العهدة ووجدت نفس الشخص الذي رفض استلامها في اليوم السابق. لم يصبني اليأس. بقيت في مكاني حتى تجاوزت الساعة منتصف العاشرة وأنا لازلت في نفس المكان، وجدت أن الباقي من الزمن أقل من ساعتين وينتهي الدوام. يأتي أحد الموظفين الذي كنت قد علمته كيف يتعامل مع الكمبيوتر. نصحني أن أطلب مقابلة الوزير. في البداية تهيبت الفكرة. فالمسألة لا تستحق طلب مقابلة الوزير لكنني بعد أن يئست من تسليم العهدة لليوم الثالث أو الرابع استسلمت للنصيحة علّني أتمكن من تسليم عهدتي وأتخلص من المتاعب وحمل العهدة بين منزلي والوزارة وبالعكس تحمست لمقابلة الوزير وخاصة أنه يعرف والدي حق المعرفة.

صعدت إلى الدور الذي يوجد به مكتب مدير مكتب الوزير. . تقدمت نحو الباب وكلي ثقة بأنه سوف يبلغ الوزير برغبتي في مقابلته. قلت في نفسي بالتأكيد عندما يذكر له بقية اسمي سيعرف من أنا وقد يناديني هو شخصيا للدخول عليه لأنه يعرفني جيدا منذ كنت طالبا حينما كان يأتي لزيارتنا عندما تعين والدي في بريطانيا، كان ذلك قبل أن يصبح الذي أريد أن أقصده وزيرا. كان يمضي في بيتنا أسابيع حتى يوفر تكاليف الإقامة في الفنادق. وكان والدي يكلفني بمرافقته، وأحيانا أقوم بترجمة المفاوضات بينه وبين رؤساء الشركات التي تتعامل مع اليمن قلت بالتأكيد سوف يتذكرني ويرحب بي. . من هذا المنطلق توجهت مباشرة إلى مكتب مدير مكتبه بعد أن دلني عليه الحارس. الذي حدث هو أنه قبل أن أحرك المقبض اقترب مني رجل أمن بكامل سلاحه وسحبني جانبا وهو يضحك ويتندرعلى تصرفي. . قال: «مالك ماذا تريد من مقابلة مدير مكتب الوزير؟ إنه الوحيد الذي لا عمل له سوى عرقلة الأمور. . ».

أخبرته بأني لم أتقدم نحو الباب إلا بعد أن سألت الحارس الخاص بمكتب الوزير. قال: «أي نعم أنت سألت عن مكان مكتب مدير مكتب الوزير. لكنك لم تقل بأنك ترغب في

مقابلة «خدام خدام الجرافي» ماذا تريد منه صدقني لن يفيدك في شيء. هذا إذا لم يعطلك ويعرقل أمورك..

شكرته وطلبت نصيحته فيما يجب عليَّ اتباعه حتى أسلم ما بعهدتي بدون تأخير. سمعنا موظفا آخر واشترك في الحديث إنه ضابط الأمن ومن مدينة «ذمار» التي يشتهر أهلها بالمرح والقفشات اللاذعة. لم يكف عن التندر على موظفي الدولة وزاد في التنكيت والتشنيع ببعض الموظفين الذين يضعون معاطفهم على الكراسي ويذهبون لشراء القات ولا يعودون إلا قبل نهاية الدوام! في دقائق كنا أكثر من خمسة نقف على باب مكتب مدير مكتب الوزير الذي يطلق عليه رجل الأمن خدام خدام الجرافي..

انتهى الدوام دون أن أتمكن حتى من مقابلة مدير مكتب الوزير.. عدت من حيث أتيت. وقلت بأن هذا اليوم، هو آخر يوم أذهب فيه للوزارة. لكنني بعدها عدت وقلت لنفسي ليس من اللائق أن أسافر قبل أن أسلم عهدتي. كان والدي على شبه اطلاع على ما أواجه في الوظيفة الجديدة التي سعى لكي أحصل عليها بعد أن تركت مكتب رئاسة الدولة. لذا وجدت أن من واجبي أن أشرفه بموقفي النزيه الذي رباني وإخوتي عليه. لا بأس إذا تأخر السفر يوما أو يومين. بإمكاني السكن مع العم، وفي نفس الوقت أطيب خاطره. لأنه كان يعارض فكرة سفري في كل مرة أعود إليه شاكيا من الطرق والأساليب الملتوية التي يريدون مني اتباعها. يقول لي العم أنت واهم. أقول له جائز أنني أتوهم كنت أقول ذلك حتى لا أشغله بالتفكير. في شئوني وجدت أنه من غير اللائق أن أخيب مثاليات عمي الذي كان قبل أن يحال إلى التقاعد، يعمل في وزارة التربية والتعليم. له ثلاثة أولاد كلهم صبيان. هاجروا. منهم اثنان هاجرا إلى كندا. والثالث لازال يجرب حظه في الحصول على الجنسية الاسترالية وهو الآن في الإمارات. قد يحالفه التوفيق وقد لا يحصل حتى على فيزا لاستراليا. لذا كان عمي فرحا بعودتي. لذا منذ عدت عمل قدر ما يستطيع حتى أجد عملا هنا ليثبت لأولاده كذلك أنهم على خطأ في اتخاذ قرار الهجرة. عمي هو الذي تمكن من أن يلحقني بأول وظيفة في مكتب رئاسة الدولة كان له الفضل وليس لشهاداتي.. عدت من بعثة في الخارج بدرجة امتياز في مجال الكمبيوتر، وكان الذي شجعني على العودة هو الوزير نفسه. عدت وعملت في مكتب رئاسة الدولة كما قلت. أخبروني منذ البداية بأن عملي مؤقت وسوف ينتهي بعد وصول الأجهزة الحديثة التي لا تحتاج لبرمجة سكبت كل خبراتي في إعادة تأهيل الأجهزة القديمة والمهملة. معظمها كان لا يزال في الصناديق وقد علتها الأتربة. نظفتها وركبتها وجعلتها تعمل على أحسن وجه، قمت بذلك وكلي أمل أن أوفر للدولة ثمن الأجهزة الجديدة. لم يخطر على بالي بأن هناك من لايريدها أن تعمل! لا أنكر بأنه كان هناك تعاون

بيني وبين معظم الذين عملت على تدريبهم على التعامل مع الحاسوب الآلي، ونجحنا في تشغيل كل الأجهزة بعد أن وضعت بداخلها المعلومات الحديثة، شعرت بعدها أني قدمت خدمة لا يستهان بها، وأن الذين كانوا يثبطون عزيمتي بدعوى أنها قديمة سيسعدهم ماقمت به. لم أكن أدري بأن لهم مآرب أخرى. بعد أن أدركت ما وراء تلك المآرب تجاهلتها تماما واصلت عملي في صيانة الأجهزة وإعدادها للعمل. وقمنا بتركيبها في المكاتب التي هي بحاجة إليها وتوقعت أن يشكرني أحدهم على ذلك. لم يحدث. لكنني كنت سعيدا أنجزت الكثير قبل أن تنتهي مدة التعاقد المحددة من البداية. لم أتألم لتركي مكتب رئاسة الدولة. كنت واثقا بأني سوف أجد عملا بسهولة. هناك شركات وبنوك ومؤسسات بحاجة لمن هم في مجال تخصصي. بدأت أبحث عن عمل آخر. لم أكن قد استوعبت بعد، أو أدركت تماما بأن التحاقي بالعمل في رئاسة الدولة كان بواسطة. .

تيقنت بأني لن أتمكن من الحصول على وظيفة أخرى إلا بها. وهذا ماسعى له عمي حسب نصيحة أحد أصدقاء والدي الذي نصحنا بأن نذهب إلى أحد المسؤولين وزاد في تشجيعنا أن ذلك المسؤول هو الآخر يعرف والدي معرفة جيدة ويكن له بعض الجميل، كما أنه سبق وذكرني أنا بالاسم لأني كنت أرافقه وأترجم له كما كنت مع الوزير الذي لم يسمح لي أحد حتى بمقابلة مدير مكتبه!

لم يكن من الأستاذ غانم إلا أن قال: مطهر. ألا ترى بأنك قد أطلت دون أن تصل بنا إلى نتيجة هل سلم عهدته! لماذا لم تنصحه بالعودة إلى صديق والده الذي سعى له بالوظيفة ويشكو له أو على الأقل يسلمه العهدة؟

* ذكرت له ذلك ووعدته بأن أسهل له مقابلته لكنه رفض.

الأستاذ عبد الخالق: إذاً لماذا لم تساعده وأنت لك صلات واسعة مع الإدارات الحكومية بحكم مناصبك السابقة. كان يجب عليك منذ البداية أن تسهل مهمته لدى الجهات التي تعرقله ما دمت تدعي بأنه سبب تأخرك المستمر عن عملك وتغيبك معظم الأحيان هو من أجله. لماذا لم تسأله عن سبب إصراره الغريب على تسليم العهدة؟!

* سألته عن ذلك كما أنني طلبت منه اسم الشخص الذي لا يريد أن يسلمها إلا له بعد أن أخبرني في البداية أن كل ما يهمه هو أن يحصل على وصل استلام من أمين صندوق المؤسسة! قال بعد ترددي أكثر من مرة أحسست بأن هناك شيئا يدور في الخفاء، وأن الشخص الذي قصدته أول مرة قد أصابه مكروه. . ألم أقل لكم بأن صاحبي هو الذي قد أصيب بالإحباط ولم يعد يفكر إلا بتسليم عهدته للموظف. . وعدته بأن أقف بجانبه،

كذلك عمه لكنه رفض وقرر أن لا يستعين بأحد. حتى أنني حاولت تذكيره بالأشخاص الذين شكرهم عندما كان في رئاسة الدولة. هل تدرون ما كان رده؟ قال: صحيح أن وضعي كان أفضل نوعا ما. المسؤول عن شؤون الموظفين برئاسة الدولة كان أرحم بي. لا أدري هل السبب هو أنه عندما كان يأتي إلى البلد الذي كان والدي معتمدا بها كنت أقوم بالترجمة بينه وبين الأطباء! لذا عندما ذهبت أنا وعمي لمقابلته أول مرة. رحب بنا وأوصى بي خيرا في الحقيقة لم يكن لي علم بمركزه عندما كنت أرافقه ولم أكن أتوقع بأن له كل هذه السلطة، عملت في مكتب تابع لإدارته لكنني لم أحتك به مباشرة. تعمدت أن يكون إخلاصي ومثابرتي على إنجاز العمل الذي كلفت به هو الذي سوف يزكيني وليس الذي يقولون بأن له مكانة رفيعة لدى المسؤولين الكبار. حتى إنني لم أعد إليه عندما بدأت تحدث تجاوزات ومخالفات ولا أستطيع إيقافها. تركت مكتب رئاسة الجمهورية دون أن أودعه لاعتقادي بأنه قد يسألني عن نوع المضايقات التي لا أريد ذكرها منعا للإحراج بسهولة سلمت ما كان بعهدتي وتركت مكتب رئاسة الجمهورية. دون أن أهين كما أهنت في الوظيفة الجديدة التي كان التعامل يختلف تماما. تلاعب. إهدار المال العام، الفوضى. حاولت أن أبتعد قدر الإمكان، وعندما وجدت بأن استمراري في هذه الوظيفة مجازفة كبيرة خاصة حين تفوه أحد الأصدقاء وقال: وظيفتك الجديدة هي في مكان «دسم» قد تطلع منها من ذوي الأملاك. حافظ عليها» في البداية لم أستوعب كلمة «دسم» حتى آتاني من يطلب مساعدتي في تسهيل وتمرير أوراق بعض المشتريات التي تلزم المؤسسة وعرض عليَّ مبلغ ضخم إذا مكنته من الحصول على الموافقة لشراء تلك الأدوات التي لم أر لها داعيا. قال لي أنه يعرف ذلك ولكن الوزارة ستوافق على شرائها. وأنه إذا لم يقم هو بشرائها للمؤسسة من الشركات التي هو وكيلها قد يأخذ التوكيل غيره، والغريب أنه حلل وبرر آخذي الرشوة منه بحجة أنه قد استفتى أحد رجال الدين وأفتاه بجواز دفع الرشوة وأخذها لأن الإدارة فاسدة. لم أوافقه أو أبلغ عنه. بعد فترة جاءني ملوحاً بالموافقة التي حصل عليها بنفس الطريقة التي كان قد عرضها عليَّ..

من كان في مكتب الدكتور وضاح صار يطلب من الأستاذ مطهر إيجاز الحديث. قال الأستاذ غانم: أخ مطهر. ألا ترى بأنك أطلت في السرد. أقول لك كما يقول إخوتنا في مصر «هات من الآخر».

* لماذا تريد مني أنا الاختصار يا غانم؟

* عطلتنا. وبالذات سيدي حمود. قد لا يلحق القات «الصودي»..

* من قال لك إنني لا زلت أتعاطى القات يا غانم؟. لعلمك لقد تخلصت من عادة مضغ القات منذ تخلصت من زوجتي الأولى. .

* من حسن حظها. بالتأكيد أنها قد حصلت على زوج «مريش» لن تكرر غلطتها الأولى. .

عبد الباري: «يا جماعة دعوا مطهر ينهي قصة صاحبه».

آه صاحبي. قال إنه بعد كل الذي واجهه في المؤسسة التابعة للوزارة. ترك العمل ولم يعد يراعي عما أو خالا. قدم استقالته وقبلت على الفور. بعدها وجد بأنه لم يعد أمامه إلا تسليم العهدة أصبحت همه الأكبر لم يبال أو يستجب لتوسلات عمه الذي يريد أن يثبت لأولاده بأن السعيدة لازالت بخير. قال له: "لم يعد لي هم إلا تسليم عهدتي. . لا أدري ما الذي جعله يصر على أن يسلمها بنفسه!. وهكذا عاد في اليوم الثاني والثالث والتاسع والعاشر والعشرين ولم يتمكن حتى من ترك رسالة لوكيل ليخبره بحضوره للمرة العشرين.

الأستاذ حمود: «اختصر أرجوك ورانا أشغال مهمة». . .

عبد الخالق: بطل الفضول يا حمود يعني ورانا أشغال. أي أشغال؟! قلها بصراحة إنك عدت لمضغ القات.

عبد الباري: «خذ راحتك يا مطهر. فصل وحلل كما يحلو لك». .

* المهم أن عبد الرحمن أصيب بنوع من الخوف والتوتر كما لو أن عهدته تحوي أسرارا ذرية، ويجب تسليمها إلي من يهمه الأمر من هنا وجد عمه وأصدقاءه وأنا أنه من الضروري إجراء مكالمة تليفونية لوالده لبحث المأزق. توصلنا إلى قناعة بأن يسافر عبد الرحمن وبسرعة. من الغريب أنه رفض السفر ظل مصرا على تسليم العهدة بنفسه حتي يخلي مسئوليته وإبراء ذمته كما قال. .

لم يجد والده طريقة تقنعه بالسفر إلا أن كذب. قال بأن والدته ترقد بالمستشفى في القاهرة وأن عليهما السفر بأسرع وقت. أخيراً تم سفره بعد أن وعدناه بأن نسلم عهدته للشخص الذي استلمها منه لأنه على حد قوله إنسان شريف ويحافظ على المال العام. قبل أن يصعد إلى الطائرة أوصانا بأن نحتفظ بالعهدة في مكان أمين حتى عودته إذا لم نستطع تسليمها للموظف الذي ذكره وعدته بذلك، وحمدنا الله بعد أن قامت الطائرة لأنه هو الذي صار بحاجة للرقود في مستشفى. . .

بعد سفره حدث ما لم يكن في الحسبان. قصدت بنفسي المؤسسة التي كان يعمل بها أكثر

من مرة وسألت عن الموظف الذي ذكر اسمه. يوم يخبرونني بأنه غائب منذ مدة ويوم يقولون لي بأنه سافر دون أن يبلغ وآخر يقول إنه قدم استقالته وترك المؤسسة حتى أنه لم يأخذ أغراضه الشخصية! سألت عن المكان الذي يمكن أن أجده فيه وهل له رقم هاتف أو عنوان؟ يقترب مني أحد الموظفين ويهمس في أذني: «أنصحك أن لا تسأل عنه أو تذكر عبدالرحمن» بعد أن سمعت ذلك التحذير كثفت البحث عن الشخص المفقود. ساورني الشك في عبد الرحمن. فكرت أن أجري اتصالا هاتفيا لوالده لأسأله عنه وأستفسر ما نوع العهدة وما أهميتها. قبل أن أجري المكالمة ذهبت لعمه لأستشيره. وجدته في حالة يرثى لها من القلق والخوف. سألته مما ذا يخاف وأين العهدة. أخبرني بأن مدير المؤسسة أرسل من يستلمها قبل أيام، وأنه دون أن يفتحها أو يعرف ما نوعها لأنها بداخل كرتون كمبيوتر سلمه ولم يعطه وصلا. سألته ما سبب خوفه بعد أن سلم الجهاز؟ قال كل دقيقة يضرب الهاتف ويسألونني هل هناك شيء غير جهاز الكمبيوتر ثم يسألونني متى يعود عبد الرحمن!

يسأله الأستاذ غانم: من متى حدث هذا ولماذا لم تتطرق للموضوع معنا من قبل؟ مع أنك كثير «الهزار» ولا يفوت يوم تحضر فيه إلا وتأتينا بالأخبار التي تذاع...

* هأنا أخبرتكم اليوم. أروني ماذا ستفعلون بحكم أنكم قضاة أو كنتم! . هاهو الآن والد عبدالرحمن وعمه يتعرضان لما لا يخطر على بال. ووالده الذي عاد على وجه السرعة ليصفي الموضوع ويبري ساحة ولده من تهمة الوفاء. نعم هذا ما ينوي القيام به عله يتمكن من أن يحول التهمة إلى تهمة سرقة أو حتى تهمته ووالده وعمه «بالعمالة» لجهات أجنبية والسعي لإفشاء أسرار الدولة وقيام عبد الرحمن بزرع أجهزة تنصت في جهات رسمية! كل تلك التهم سيكون عقابها أخف من تهمة الوفاء!... تصدقون؟!... عبد الرحمن لم يقبل بالحل الذي عرضه والده. يصر على العودة وقول الحقيقة حتى وإن حكم عليه بالإعدام في ساحة عامة. ولكن والده جعله حبيس الدار في القاهرة بعد أن أخفى جواز سفره. قد يعود بدون الجواز إذا لم تفلح توسلات والدته بعد أن قطعت خط الهاتف ومنعته من مقابلة أحد..

الأستاذ غانم وسط دهشة الكل من القصة التي لا تصدق يقول: «يارجل صلي على النبي. كل هذا لأنه تمسك بتسليم عهدة لا تقدم ولا تؤخر.

* لعلمكم لقد تمكنت من معرفة مكان أمين صندوق المؤسسة الذي كان عبد الرحمن يريد تسليم جهاز الكمبيوتر له. بقيت أبحث عنه حتى وجدته في قريته يقوم بتربية الدواجن وبين الحين والحين يضع شريطا في المسجل ويعيد سماع أغنية قديمة تقول كلماتها «فل تحيى يماني من...» ويطفئ المسجل قبل نهاية البيت. لم أتمكن من التحدث معه. لكنني سمعت من

بعض جيرانه أنه غاب لمدة ثلاثة أسابيع وبعدها عاد رث الثياب ولا يتكلم مع أحد. دفعني الفضول إلى أن أدخل داره خفية. وهناك أخبرني ولده بأنه في بعض الليالي يهذي ويقول: «لا ليس بيدي أو بيد عبد الرحمن ما يثبت بأن هناك تزويرا أو سرقات». .

فز الأستاذ عبد الخالق وأغلق باب المكتب وعاد للأستاذ مطهر وطلب منه أن لا يفتح الموضوع مرة ثانية أو يتحدث بما جرى لمخلوق خلقه الله من الجن والإنس. عندما قام عبدالخالق بقفل الباب استغرب من كان في المكتب المقابل! لماذا؟ كان ذلك خلال المرور الاعتيادي للقاضي أحمد الذي يرى كل شيء على ما يرام! عندما وجد الباب مقفلا دفعه بقدمه ودخل بعمته التي تميل إلى المؤخرة. بادر بتحيته المعهودة وتقدم من مكتب الدكتور وضاح ليسأله لماذا لم يحضر الاجتماع في الدور الرابع بحكم أنه الوكيل الأول؟

* لم أدَّعِ ولم يخبرني أحد بأن هناك اجتماعا. . .

* أنا كذلك لم أدَّعِ ولم أخبر لكنني حضرت وشاركت. .

* ليس لي قوة إرادتك ولا تفاؤلك. .

* لا تقل ذلك كلك أمل وتفاؤل يا وضاح وتعلم أن الابتعاد يوسع الهوة.

* ليس هناك ما يستدعي حضوري. .

الأستاذ عبد الخالق وهو لازال سارحا في ما رواه الأستاذ مطهر. قال: يبدو بأن القاضي أحمد يعيش في ملكوت لا يسكنها غيره. .

* أنا أعيش في الواقع وأنتم تعيشون في الخيال. أليس كذلك يا وضاح؟

* ألم يقل لك بأن ليس له قوة إرادتك. وأنا أقول بأن ولا أحد له قوة طباعك .

* لماذا يا عبد الخالق تبدو مرتبكا؟ ماذا يفعل الأخ مطهر هنا؟! .

تدخل الأستاذ حمود الذي كان قد أصابه ما أصاب عبد الخالق من خوف قال: يا قاضي أحمد لماذا تستغرب تواجد مطهر بيننا وأنت لم تتوسط له بعد لكي يلتحق بعمله في محكمة بلاد الروس؟ ألم تسمع بأن النائب رفض قرار التعيين وفضل أن يبقيه في مكتب الأرشيف بدون عمل كما ترى. .

* الذي يريد أن يعمل سيجد العمل. . .

* كالعمل الذي تقوم به مثلا؟ . .

لم يجد الدكتور وضاح إلا أن يطلع القاضي أحمد على ما رواه الأستاذ مطهر برغم محاولة الأستاذ غانم تغيير الحديث والموضوع برمته بعد أن رأى تقلب صورة عبد الخالق الذي لا يريد أن يطلع القاضي أحمد القضية التي صارت الشغل الشاغل لمن سمعها. لم يعره وضاح أي اهتمام. يعرف بأن القاضي أحمد إذا لم ينفع فلن يضر القاضي أحمد بعد أن سمع قصة مطهر وصاحبه عبد الرحمن وأمين الصندوق الذي التجأ إلى الدروشة وتربية الدواجن. ساوى من عمته وقال: هل تصدق الرواية يا أخ عبد القادر إذا كان السبب هي عهدة لم تسلم، فالأمر بسيط ولا يستحق كل هذا التعقيد. والتفت نحو الأستاذ مطهر وقال دع والد عبد الرحمن يأتي إلى هنا، وأنا الذي سوف أصحبه بنفسي للجهة المسؤولة ونسلمها. . الأستاذ غانم يقول بتهكم. هكذا بكل بساطة! فعلا يا قاضي أحمد أنت تعيش في عالم آخر. بعد أن شرح لك وضاح كل شيء وقد يحكم على صاحب العهدة بالإعدام تقول الأمر بسيطا!

* تقول الإعدام مرة واحدة؟ لماذا يحلو لك تعظيم الأمور يا أخ غانم. ثم لماذا يحكم عليه بالإعدام؟.

* بتهمة الوفاء يا «صفي». .

الأستاذ حمود: «الصفي على حق لماذا سيحكم عليه بالإعدام؟» حتى لو حكم عليه بذلك. لن يعدم. خذ عندك سفاح المشرحة تأخر تنفيذ الحكم ولا أحد يعرف السبب. وهناك إشاعة مفادها أنه يهدد بكشف كل الذين سهلوا له قتل البنات!

الأستاذ مطهر ألم أقل لكم بأن جريمة صاحبي أكبر من جرائم سفاح كلية الطب. .

ينتفض الأستاذ عبد الخالق بعد أن اطمأن بأن لا خوف من القاضي أحمد الذي يحلو للبعض القول عندما يراه «هاهو أحمد بن يحيى قادما» عبد الخالق لم يكن خائفا عندما قام بإغلاق الباب كان خجلا من أن يطلع أحد على أنهم استمعوا لما رواه الأستاذ مطهر ولم يتمكنوا من عمل شي. وجد أن من الأفضل أن لا يعلم أحد بأنهم علموا بالمأساة. قال: «والله يا مطهر إن قصة صاحبك تثير الشفقة ولا أستبعد أن تتكرر مع صاحبنا وضاح المستغرق في التفكير.

القاضي أحمد كعادته حمل عبد الرحمن وأمين الصندوق المسؤولية الكاملة لما حدث، كان الدكتور وضاح ينظر إليهم وهو يتابع مايقوله الأستاذ مطهر، هذا الزميل خريج كلية الشريعة جامعة صنعاء التي حصل منها على منحة مكنته من مواصلة دراسة القانون في سوريا بجامعة حلب التي منحته الماجستير في مجال الشريعة والقانون. كان يأمل مواصلة الدراسة حتى ينال الدكتوراة لكنه عاد حسب نصيحة أساتذته الذين وعدوه بوظيفة في الجامعة إن لم

يحصل على الوظيفة التي كان يرجوها . تم تعيينه في الوزارة بعدها تنقل من عمل إلى عمل ومن محكمة إلي أخرى. عمل قاضيا في محكمة شرق صنعاء، وقد اشتهر بقوة المراس في مواجهة القضايا في المحاكم وتصدى بشجاعة لمحاولات التلاعب بالقوانين. بعدها تم نقله إلى محكمة ذمار ومن ثم تم نقله أو ترحيله إلى محكمة «صيرة» ضاق به رئيسها ولم يتورع عن تقديم الشكاوي في حقه إلى مجلس القضاء الأعلى. فكان نقله إلي محكمة شرق صنعاء الابتدائية. ظل فيها حتى استقر به المطاف أخيرا في الوزارة وأحيل إلى مكتب الأرشيف بالتحديد ،كان ذلك قبل أن ينضم الدكتور وضاح إلى قافلة المغضوب عليهم، أولئك الذين يصفونهم في الوزارة «الصعاليك» ويطلقون على أنفسهم مجموعة «الظرفاء». .

كل ما كان يسمعه الدكتور وضاح من مآس يحاول أن يجد ما يبررها ويفلسف ويسامح ويبحث عن الأعذار التي تدفع البعض إلى أن يتّجنى على غيره أو يهضم حقه، يعود بذلك إلى رواسب الماضي وإلى التخلف الذي كان سائداً. هكذا كان يوم أن جاء الأستاذ مطهر وأخبرهم بمأساة صاحبه لم يستوعب أو يقدر حجم الخطر وما قد يواجهه إذا عاد في الوقت الراهن. كان مطهر قد طلب منه أن يتدخل إذا عاد عبد الرحمن وتعرض لمكروه. . وهو يستفسر ويحلل ويطلب المزيد من الشرح ليفلسف القضية حسب عادته في تهوين الأمور والبحث عن الأسباب. . .

وعده بأن يبحث الموضوع في وقت آخر لأنه مستعجل. ثم غادر الوزارة وتوجه إلى الجامعة ولم يسمع الرأي الأخير من القاضي أحمد بعد أن سمع بقية القصة. ترك الزملاء يخوضون فيها بعد أن انضم إليهم موظفو الأرشيف. لكنه طوال المسافة بين الوزارة والجامعة ظل يفكر في صاحب العهدة ووفاته الذي قد لا يقود والده إلا إلى الجنون. كيف يقبل أن يسجل ويقر على ولده بتهم خطيرة لم يرتكبها ألا يخشى عليه من أن تلصق به هذه التهم؟ قال لنفسه: زملائي فيما يبدو أنهم علي حق في السخرية من المساخر التى تعج بها البلد في كل مكان. وأن ما سمعه من حكايات في مساجلات المكتب يندى لها الجبين. ولابد أنه غائب إذن عن الوعي بمدي التغيير إلي الأسوأ. . ولغرائب الصدف أنه في ذلك اليوم الذي سمع فيه قصة عبد الرحمن. أنه عندما وصل الجامعة. وجد رجال الشرطة وقد اتخذوا أماكنهم قرب المداخل وحول السور. في البداية لم يستغرب كان قد تعود رؤيتهم من وقت لآخر وفي العادة يكون معظمهم بالثياب المدنية. فتحت له البوابة ودلف بسيارته العتيقة ولم يعترضه أحد. يخبره البواب أن الطلبة يتوافدون إلى الساحة منذ الصباح الباكر ولم يلتحقوا بكلياتهم حتى الآن، وأن الأساتذة ينوون الاعتصام! لم يسأل عن السبب ولا اقترب من الطلبة والطالبات الذين وقفوا صفوفا متراصة حول قاعة جمال عبد الناصر. توجه مباشرة للإدارة. سأل عن

رئيس الجامعة وأين يجده يخبرونه بأنه لم يأت بعد ولا أحد يدري أين مكانه وقد تعذر الاتصال به تماما. كل من التقاهم من الأساتذة لا علم لهم بما يدور في رؤوس الطلبة، وماذا يريدون من هذا التجمع الصامت. سأل عن الأساتذة الذين يقال إنهم ينوون الاعتصام وجد أن ذلك غير صحيح، وأن كل ماهنالك هو تجمعهم في قاعة واحدة حتى يأتي رئيس الجامعة أو عميد كلية الآداب الذي سبق له وحسم مشكلة مشابهة لما يحدث اليوم. ينبري أحد موظفي الإدارة ويقول: «لماذا لاتخرجون إلى الطلبة وتستفسرون عن سبب تجمعهم وماهي مطالبهم». بعض الأساتذة فكروا في ذلك. اعترض الدكتور وصاح وقال. قبل دخولي إليكم فكرت أن أتوجه إليهم لمعرفة السبب الذي جعلهم يحتشدون في الساحات بدلا من الالتحاق بكلياتهم لكنني عدلت مخافة من أن أزيدهم حماسا لقضية لاندرك ماهي بعد. لذا تعمدت تجاهلهم وتجاهل الشرطة الذين يقفون لهم بالمرصاد، ولن يترددوا في استعمال سلطتهم في إيذاء الطلبة..

خطف العـــروس

بدأت همهمة الطلبة تعلو. فجأة اندفعوا نحو البوابات. لم تمر دقائق إلا وقد صاروا خارج الحرم الجامعي. في لمح البصر كانت الطالبات قد أخرجن من تحت شراشفهن يافطات كتب عليها (إلا حفنة التراب) بعض اللافتات كتب عليها بالخط العريض «أيها الخيال الذي وضعناك بين أهدابنا. لا تفرط بحفنة التراب»..

اتضحت الأمور وبانت اليافطات التي يتلقفها الطلبة من يد إلى يد. عمداء الكليات والأساتذة حاولوا التدخل ومساعدة الحرس لمنع تدافع الطلبة إلى خارج أسوار الجامعة، ولكن بعد فوات الأوان. بدأ ضرب الطلبة بالهراوات ومحاولة تفريقهم بالقوة.

الطالبات يتقدمن الصفوف لاعتقادهن أن الشرطة لن يقدموا على ضربهن بالهراوات، الطلبة كانوا يريدون أن تكون مسيرتهم سلمية. مطلبهم هو مقابلة رئيس الجمهورية ليشرح لهم أو لمن يختار من مندوبيهم. ما معنى التفريط في حفنة التراب التي سبقت توقيع المعاهدة الأخيرة التي لم تنل حقها الواجب من الشرح والتفسير، لم يتمكن الطلبة من مواصلة المسيرة برغم البسالة التي بذلوها خاصة بعد أن انضم إليهم العديد من المواطنين الذين تمكنوا من التقاط بعض اللافتات ورفعها بدلا من الذين تساقطوا تحت تأثير الضرب المبرح والغاز المسيل للدموع الذي جعل الكثير من المارة يلتجئون للدكاكين التي تحتل جنبات شارع الخط الدائري. الشرطة وقوات الأمن لا زالت تحاصر المسيرة التي خفت وتلاشت تحت الضرب العشوائي دون مبرر. قبل الوصول إلى شارع الزبيري كانت المسيرة قد خلت من الطلبة تقريبا. لم يتبق

إلا عدد قليل لا يتجاوز العشرة. في ذلك الوقت ما بين الواحدة والثانية بعد الظهر. هطلت الأمطار وتفرق الباقون. انتشر خبر المسيرة الطلابية وبدأ أهالي الطلبة يتوافدون على الجامعة، الكل يريد أن يبري ساحة بنته أو ابنه، ويدعي أن المحرضين مجرد زمرة من الانفصاليين. ومنهم أساتذة في الجامعة وأعضاء في أحزاب معارضة .

تلك المسيرة التي أرادها الطلبة سلمية ولم تكن كذلك. جرح منهم من جرح وتم نقل بعضهم إلى المستشفيات والبعض عاد إلى داره يداوي جروحه الجسدية والمعنوية بطريقته الخاصة. من له أهل حمدوا الله لأنه لم يعتقل. لم يحدث أي اعتقال لأحد. كذلك لم ينشر أي خبر عن المسيرة داخليا أو خارجياً. .

برغم التكتم على المسيرة وعدم ذكرها لقلة عدد الذين قاموا بها. إلا أن خبرها انتشر في بعض الأوساط، وصار حديث المقيل في مجالس القات «السوطي». .

تلامذة الدكتور وضاح كانوا الأكثرية في المسيرة مع أنه لا علم له ولم يخبره أحد منهم بنيته في القيام بمسيرة. في اليوم الثاني دخلوا المدرج في صمت مطلق، منهم من يضع لفافة بيضاء على رأسه وآخر على يده والذي يعرج. لم يصل إلا وهم في انتظاره. حالة الغضب المكتوم والشعور بالخيبة دفعهم إلى الابتعاد عن الخوض فيما قاموا به. كذلك الدكتور وضاح وبقية الأساتذة لم يفتحوا الموضوع. على الأقل حتى تلتئم الجروح الجسدية التي كان معظمها سطحية. بعد مرور أسبوع، وبعد أن هدأت النفوس فكّر الدكتور وضاح أن يناقشهم فيما قاموا به. . لاحظ أن بعضهم لم يهدأ بعد. لكنه استمر في توجيه الأسئلة الاستفزازية لكي يخرجوا غضبهم المكتوم. قال عندما تريدون أن تقوموا بمسيرات أو مظاهرات عليكم أولا أن تنظموا أنفسكم وتدرسوا الموضوع من كل جوانبه وتختاروا الوقت المناسب وتخططوا وترسموا كل خطوة تنوون القيام بها، وإذا كان ممكن أن تحصلوا على ترخيص اسعوا للحصول عليه. كما أنه من المفيد أن تسألوا وتناقشوا أساتذتكم».

ينبري أحدهم والرباط لا يزال على كتفه الأيمن ويقول: «لم تعد لنا ثقة في أحد».

* ماذا هل كنت تريدنا أن نتقدم المسيرة ونحمل اللافتات والعرائض ونحن لا ندري ولا علم لنا أي الأسباب وأي الأحداث التي جعلتكم تتجمعون بصفة سرية وتخفون عرائضكم. أنا شخصيا اختلطت عليّ الأمور ولم يعفين ذكائي المحدود في التخمين. صحيح هناك أسباب كثيرة تدفع للمسيرات والتظاهر. هناك الغلاء الفاحش وارتفاع الأسعار. الأغذية الفاسدة التي تأتي مهربة من الأقطار المجاورة. البطالة التي لم تعهدها

البـلاد مـن قبل. الرشـوة والفسـاد الخطف التلاعب بالعمـلة. جرائم القتـل اليومية التي لا يحقق فيها أحد أو يبحث عن دوافعـها. مذبحة كلية الطب التي صفيت على سفاح واحـد. كل هذه الأسبـاب تدعـو للتظاهر والمسيرات. وأولهـا المذابح التي ترتكب في فلسطين. لكنكم تعرفون بأن الشعب كله لم يقصر خاصة في بداية الانتفاضة. لقد فتحنا باب التبرعات ودفع كل مدرس مرتب شهر. أنتم كذلك لم تقصروا. جميع قطاعات الشعب هنا شاركت كل بمجهوده وإمكانياته. لعلمكم التبرعات من الشعب في اليمن هي التي وصلت وبمبالغ لم يكن أحد يتوقعها. لأنها فاقت ما قدمته بعض الأقطار العربية الغنية. نأتي للسبب الذي دفعكم للمسيرة الأسبوع الفائت. معكم الحق كل الحق أن الوضع بحاجة للشرح وكيف تمت المعاهدة. وما الذي عاد وما هو الثمن للذي لن يعود. لكنه الشباب الذي يدفع بصاحبه أحيانا. كان عليكم أن تنظموا أنفسكم وتتشاوروا وتسألوا ما هي الطريقة المثلى التي تمكنكم من الاطلاع على الحقائق قبل أن تقوموا بأي خطوة لا فائدة ترجى منها. . رسالة زميلتكم التي أضاعت وقتها في كتابتها وبذلت مجهودا كبيرا في صياغتها نصحناها بعدم نشرها أو تداولها على نطاق واسع. أرجو أن تلتزم بذلك تدرون لماذا؟ لأن الرسالة قاسية بعض الشيء. وفي نفس الوقت لن تقدم أو تؤخر لم يقاطعه أحد. الكل كان يسجل كل كلمة قالها.

بعد المحاضرة وجد نفسه محاطا بالطلبة الذين أتى بعضهم من الكليات الأخرى بعد الحديث والنقاش الطويل. استشاره أحدهم في تقديم اعتذار جماعي لرئيس الجامعة وبعض العمداء والذين قيل إنهم تعرضوا للتحقيق والمساءلة. لم ينصحهم بذلك. قال: احمدوا الله أن القضية انتهت بالتحقيق مع أساتذتكم وببعض الكدمات والجروح لكم، ولم تتعرضوا للاعتقال والاستجواب. أما الأساتذة الذين تريدون الاعتذار لهم فلا أعتقد بأنهم يحملون عليكم ولا يتوقعون منكم أي اعتذار، المهم هو أن تهتموا بالتحصيل. هاهو العام قرب على نهايته ولازال أمامكم الكثير من المراجعة. .

اعتقد الدكتور وضاح أن المسألة انتهت عند هذا الحد. لكنه ورئيس الجامعة فوجئوا بمقتطفات من رسالة الطالبة التي سبق ونصحوها بعدم نشرها. كانت الطالبة أو أحد زملائها قد أوصلوها لصحيفة تهتم بشؤون البيئة ورسائل القراء لذويهم المهاجرين والذين انقطعت أخبارهم. المسؤول عن الصحيفة وضع رسالة الطالبة في صفحة داخلية لا تلفت النظر. وبالتأكيد أنه لم يسمح له بنشرها إلا تحت ضغط أولئك الذين يريدون استثمار الهامش الديموقراطي. الطالبة التي كتبت الرسالة كانت في السنة الثالثة من كلية الحقوق. وجهت رسالتها لفخامة رئيس الجمهورية تقول في مقدمتها: «أيها القائد الفذ الذي أرسى قواعد

الديموقراطية وعمل على استخراج الخير من باطن أرضنا الطيبة. باني السدود، صانع الوحدة والبطل الذي لا يشق له غبار. أريد أن أسألك. سؤالا واحدا فخامة الرئيس. هل من العدل أن تتم معاهدة واتفاقية بهذا الحجم دون أن يعرف أحد من مواطنيك ما تحوي عليه هذه المعاهدة؟! سيدي فخامة الرئيس. الذي دفعني لتوجيه هذه الرسالة إليك، هي غيرتي عليك. لا أريد أن يأتي اليوم الذي يقال فيه «إن الذين صاغوا الاتفاقية قبل ٦٦عاما كانوا أكثر حذرا وحرصا» فخامة الرئيس. أعذرني. سبق ولدغنا عدة مرات من نفس المكمن، لذا ينتابني الشك حتى وإن اتضحت الأمور. فما بالكم إذا لم تتضح. هل يمكن أن يتفضل واحد من المصرحين ويشرح ولو بالتلميح دون التصريح ببعض ماحوت المعاهدة. فقط تلميح يبدد الشك وينشر قليلا من الطمأنينة التي تجعلنا نتقبل المعاهدة بشيء من العقلانية، ونبرر الرقص والهتاف الذي كان وذلك الاستقبال الحار. . .

شيئاً يسيراً من التوضيح يتيح فرصة محدودة للتفكير أو التأمل. ندري بأن الكل يجري وراء لقمة العيش ويحمل في عقله وقلبه همومه الخاصة، ويكتم ويدفن هموم الوطن لكي يحمي نفسه وأهله من الاصطدام. إلا أن الغموض جعل الشكوك تنغص كل محاولاته لخلق شيء من الفرح والثقة بدليله الذي يقوده منذ أكثر من عشرين عاما. سيدي فخامة الرئيس. . هل هو كثير علينا أن نطمع بقليل من الشرح لبعض ما احتوته المعاهدة، وبالتالي نتمكن من إعادة الثقة بدليلينا وننبذ شك الملدوغ من نفس المكان عدة مرات. . .

الشك يسيطر على عقولنا حتى وإن حاولنا إقناع أنفسنا بأن خوفنا لا مبرر له، سيدي فخامة الرئيس هذا الغموض بدد الآمال وزادنا تعقيدا وجعل الأمور تتضح أكثر بكل أسرارها وأبعادها. لذا لم أجد أمامي إلا التوجه إلى دليل المسيرة. .

أيها الخيّال الذي سلمناك زمام أمورنا. لا تخذلنا. ثقتنا بك كبيرة لا حدود لها. اعطنا شيئاً من الاطمئنان لنتمكن من السير في دربك. .

أيها الدليل الذي حسبناك «سيف بن ذي يزن» وحملناك بين أهدابنا وحلقنا بك إلى عنان السماء ووضعناك في مصاف الأبطال والخالدين. هل تأثرت ياسيدي بضخامة القصور وتوزيع الهدايا القيمة وشرب القهوة المرة بعد منتصف الليل، ونسيت العروس التي تاجها «الأبها» وجبينها «عسير» المنال و«وديعة» أنفها الشامخ. هل نسيت النقش اليماني على كفيها؟ ذلك النقش البديع الذي لم نكف عن التغزل به منذ أكثر من ستين عاما. يوميا نحلم بعودة العروس المخطوفة إلينا بكامل زينتها. أيها الدليل هل نسيت كل ذلك؟! أم أنك تأثرت بذلك الجواب الأحمق، وذلك التصريح سيء الذكر الذي كان مفاده «الخلاف هو على حفنة تراب لا تستحق».

سيدي. الضباب أصبح مخيما وصرنا نشم دخاناً كريه الرائحة والقبيلة بدأت تلم جحافلها وأنت تعرف جيدا ماذا يعني للقبيلة خطف العروس لن تتسامح مع من سهل الخطف ولن تعفي من شارك أو بارك أو سهل عملية البيع . . .

هذا ما تم نشره من رسالة الطالبة التي رفضت النصيحة وزادت في التمادي ووضعت اسمها الثلاثي وعنوانها، ولا زالت في انتظار الجواب الذي ليس باستطاعة أي مخلوق التكهن به . .

رئيس الجامعة والدكاترة والأساتذة . لم يعلقوا أو يطلب أحدهم التحقيق مع الطالبة أو من سرب الرسالة إلى الصحف . عميد كلية الآداب طمأنهم قائلا : بالتأكيد لم يطلع أحد على ما نشر. وزاد في الاطمئنان حين رأى الطالبة التي كتبت الرسالة تدخل المدرج تجاهلها تماما وكأنه لم يطلع هو الآخر على ما نشر!

البعض برر عدم اختفاء الطالبة بالقول : ربما تكون مدسوسة بين صفوف الطلبة ، أو بسبب منصب كبير يحتله أحد أقاربها» .

يعقب آخر ويقول لمن حوله همسا : التحليل الأخير هو الصحيح . الذي بإمكانه أن يقول أو يكتب ما يريد هو الذي يتمتع بحماية مسؤول أو بدعم شخصي» . .

[المناصب مدخل الثراء غير المشروع]

كثر الهمس في المدرج وصار الطلبة الذين يحتلون الصفوف الأخيرة يعلقون ويحللون . منهم من قال : بالطبع من له واسطة أو قريب قوي يحميه ، هو الذي يحتل المراكز والمناصب العليا، ويتمتع بالحرية بحماية القانون الذي أقره الدستور والديموقراطية المعلن عنها . . وتصير الوظائف لا لمن يستحقها وإنما عبر الواسطة المبادئ تنخر فيها السوس، والقانون في خبر كان مع الذي لا ليس حسيب أو قريب . . .

بعد مغادرة العميد وقفت طالبة كانت قد سمعت الهمس ، وتعرف صاحبة الرسالة معرفة جيدة . قالت : هذا عيبنا . نشك في كل شيء ولم نعد نثق في أحد . لعلمكم زميلتكم ليست مدسوسة وليس لها قريب أو نسيب في منصب أو مركز ما قامت به دافعه غيرتها على وطنها الذي عرفته من الخريطة المرسومة على كراستها . . .

بقية الأساتذة علموا من العميد بأن صاحبة الرسالة لم يمسها مكروه ، وأنها الآن في المدرج بين زملائها . .

الدكتور وضاح هو الآخر ذلك اليوم لم يعلق أو يستفسر . بعد أن ألقى محاضرته تركهم

وركب سيارته التي أصرت على أن تعطله طويلا هذه المرة في منتصف شارع القيادة. بعد محاولات عدة مع محركها وتعاون المارة على دفعها رضخت وقبلت توسلاته وواصلت المسير بتعثر، لم توصله إلى منزله إلا قرب أذان العصر. تخبره زوجته بأن الهاتف لم يسكت منذ ثلاث ساعات، وأنها لم تتمكن من متابعة دروس الأولاد والمذاكرة لهم بسبب قيامها وقعودها لترد على الهاتف. قالت: الكل يسأل عنك ويريدك في أمر مهم دون أن يفصح ما هو الأمر المهم الذي جعل بعضهم يطلبونك ثلاث وأربع مرات خلال ساعتين. مما اضطرني لرفع السماعة شعرت أمة العلي بأن سبأ الولد الكبير يتابع حديثهما. سحبت زوجها بعيدا عن الأولاد وهمست له قائلة: «إن جيت للحقيقة أنا قلقة هناك شيء جعل زملاءك يطلبونك كلهم الذي لديه هاتف والذي ليس لديه طلبك من بيت الجيران، أو من الشارع مما اضطرني لرفع السماعة..

* حسنا. ضعيها في مكانها..

* وضعتها حال ما سماعي صوت سيارتك. هل أخبرتك بأن الجيران صاروا يشتكون من أنينها؟!

* لا عليك لن أفرط فيها مادامت تسير حتى وإن رفضت أنت ووالدتي ركوبها الهاتف صمت تماما. قامت أمة العلي لتتأكد بأنها وضعت السماعَة فَي مكانها لازال الهاتف ملتزما بالصمت المطلق. رفعت السماعة لتتأكد من أن الحرارة موجودة. أعادتها إلى مكانها. لم يرن الهاتف. لا أحد يطلب. جلست بجانب زوجها الذي يتناول طعامه منفردا، رن جرس الباب. وقفا معا ليستطلعا القادم، كان زميله الأستاذ عبد القادر الذي ينادونه القاضي ابن القاضي. قبل أن يرد تحية الترحيب بادره قائلا: «ماذا فعلت اليوم أي جريمة ارتكبتها؟! ماذا جرى؟ احزم حقائبك وارحل على وجه السرعة. لم أصدق بأني سوف أجدك...

* ما الذي جرى ماذا حدث مافعلت أخبرني.

* ألم تدرك ما ذا فعلت؟! هناك تقرير خطير وصل الوزارة وما كاد يصل حتى عرف به القاصي والداني..

* أي تقرير وما فحواه ومن الذي أرسله.

* لا أدري المهم اعمل حسابك إما للرحيل بسرعة أو استعد للقبض عليك ووضعك في السجن.

* هل اطلعت على التقرير، هل فهمت من أين مصدره؟

* لا ولكنه بالتأكيد التقرير الذي يريده نائب الوزير ولن يعتقك. هذه فرصته. . الأستاذ عبدالقادر لم يأخذ مكانه ويتناول القهوة إلا وقد تدافع بقية الزملاء تباعا وكلهم في صوت واحد يطلبون من الدكتور وضاح أن يختفي حتى تنتهي الزوبعة التي يثيرها النائب. . أولاد الدكتور وضاح وزوجته شعروا بالخطر الذي لا يدركون كنهه. وضاح طمأن زملاءه الغيورين وودعهم ثم عاد للمطالعة ومشاهدة التلفاز ومتابعة أخبار الساعة التاسعة في التليفزيون. تركته أمة العلي لتعد التوأم للنوم لكي تتفرغ لزوجها الذي يتظاهر بالاطمئنان الذي يحاول بثه في ابنته أروى التي أصرت على مشاركته سماع الأخبار. لم تقبل الذهاب إلى سريرها إلا برفقته، جاء الصباح ولم يأت من يعتقله.

توجه إلى الوزارة يستقبله الحج أحمد الفراش العجوز. هو الآخر يبادره بنفس السؤال الذي سمعه من زملائه. ماذا فعلت يا دكتور؟ كنت أعتقد بأن فلسفتك وحكمك ونصائحك التي تنصح بها الناس. ستجنبك الوقوع في المحذور وتحميك من المزالق والشباك التي تنصب لك كل يوم. . .

* حتى أنت يا حج أحمد لا علم لك بنوع الجريمة التي ارتكبتها!

* لا أدري. كل الذي عرفته بأن النائب وأتباعه يشيعون بأنك انتهيت. .

* ولايهمك. . بعد قليل تتضح الأمور.

* أي أمور الكل في انتظارك لتفجير القنبلة في وجهك. كيف تسمح لهم أن يصطادوك بهذه السهولة؟!

لم يستقر الدكتور وضاح على مكتبه ويتفحص بعض الأوراق حتى يأتيه مدير مكتب الوزير بنفسه ليبلغه بأن الوزير في طريقه إلى الوزارة، ويريده أن لا يغادر الوزارة أو حتى مكتبه تحت أي ظرف. ويضيف. يبدو أن الأمر خطير يادكتور. .

زملاء المكتب لم يأتوا بعد. هكذا هي عادته يكون أول من يحضر من المحامين والقضاة إلى الوزارة. تجمع حوله بعض السعاة وعلى رأسهم فهيم. يضحك الدكتور وضاح من الطريقة التي يقف بها على مقربة منه بثيابه المزركشة زاهية الألوان. لم يعد يفصلهما إلا المكتب الصغير. لم يتمكن الدكتور وضاح من التكهن بما يدور في رأس فهيم في تلك اللحظة وما سبب وقوفه أمامه! . هل أدرك أن هناك خطرا وأراد أن يشعره بأنه معه وسيقف إلى جانبه حتى وإن اقتضى الأمر لأن يستعمل سلاحه الذي هو عبارة عن سكين صغيرة مهشمة النصل يضعها خفية تحت ثيابه بعد أن منع من أن يتمنطق بحزامه الذي يعلق في وسطه خنجره. إرثه الوحيد من والده. .

بدأ الموظفون يتوافدون تباعا إلي الوزارة . هرج الزملاء وتزاحمهم في الممرات . قطع تأملات الدكتور وضاح وتفكيره في التقرير الذي جعل نائب الوزير يطير به فرحا مما دفع بزملائه أن يتقاطروا على منزله خوفا عليه . كان قد خطر على باله أن السبب يكون فى المسيرة الفاشلة التي قام بها الطلبة . ولكن المسيرة مر عليها أكثر من أسبوع وهو لم يطلب للتحقيق . ولم يأت من يستجوبه كما حدث مع بعض الأساتذة . نحا التفكير والتكهن بنوع التقرير وحجمه . ومثل عادته صار ينبه زملاءه ويحثهم على الاهتمام بالقضايا التي أوكلت إليهم وأن عليهم مراجعتها وإعطاءها حقها من الفحص والتدقيق ، وأن تكون لها الأولوية على مناقشاتهم وسخرياتهم لأنها تتعلق بحقوق ناس وضعوا كل ثقتهم بالقانون ورجال القضاء .

برغم الموقف المتوتر والتوجس الذي يكسو الوجوه إلا أن الذين يطلقون على أنفسهم «الظرفاء» وجدوا فسحة من الوقت تتيح لهم ممارسة هوايتهم في التندر وتحويل المسائل الجادة إلى أمور عادية وبسيطة لا تستحق أن تؤخذ بأي جدية تكونت لديهم هذه الأفكار بعد أن تم حشرهم في مكتب ضيق مقابل حجرة السعاة إمعانا في التقليل من شأنهم وتسفيها بكفاءتهم . إلي حد أن القضايا التي تحول إليهم بعضها تم البت فيها ونفذ الحكم . من ضمن تلك القضايا التي يحولها نائب الوزير لأحدهم كانت قضية شاب تزوج بأخته من الرضاعة دون علمه أو علمها . وبعد أن صار لهما طفلا . تأتي امرأة وتعترف بأنها أرضعت كل منهما أكثر من خمس رضعات . كان قد حكم في تلك القضية وقت أن كان الأستاذ عبد الخالق يعمل بالمحكمة الابتدائية في «الروضة» ، وصدر الحكم بالتفريق بين الزوجين الأخوة من الرضاعة ، وأن تتولى تربية الطفل أم الأب . .

تحريض الطلبة

أخيرا وصل الوزير . وعلى الفور جاء من يستدعي الدكتور وضاح للمثول بين يديه ليحدد مصيره بعد أن يكشف له فحوى التقرير . . كان الوزير يجلس على مكتبه بوقار غير مسبوق . دخل الدكتور وضاح وخلفه مدير المكتب الذي طلب منه الوزير الخروج وإغلاق الباب خلفه . تلفت وضاح باحثا عن النائب الذي لا يمكن أن يكون هناك اجتماع بالوزير ولا يحضره سواءً كان مهما أو عاديا . فما بالك إذا كان يتعلق بوضاح . الذي يقف حجر عثرة في طريقه كيف له أن تفوت الفرصة النادرة التي أتت بتقرير يدين وضاح؟ !

وقف الوزير وأخذ بيده وهو يبتسم . قال : «بالتأكيد وصلك خبر التقرير ولعل بعضهم قد أطلعك على فحواه . .

* لا لم يطلعني أحد. كل الذي علمته هو أن هناك تقريرا وصلكم ضدي.

* على العموم ما به ليس بالصورة السيئة التي صورها أو تمناها النائب. .

* سعادة الوزير. الذي أريده هو معرفة فحوى التقرير ومن أين جاء. أما النائب فأنتم أعرف به مني. .

* التقرير الذي بين يدي يقول إنك جمعت الطلبة من الكليات المختلفة وحرضتهم على القيام بمظاهرات ومسيرات ولم تكتف بذلك. بل وشرحت لهم كيف يجب أن تكون المظاهرات. . دكتور وضاح. الذي أريد معرفته الآن هو أين كانت فراستك التي تمكنك من معرفة الناس أكثر مما يعرفون أنفسهم. ألم تلاحظ العيون التي كانت ترقبك؟! . كيف خانك ذكاؤك؟ . .

* هذا كل ما جاء في التقرير؟

* على العموم. التقرير لم يرفع بعد إلى المسؤولين ولن نسمح بتقديمه.

* من أنتم؟

* مرة ثانية يخونك ذكاؤك.

* سعادة الوزير. لا يهمني إذا قدم التقرير. بل أتمنى بأن العيون التي ذكرتموها كانت مزودة بآلات تسجيل. لأنها لن تنقل إلا ما سمعت. أنا لم أحرض أو أدعو لمسيرات ومظاهرات. بل على العكس من ذلك تماما. دعوتهم إلى الالتزام بالقوانين وبالنظام وعدم تضييع الوقت فيما لا يفيد. معظم الحديث الذي دار كان عن مسيرة الطلبة الأخيرة. وكان من ضمن النقاشات التي أديرها كالعادة مع طلبتي قبل المحاضرة أو بعدها. لأنهم كما تعرفون طلبة ناضجون يدرسون القانون واحترام القانون. وليسوا تلاميذ صغارا لكي أضعهم في فصل مغلق ولا أسمح لغيرهم بالدخول. لا أنكر أنه في نهاية النقاش كان هناك بعض الطلبة الذين جاءوا بعد أن انتهت محاضراتهم وكان عددهم لا يتجاوز العشرة. وكما ذكرت لكم بأن الذي قلته هو أن لا يضيعوا وقتهم فيما لا يفيد. . ترى هل أخطأت؟

عندئذ اقتحم نائب الوزير المكتب فجأة دون استئذان. وقف بين الوزير والدكتور وضاح وقال: «نعم يا دكتور. كنت تقصد ما تقول تماما. لم تعجبك المسيرة الفاشلة التي قاموا بها. فما كان منك إلا العمل المكثف على توعيتهم وإرشادهم كيف يكون الشغب».

دخول النائب غير كلام الوزير وبدل أحواله وأقواله من النقيض إلى النقيض. . .

نهض الدكتور وضاح من مكانه وشكر الوزير على اهتمامه بالتقرير. وقبل أن يصل إلى باب الخروج قال. على العموم أرجو أن لا تشغلوا وقتكم بالتقرير الذي لن يؤخر أو يقدم بعد أن تتضح الأمور. أما الذي يريد أن يعمل من الحبة قبة فأنا على يقين بأنه لن يتمكن النيل مني عن طريق هذا التقرير الملفق».

قبل أن يغلق الباب خلفه. قال النائب: من الذي يريد أن يعمل من التقرير قضية»؟

لم يرد عليه. أعطاه ظهره وخرج في طريقه إلى مكتبه. لم يكن من النائب إلا أن تبعه إلى منتصف الممر في الدور الرابع وأمسك بيده وهو يقول: «مالك ومن تتهم وما الذي يجعلك تستبق الأحداث؟ لعلمك. التقرير جاء إلى الوزارة من الجامعة ولو لم يأت إلى هنا أولا لكان الآن في طريقه إلى الأمن الوطني وإلى وزارة الداخلية، لكنني رأيت بحكم الزمالة أن أستفهم منك قبل تسليمه لأي جهة.

* ما هو الشيء الذي تريد أن تستفهمه مني؟ التقرير لديك وقدمه لأي جهة ولمن شئت وفي الوقت الذي تراه مناسبا. .

* ضع الحديث عن التقرير الذي لا تعيره اهتماما. ما هي قوتك ومن يدعمك؟.

* هل ترى أن الممر هو المكان المناسب لأخبرك من يقف ورائي ومن يدعمني؟

تتفضل إلى مكتبي وسوف أعطيك أسماء الذين يدعمونني. بل وعناوينهم وأرقام هواتفهم إذا أردت. عفواً أرجو أن لا يداخلك الشك بأني نسيت بأنك نائب الوزير وأنا وكيل وزارة من ضمن عدة وكلاء.

* أعرف بأنك لم تنس ذلك. لكنك نسيت بأنه لم يعد هناك مكتب مستقل لك.

* إذا لم يعد أمامك إلا أن تأتي معي وتتحلى بالصبر وتستحمل المزاح الثقيل من زملائي في مكتبي الجديد. أنت تعرفهم جيدا، وكان لك الفضل الكبير في تكديسنا كالدجاج في حجرة واحدة. لعلمك أنا سعيد جدا برفقتهم.

* أنا كذلك سعيد لوجودك بين الصعاليك. أما أنا فأفضل أن أجلس معك في مكتب آخر للنقاش بهدوء. قد نتمكن من إزالة سوء التفاهم الذي بيننا ونعمل كفريق واحد. تفضل يا دكتور إلى مكتبي بدلا من وقوفنا هكذا.

استجاب له ودلف معه إلى مكتبه. كان موظفو الدور الرابع قد شرعوا أبواب مكاتبهم ليتابعوا الحوار الطويل الذي يدور في الممر، لذا لم يستغربوا عندما وجدوا الدكتور وضاح يتبع

النائب إلى مكتبه. منهم من توقع بأن الخلاف الذي بينهما خفت حدته وسرعان ما سيتلاشى ويعود الدكتور وضاح إلى ممارسة عمله في نزاهة وبلا مجاملة أو محسوبية، مما جعل النائب يجور على سلطاته القانونية. زملاء الدكتور وضاح كانوا على نار في انتظاره ليخبرهم عن التقرير الذي دفعهم للهم والقلق وضرب الأخماس في الأسداس.

بدلا من أن يعود إليهم الدكتور وضاح. يأتيهم الفراش ويخبرهم بأن المقابلة مع الوزير لم تستغرق إلا دقائق معدودة، بعدها دخل النائب ثم خرج الدكتور وتبعه النائب وبعد حوار ساخن على مسمع ومرأى من الموظفين والمترددين على الدور الرابع. دخلا سويا إلى مكتب النائب ولا زالا معا. ينبري الأستاذ غانم ويقول: «بالتأكيد التقرير خطير ولا أستبعد أن يستغله النائب ويضغط به على وضاح لكي يقبل ويتعاون في تنفيذ مآربه المشبوهة ويتنازل عن مبادئه التي يسميها «غرور». . يقول عبد الباري: وضاح ظاهره كباطنه، ولا يمكن أن يتنازل أو يسكت على أي تجاوزات تحت أي ضغوط . .

في مكتب نائب الوزير يتواصل الحوار والنقاش. يسأله النائب: يعجبك يادكتور وجودك في مكتب يضم زمرة من المدعين والمغرورين وأصحاب النظريات الفاشلة التي لا تقدم ولا تؤخر . .

* أي مكتب تقصد. هل هو هذا الذي نحن فيه أنا وأنت الآن؟

* لا تتلاعب بالألفاظ. أنت تدرك جيدا أي مكتب ومن أعني.

* فعلا الذين تقصدهم لهم نظريات ومبادئ وقيم تختلف عن مبادئك. ولكن هذا لا يعطيك الحق أن تحولهم إلى مجموعة من العاطلين لا عمل لهم إلا ماتراه مناسبا لتحجيم قدراتهم وتحطيم معنوياتهم. مادمنا لوحدنا أحب أن أؤكد لك أن معنوياتهم لن تتحطم ولن يغيروا مبادئهم حتى لولم يجدوا أمامهم إلا التقاعد القسري. .

* هل أنا ناديتك إلى مكتبي لتهينني. ؟.

* العفو. . لم أقبل دعوتك من أجل ماذكرت. قبلتها على أساس أننا سنتناقش حول التقرير الذي يبدو أنك سعدت به. أما بخصوص الزملاء فأنت الذي فتحت موضوعهم. وأنا تحدثت معك بصراحة على أمل أن تتغير وتغير الطريقة والأسلوب الذي تتعامل به مع زملائك. لعل وعسى. .

* على كل حال أشكرك على هذه المحاضرة الأخلاقية القيمة. ولكن لعلمك يا دكتور بأني لست وحدي الذي جعلت الوزارة تتخذ منهم هذا الموقف بالتأكيد أنهم قد حدثوك عن الوظائف العديدة التي شغلوها والمحاكم التي عملوا فيها وتنقلوا بينها. يا دكتور. هؤلاء هم

الذين يفضلون أن يبقوا هكذا في حالة تذمر ونقد مستمر، لايعجبهم العجب ولا الصيام في رجب. ثم يشكون من تسوية القضايا بشكل ودي بديلا عن معاناة التقاضي وكلفة الوقت والجهد والمال . .

* هنا مربط الفرس. هي الطرق التي يتم بها تسوية القضايا خارج القانون . .

* أفهمها كما تريد وفهمها لهم على طريقتك التي لن تؤدي بهم إلا إلى المزيد من الإحباط حتى ينهض فيلسوفك «أفلاطون» من قبره . .

* تأكدت الآن بأن الفضل فعلا كل الفضل يرجع لك لأنك استطعت أن تحول أكفاء موظفي الوزارة إلى مجموعة محبطة لا عمل لها إلا التهريج وقتل الفراغ بالسخرية . .

* بإمكانك أن تبقى معهم أو تفارقهم متى شئت. هذا إذا وجدت بأنك مع الوقت سوف تتحول إلى مهرج مثلهم. لعلمك أنت الذي أطلقت عليهم لقب المهرجين. على العموم مكتبك شاغر إذا مللت رفقتهم.

* بعد الذي سمعته منك أفضل البقاء معهم سوف أكون أسعد برفقتهم وبالطريقة التي يتغلبون بها على المرارات والتجاوزات . .

* أدري بأنك مرتاح لوجودك بينهم لأن لا عمل لهم إلا الترفيه عنك والاستماع لفلسفتك ومبادئك التي لن تفيدهم بالقدر الذي تضرهم.

* هل تريد أن تحملني كل أسباب الفشل الذي يواجهونه؟ أنت تعرف كيف تمشي الأمور . العصر الذي تتحدث عنه وأصحاب الكفاءات لم يعد يجدي. نحن في عصر السرعة. ومن يتمكن من تحسين وضعه ومركزه . .

* لا أعتقد بأن أي واحد ممن أضعنا كل هذا الوقت في الحديث عنهم يرغب في أن يسبق الآخر في التقرب من رؤسائه ونيل رضاهم لكي يحسن وضعه أو مركزه بالطريقة التي تتبعها.

* أريد أن أكلفهم ببعض المهمات الكبيرة إذا توقفوا عن نقدهم وسخرياتهم . .

* تأكد بأنك لن تجد بينهم من يصلح لهذه المهمات التي ذكرت.

* معك حق إنهم لا يصلحون إلا للشوشرة وانتقاد الذي يعمل. أنت يا دكتور الذي بإمكانك التأثير عليهم إذا كنت تفكر في مصلحتهم.

* لم يشتكوا من أوضاعهم الحالية.

* قبلوا بها صاغرين. لكن يظل الأمل يحدوهم بتحسن الأوضاع . .

* يحدوهم الأمل بتغير الأوضاع أليست هذه هي الأمنية التي يتمنونها؟

* ألم تدرك بأن الجدل الذي يدور بيننا لا جدوى منه وما هو إلا مضيعة الوقت، وأنت وراءك أعمال ومهمات يجب القيام بها قبل نهاية الدوام. وأنا كذلك ورائي طلبة ينتظرونني. من واجبي تطمينهم بأن التقرير مهما كانت خطورته لن أدعه يؤثر عليهم. بالتأكيد أن لديهم علما به خاصة أنك قلت بأنه جاء من الجامعة.

* دعك من التقرير. إنس موضوعه ولا تفكر فيه ولا من أين جاء.

* للعلم بالشيء فقط. من الذي أعد التقرير وسلمك إياه؟

* هل هذا وقت لتسألني هذا السؤال؟!.

* نعم هذا هو الوقت المناسب للسؤال لكي أتمكن من الإجابة عن الظرفاء في الوزارة الذين هم الآن في انتظاري متلهفين على معرفة فحواه ومن ورائه لا يمكن أن أتوجه إلى الجامعة قبل أن أخبرهم بكل مادار بيني وبين الوزير الذي يعتقدون بأني لا زلت في حضرته! أما بخصوص ما دار بيني وبينك. اطمئن بأني لن أذكره وليس فيه ما يذكر. .

* هكذا يحلو لك تصعيد المواقف بيني وبينك. على كل حال اعمل ما بدا لك يا دكتور وقل ما تريد وما تراه مفيدا. .

* مفيد في ماذا؟ مالذي رأيته أو وجدته مفيدا في جدالنا العقيم. .

* يا دكتور مصلحتك الشخصية. . ولا أريدك أن تتعرض لما لا يحمد عقباه. .

ترك النائب وكله ثقة بنفسه وبزملائه الذين لن يتخلوا عن مبادئهم الوطنية الراسخة وبالشباب الذين لن يخضعوا أو يخيفهم أي تهديد. .

سوق عكاظ

بعد ذلك التهديد المبطن من قبل النائب الذي قال له: «لا أريدك أن تتعرض لما لا يحمد عقباه. أراد أن يستغله ويبتزه بذلك التقرير لكنه لم ينل مقصده.

هاهو يكرر التهديد ويصر على كسر وضاح بطريقة أكثر جرأة، وبما لم يكن يخطر على بال. . .

منذ أن تعين وضاح في الوزارة بدرجة وكيل أول، وصارت هناك إشاعة بأنه النائب المقبل. من هنا حاول تحطيمه بشتى الطرق والأساليب عله يرضخ أو يبتعد عن طريقه وإلى الأبد. لم يكتف بالشخصية الانتهازية لكسر كرامة وضاح. بل جاء بالثلاثة الأغراب ليكمل التفاوض الذي بدأه معهم منذ أن رفضت دولة فقيرة مجاورة قبول المشروع الخطير..

كان للنائب ما أراد. بحضور وضاح تلك المقابلتين الصاخبتين اللتين عصفتا بكل ما تبقى لديه من تفاؤل ومثل. لقد نجح في أن يهز ثقته بنفسه وبمن حوله. لم يعد يستمع لزملائه بنفس الإنصات والتروي والصبر الذي كان عليه...

قبل ذلك لم يكن الدكتور وضاح على يقين مطلق إذا كان الوزير على اطلاع كامل بما يقوم به النائب. كل الذي يعرفه أن الوزير أصبح لعبة في يد نائبه يحركه كيف ما شاء. لكنه الآن بعد الموقف الذي اتخذه صار متيقنا بأنه على علم مسبق بفحوى هذه الصفقة المريبة. يتذكر وضاح يوم التقرير وكيف أنه كان لا يزال محتفظا بشيء من شخصيته أو مكانته؛ وتصرف بقدر ضئيل من المصداقية احتراما على الأقل للشهادات التي يحملها، وبينها الشهادة العالمية التي نالها من الأزهر الشريف. وجوده وموقفه في المقابلتين الصاخبتين. أكدتا بأنه فعلا صار عبارة عن صورة باهتة جامدة معلقة على حائط مظلم، أخيرا أصبحت الصورة مكتملة لدي وضاح بكل تفاصيلها وخيوطها المتشعبة حدث نفسه: هل من الممكن منع الكارثة دون دفن النفايات في السعيدة. وهل من الممكن أن تكون نهاية الفساد إيذانا بالتغيير وصلاح الأوضاع؟ وهل باستطاعتي تحمل المزيد؟ ثم هل بإمكاني أن أستمر بعد الذي حدث؟ ثم يعود ويلتفت إلى زملائه الذين ينظرون إليه نظرة إشفاق وشيء من العتاب لأنه لم يخبرهم بما يدور في رأسه. وهو ينظر إلى الأوراق المبعثرة فوق مكاتبهم. لم يعد يدري! هل ينتقد إهمالهم وقد عانوا الكثير بسببه كما هي عادته؟ أم يركز تفكيره في همومه ويلملم أوراقه ويصمت.

لم تعد الرغبة أو الحافز حتى يستمر في التوجيه أو انتقاد أحد. كان قد حزم أمره ولم يعد يهمه الآن سوى أن ينهي المعاملات التي تكدست على مكتبه بعد أن كان قد يئس من عودة ملفاتها إليه. يريد أن يسلمها لأصحابها قبل أن ينفذ قراره الأخير وهو بالهجرة والنجاة أو الفرار على حد تعبيره عندما كان يأتيه أحد يريد الهجرة عزف عن المشاركة أو النقاش في مواضيع يدرك في قرارة نفسه بأنه لن يغير من الوضع شيئاً. بعد أن تخلى زملاؤه من المحامين والقضاة والأساتذة. بشكل أو بآخر. لم يردوا على مكالماته الهاتفية بعد أن علموا بأن غريمه هو النائب، تخلوا عنه حماس زملاء المكتب واستعدادهم للوقوف إلى جانبه يدرك بأن لا فائدة...

بعد أن فرغ من ترتيب الملفات، وجد أن يزف أخبارها إلى أصحابها . . هاتف من لديهم هواتف والذي لا يوجد له رقم . أخذ على نفسه عهدا أن يسلمها إليهم قبل أن يرحل . .

زملاؤه في المكتب لم يستغربوا حرصه على تلك الأوراق وتصميمه على أن يسلمها بنفسه . بدلا من أن يوكل بها أحد السعاة ليوصلها أو يرسلها في البريد مثل العادة هو على حق . نائب الوزير كان قد كلف أحد جواسيسه أن لا يسمح لأي ساعٍ بتوصيل أي رسالة في هذا الشأن قبل أن يعرضها عليه . .

تأخر الدكتور وضاح في مكتبه . حتى أن الأستاذ غانم قال له : «يا دكتور . نحن لسنا مستعدين أن نتأخر معك . الوزير ونائبه انصرفا من الوزارة ، فلم يعد ثمة ضرورة للبقاء حتى نحميك من شرورهما . لماذا لا تعود إلى دارك وتكمل بقية الأوراق في الغد . لقد تأخرت على أصحابها كثيرا فلا يضر أن تتأخر يوما أو يومين زيادة» بعد صمت مر من قبل الأستاذ عبد الباري يتدخل ويقول : «لا تتوقع من وضاح أن يقبل تأخير عمل اليوم للغد . إنه الوفاء الذي يلازمه» . .

من جديد يعود وضاح ويتذكر ذلك النقاش الطويل عن الوفاء . عندما سألهم : « هل أصبح الوفاء تهمة في نظركم ؟!» وقال له الأستاذ غانم : «فسر لنا كلمة وفاء يا دكتور . ماذا تعني ولمن يجب أن يكون الوفاء؟» . .

كان قد قال له : «الوفاء كلمة كبيرة ولها معان كثيرة تحتاج إلى شرح طويل . وفي نفس الوقت يمكن اختصارها بعبارة واحدة تعني الصبر والتضحية وإنكار الذات دفاعا عن المثل العليا . أهم شيء وأكثره صعوبة في هذا الزمان غرس معاني الوفاء في نفوس الأجيال . .

ذلك الحوار الذي دار بينه وبين زملائه كان بعد أن تم نقله من مكتبه في الدور الرابع قاله وهو يعيد ترتيب مكتبه الذي صار يحتل زاوية صغيرة بين خمسة مكاتب . . .

هرج الزملاء ومزاحهم لا زال مستمرا في رأسه ، وهو يلقي آخر نظرة على المكتب الذي ينوي هجره . لكنه لا يريد أن يتركه حتى يتأكد من نظافته وترتيب الأوراق في الأدراج المخصصة لكل قضية . .

زملاؤه لا يزالون مرابطين في أماكنهم . بعض السعاة وعلى رأسهم الحج أحمد الذي يقف بجانبه فهيم بكامل حلته التي لم يتخل عنها بعد . وقف قرب الباب ترقبا لما قد يحدث وما هو الوضع الذي لا يعلم الدكتور وضاح إلى أين سوف يصل . إلا أنه لايزال ينصحهم ويوصيهم خيرا في المواطنين الذين لازالت معاملاتهم تنتظر الإفراج .

برغم أنه كان قد اتخذ قرار الهجرة الذي لا رجعة فيه، إلا أنه كان يأمل أن يتمكن من مقابلة رئيس الوزراء وإطلاعه على ما يدور في الوزارة من تلاعب ومخالفات وأكثرها خطورة ما تم في المقابلة الأخيرة التي كما يقال «قصمت ظهر البعير». لم يكن على استعداد لشرح موقفه الجديد والتحول الكبير الذي طرأ عليه. الكل كان يدرك المعاناة التي يكابدها.

ألقى نظرة أخيرة على زملائه وكانت الدموع تطفر من عينيه. ظلمهم نائب الوزير عندما اتخذ منهم موقفامعاديا لا رجعة فيه. اكتفى بأن يكلف أحدهم من حين لآخر بمراجعة أوراق تخص قضية مخالفة تافهة قام بها أحد الباعة الجوالين، أو برسالة وصلت إلى الوزارة من سيدة تطلب نفقة من مطلقها. قضاة ومحامون كبار وضعوا في حجرة قصية بجانب «بوفيه» الوزارة الذي يعج بالفراشين والسعاة. النائب وأعوانه كانوا لا يزالون يطلقون عليهم «الصعاليك» وتارة أخرى «الانفصاليون» بدعوى جهلهم بمسح الجوخ. وهم يطلقون على أنفسهم «الظرفاء». في آخر الممر كانت تقابلهم حجرة واسعة يحتلها أكثر من عشرة موظفين يراجعون الفواتير ومعظمها مزورة وكلها ممهورة بتوقيع الوزير نفسه ليتم التصديق عليها وصرفها من خزينة الدولة بدون تردد أو مراجعة...

مع الأيام كانت الحجرات قد اندمجت واختلطت المكاتب كالحابل بالنابل، وصارت كلها عبارة عن سوق عكاظ بعد أن تحولت إلى ساحة لها منبر يعتليه من له قضية أو في جعبته ما يرويه. لم تعد هناك أي خصوصية لأي مكتب. مرات عديدة حاول وضاح أن يعيد الأمور إلى نصابها بعد أن انضم إليهم، حاول أن يجعل كل موظف يلزم مكتبه، كان ينجح حينا ويفشل أحيانا كثيرة.. كلهم يشعرون أن لا عمل محدد لأي واحد منهم. الأعمال في يد النائب يوزعها على من يرتاح لهم. لا يتذكر أي من زملاء الدكتور وضاح في المكتب أنه كُلف ببحث قضية أو حضور أي محاكمة أو مقابلة. هو الوحيد بينهم الذي تعرض عليه بعض القضايا بحكم منصبه أو بنوع من التنغيص على حياته لغرض. بينما نغص هذا الآخر حياة النائب بنزاهته وكبريائه وتمسكه بالحق، مما أعاق فرص الكسب غير المشروع، ومن ثم لم يعد للنائب من هم سوى معرفة من يقف وراء وضاح ومن أين يستمد قوته. لذا وجد أنه من الصعب أن يزيحه عن طريقه إلا إذا تمكن من أن يدنس سمعته ويقضي عليه معنويا النائب نفسه لم يعد يتذكر السبب الذي جعله يبغض وضاح ويكن له الحقد! . سبق له وحطم العديد من أمثاله وحولهم إلى تماثيل من ورق يحرقها متى يشاء. لماذا هو وحده يستعصي عليه؟! يجب أن ينخ ويخضع. وجد أن أفضل طريقة لتحطيمه هي إشراكه في عملية الرشوة التي ينوي تسلمها علنا في مكتب الوزير وبحضوره الذي عرض الرشوة بذلك المبلغ الكبير، يريد أن يستولي على بقية الإكام التي تحيط بالأراضي التي استولى عليها وبنفس الطريقة

والأساليب التي اتبعها مع الجهات المعنية الأخرى. لم يعد يلزمه إلا الحصول على توقيع صغير من هذه الوزارة التي يريد وكيلها إفساد الخطة. . .

الوقفة التي وقفها الدكتور وضاح برغم ما تعرض له على يدي ذلك الانتهازي ومرافقيه، تلك الوقفة الشجاعة كادت أن تدفع بالوزير إلى أن يتخذ موقفا يعيد له هيبته ومكانته. لكن وضاح خذله وأعاده إلى وضعه السابق من الخضوع حين عاد مع نائب الوزير بطيبة وحسن نية. وبفلسفة مفادها، أن النائب قد يأخذ درسا يفيده ويقرعه عن استغلال وظيفته في إهدار الحق العام. وقد يستقيم حتى وإن تعرض لضغوط شديدة من قبل المتنفذين الذين لا يعلو صوت على صوتهم. . .

من هذا المنطلق عاد وضاح مع النائب ليحضر المقابلة الثانية برغم المعارضة الشديدة من قبل زملائه ودهشتهم من موافقته على عودته إلى المكان الذي تعرض فيه إلى الشد والجذب وإلى الدرجة التي تطاول عليه مرافقو صاحب اللحية المصبوغة وشدوه بربطة عنقه. لكنه عاد بحسن نية وطيبة خاطر وشارك في استقبال الأغراب الثلاثة. إلا أنه لم يكن يتصور أو يتوقع ما دار فيها. المقابلة الثانية كانت الفاصلة طفح به الكيل وقرر الرحيل. . .

آخر من حاول أن يستوقفه ويترجاه أن يعدل عن تنفيذ قراره هو الفراش العجوز. استحلفه بالله وبكل مبادئه أن لا يترك. ويقول له بكل جدية: «يا دكتور. فهيم بحاجة إليك كما هو بحاجة لي. انظر إليه. لقد تخلى عن زيه الحضرمي ومن أجلك قبل أن يرتدي ثياب السعاة لكي يرضيك أنت وحدك».

من في المكتب والممر المؤدي إلى السلم وقفوا يغالبون الضحك وهم ينظرون إلى فهيم الذي يقف خلف الفراش العجوز وكأنه أمام لجنة شكلت لكشف الهيئة. الطريقة التي وقف بها منتصب القامة لا تبعث على الضحك فحسب بل على التأمل والتفكير بما يدور في رأسه، وهو يحاول أن يؤكد لكل الحاضرين بأنه لم يتنازل عن ثيابه المزركشة إلا بعد أن قال له الحج أحمد بأن الدكتور وضاح سيكون سعيدا حين يراه ملتزما بزي السعاة الذي فرضته الوزارة. لبس البدلة الكاكي واكتفى بقفل أزرار القميص السفلية وترك العلوية مفتوحة مما زاد من إظهار عضلات صدره الذي كان يعلو ويهبط مع أي لفتة أو حركة يقوم بها ليثبت لوضاح أنه سيظل وفيا لزيه وما يعني. .

وحده وضاح أدرك ما يريد فهيم أن يعبر عنه بقبوله ارتداء زي السعاة. أراد أن يقول له: «عليه أن ينحني قليلا حتى تمر العاصفة». .

هيهات أن ينحني وضاح . كان قد حزم أمره على أن يرفع القضية إلى أعلى مستوى وأن لايسكت عن جريمة تكاد أن ترتكب على مسمع ومرأى من الكل . . .

من حين لآخر ينظر وضاح إلى الزملاء الذين لا زالوا ينظرون إلى فهيم ووقفته المتحدية وإلى الفراش العجوز الذي تعلقت عيناه بالذي يريد المغادرة تاركا وراءه كل الذين يرونه طوق النجاة . وسط استغراب الوقوف والجلوس على مكاتبهم، اقترب الفراش العجوز من وضاح وبصوت هامس قال : «جد جديد في المسألة ، وأن هناك خلافا كبيرا حدث بين النائب والوزير وأن الصفقة قد لا تتم» .

كان هناك همس يدور في الوزارة بذلك بعد أن شاع الخبر في كل الأوساط حول مشروع دفن النفايات . الدكتور وضاح تداول الخبر مع نفسه بعض الوقت . أدركه التفاؤل والأمل المنشود في إنقاذ البلاد والعباد من شرور المشروع وإحباط المؤامرة في مهدها . قرر أن يتريث في تقديم استقالته وإن غدا لناظره قريب . عاد إلى بيته وأفضى بمكنوناته لزوجته وراحت هي الأخرى تفكر . هل يظل في منصبه أم يقاتل حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا . أم تشجعه على الرحيل . . في النهاية رأت أنه هو المسئول عن قراره ولزمت الصمت المبين . تركته يقلب في بعض الأوراق التي كانت قد وضعتها على المكتب وأخذت التوأم إلى أسرتهم وأوصت سبأ ونشوان أن يخفضا صوت التلفاز . ابنتها أروى ذهبت مع الجدة التي كانت على إطلاع بما يعتري ولدها ، لذا أرادت أن تبعد أروى التي تراها أكثر تعلقاً بوالدها وقد تثقل عليه بأسئلتها هكذا هي حفيدتها إذا رأته مهموماً . .

بكر كعادته في الحضور إلى الوزارة . . جلس خلف مكتبه في انتظار المجهول . تقاطر وصول زملائه الخمسة . سعدوا بحضوره وكعادتهم . راحوا يسخرون ويتندرون بحكايات قديمة وحديثة . فجأة وبلا مقدمات فتح باب الغرفة ودخل النائب وخلفه مدير مكتب الوزير ومعهما «باشكاتب» يحمل ملفا ضخما يبدو وكأنه يضم أهم أوراق الوزارة . دون أن يلتفت نائب الوزير لأحد أو يلقي بتحية الصباح . تقدم من الدكتور وضاح وقد رسم ابتسامة عريضة حاول ألآ تكون باهتة . لكنها كانت باهتة بالفعل وعبرت عن امتقاع وجهه بكل وضوح . قال : «وجدت أنه من الأفضل أن أكون مع اللجنة التي ستسلمها ما بعهدتك . جئت بنفسي لكي يتم التسليم بطريقة حضارية بعيدة عن أي تشنج أو مشاكسة قد يقوم بها هؤلاء الذين يشجعونك على إحداث بلبلة لا داعي لها» .

قبل أن يرد عليه أحد . كان الذي يحمل الملف قد توجه مباشرة نحو مكتب الدكتور وضاح ، وكأن هناك من يوجهه «بالريموت» يتحكم به النائب . . في تلك اللحظة يندفع مدير

مكتب الوزير ويمسك بيد النائب ويجره نحو الدكتور وضاح. ويقول: «ياجماعة. لا تدعوا الأمور التافهة تفشل العمل المشترك بينكما». يرد وضاح: ليس بيننا أي عمل مشترك ولن يكون.

من الحضور من يحاول التدخل. . الأستاذ عبد الباري كان قد أدرك على الفور أن هناك خطة مرسومة من قبل النائب ويجب تنفيذها. وأنه لم يلجأ إلى هذا التصرف الأحمق إلا لشعوره بأن وضاح قد انتصر عليه مرة ثانية وثالثة وأفشل الصفقة ولم يعد هناك إلا الهجوم المباشر. لم يعد يهمه إذا كان وضاح قد وجد بعض التجاوب من قبل مسئولين بأن الصفقة خطيرة وفيها تآمر على الأجيال الحاضرة والقادمة.

وجد النائب أن أفضل وسيلة للنيل من وضاح. هي أن توجه له تهمة وتهمة كبيرة يستحيل النجاة من عقوبتها. . وجد أن عليه القيام بآخر محاولة لاستمالته قبل أن يستفحل الأمر وتلغى الاتفاقية التي صار له عام ونصف يعمل على إبرامها. .

مدير مكتب الوزير أتقن دوره المرسوم تماما، كان لا يزال يجر النائب نحو الدكتور وضاح الذي يشده باليد الأخرى. أما الباشكاتب فقد تصدى له فهيم بشكل تلقائي ومنعه من أن يضع الملف على مكتب وضاح ويبدأ في تنفيذ المهمة الموكلة إليه. قبل أن يفتح الملف ويواجهه بالتهم المزعومة المنسوبة إليه كانت الأوراق قد تطايرت خلال الاشتباك بينه وفهيم.

عمت الفوضى وكاد الممر أن يتحول إلى ساحة معركة غير متكافئة بين فهيم مفتول العضلات والباشكاتب الهزيل الذي صارت عيناه تتطلعان إلى النائب بانتظار إشارته وأوامره.

قبل أن تحتدم المعركة ويدخل فيها بقية السعاة، ما كان من وضاح إلا أن تقدم من النائب بكل هدوء قال له: «أعط الباشكاتب إشارة من إشاراتك الخاصة ليلم أوراقه ويتبعنا إلى مكتب الوزير». .

الدهشة ارتسمت على وجوه الحاضرين عندما كرر الدكتور وضاح ما قام به في السابق عند ما عاد إلى الدور الرابع بعد المقابلة الأولى.

لم يجد وسيلة تنهي المعركة، إلا أن يضع يده في يد النائب ليغادرا المكان في هدوء!

ارتج الموقف على شهود الواقعة، بادر الأستاذ مطهر موظف بالأرشيف قائلا: «تراجع وضاح وتساهله هذه المرة معناه أن يتمادى النائب في غيه».

فهيم الذي صار صدره يعلو ويهبط مع كل زفرة غيظ صامتة. هو الآخر لم يكن يريد أن

تنتهي المعركة بالركلات والصفعات المتلاحقة التي وجهها للباشكاتب لا يهمه المصير المحتوم الذي ينتظره بقدر حيرته أمام السبب المجهول الذي جعل الدكتور ينهي المعركة.

كان قد تجمع في الممر العديد من موظفي الوزارة وحراسها وضباط الأمن صار لا هم لهم سوى معرفة بداية المعركة ونهايتها السريعة التي لم تتح لهم فرصة التدخل وفض الاشتباك.. البقية التي تقف على الحياد. مثل عاملات الهاتف القليلات اللاتي تم حشرهن في حجرة قصية بالدور الأول. كن على علم بما بين النائب والدكتور وضاح لكنهن لم يتوقعن أن يصل الخلاف إلى الدرجة التي تدفع النائب بأن يترك مكتبه في الدور الرابع ويأتي بنفسه يأمرهن بقطع الاتصال بهاتف الوكيل...

ما حدث يحدث في أي وزارة أو مؤسسة حكومية. ولكن ليس إلى هذا الحد الهزلي.

البعض من الذين سبق لهم الاطلاع على ما يدور عللوا التهجم الذي قام به النائب. أن سببه الرئيسي يعود إلى التسامح الذي حدث من قبل الدكتور وضاح بعد المقابلة الأولى مع صاحب اللحية المصبوغة، وبعد ذلك قبوله المشاركة في استقبال الثلاثة الأغراب. اختلفت التكهنات هناك من يقول بأن هذا التراجع من قبل وضاح. ما قام به إلا لأن موقفه هو الأضعف. ومنهم من رأى أنه تصرف بحكمة. من بين كل أولئك الذين شاهدوا المسرحية ومن اشترك في بعض الأدوار من حكم على النائب بالجنون...

الوزير وحده هو الذي تيقن بأن الدكتور وضاح لم يفض المعركة ويصعد إلى الدور الرابع إلا لأنه المنتصر. كان النائب قد أبلغ الوزير بما ينوي القيام به إذا جاء وضاح إلى الوزارة. مدير المكتب برغم خوفه وهلعه أطلع الوزير بما يدبره النائب الوزير، كذلك عندما بلغه النائب بخطته خاف أن يخبره بأنه على علم مسبق. كذلك لم يتدخل أو يحاول منعه. تركه يفعل وينفذ ما يريد. كان على يقين بأن التهم التي يحاول أن يخيف بها وضاح لن تفيد.

طلب منه المشاركة في الهجوم حتى يزيد الإيحاء بخطورة التهم التي ستجعل وضاح يتنازل عن غروره. الوزير بطريقة تبعث على التأمل والأمل نجح في إقناعه بأن مشاركته في الهجوم المباغت، قد يفسد الخطة...

نصحه بالاكتفاء بمدير مكتب الوزير وبالكاتب الذي عاد بعد فشل الهجوم الذي لا ناقة له فيه أو جمل. عاد مع المدير إلى مكاتبهما وكأن ما حدث لا يعنيهما من قريب أو بعيد. كل ما هنالك هو أن الباشكاتب لم يعد يجرؤ على طلب الشاى مخافة أن يأتى به فهيم.

الطريقة التي حزم بها الدكتور وضاح المعركة، والأسلوب المتسامح الذي اتبعه. زاد الوزير

تيقنا بأن كفة الميزان لصالح وضاح . . وأنه لم يتصرف هكذا بتحدّ وشجاعة وبعناد إلا لأن ظهره مسنود بشخصية كبيرة أو جهة مهمة.

في الوقت الذي كان فيه الدكتور وضاح يجلس في الكرسي المقابل للوزير بكل هدوء يثير أعصاب النائب. وكأن الذي حدث ما هو إلا تصرف انفعالي صبياني لا يستحق البحث أو المناقشة . .

كل تفكيره كان في الصفقة ، وكيف تلغى الاتفاقية التي لم يكن يخطر على باله أن أول خيوطها تم نسجها هنا في هذه الوزارة التي لا يخصها الأمر وحدها.

موقف الوزير المتذبذب بين أن يوبخ النائب على تصرفه الأحمق. أو يقدم الاعتذار لوضاح الذي لم تخف عليه حالة التردد التي بانت على محيا الوزير بعد أن راح يوزع نظراته الحائرة القلقة . .

وضاح عاد يسأل نفسه . . كيف انحدر إلى هذا المستوى من الرضوخ لنائبه. تلك النظرات الحائرة التي ينظر بها الوزير، استشف منها وضاح أن الوزير نفسه بحاجة لمن ينتشله من الفخ الذي نصبه النائب الذي لا يتورع عن الترويج في العلن : «أنا الذي وضعته وزيرا».

والشاهد أن النائب له الحق أن يقول أكثر من ذلك. ولمَ لا؟ بعدما أصبح له في كل وزارة أو مؤسسة صهر أو نسيب منتظر المصاهرة. الوزير نفسه وضع ولده في قائمة المنتظرين.

تلك الحالة المتردية للوزير لم تمنع الدكتور وضاح من أن يضع كل الهموم على جنب. وفي حضور النائب يسأل الوزير من جديد. إلى أين وصلت قضية دفن النفايات وما دخل الوزارة في التفاوض في مخطط جهنمي ليس من اختصاصها. قبل أن يفتح الوزير فمه. يقول النائب : «أنت الذي تصوره هكذا».

* أرجوك دعني أستفهم من سعادة الوزير . .

* أنت والوزير لا هم لكما إلا إثارة البلبلة وزرع الشكوك وتعطيل المشاريع . .

* الزم حدودك واحترم الوزير، وإذا لم تحترم مركزه احترم سنه وماضيه ، الذي كان قبل أن يقبل هذا المنصب الذي حوله إلى موظف ينفذ الأوامر. وهو عالم جليل ومناضل له تاريخ . . .

* عدنا للتاريخ وخرافاته.

* أدرك بأن مهمتك وأمثالك هي محو التاريخ وتلويث كل شخصية وطنية . .

* دعك من هذا الهراء الذي تردده وزملاؤك الصعاليك ، أعرف ما تقولون وتدبرون من مؤامرات . .

النائب قال كلماته الأخيرة وانسحب من مكتب الوزير بعد اشتعال الحوار الساخن أدرك فشله في انضمام الوزير إلى صفه بعد أن تمكن سحر وضاح من استمالته، مما دفعه لرفض مقابلة الزوار الثلاثة مرة ثانية. وبرغم ماكان قد همس به الفراش العجوز قبل هجوم النائب. بأن مشروع دفن النفايات قد لا يتم لأن هناك معارضة شديدة بعد أن فاحت رائحته العفنة. إلا أن الدكتور وضاح كان قد علم أيضا عن طريق عاملة الهاتف أن هناك اجتماعا مهما سوف يعقد اليوم في الوزارة بحضور شخصية لها وزن كبير. رغم أن التكهنات تؤكد على أن هناك معارضة شديدة للمشروع إلا أنه لم يطمئن لاحتمالات إيقاف الصفقة التي صارت على وشك التنفيذ. إلا أنه لازال يأمل خيرا في الوزير. على الأقل يرفض حضور الاجتماع المرتقب. وعندما أخبره برغبته في ذلك. ما كان من الوزير بعد أن تأكد بأن النائب قد غادر الوزارة، إلا أن نهض من خلف مكتبه وجلس على الكرسي المقابل للدكتور وضاح وقال: «تعرف يا وضاح أنه لم يكن لي أي علم بهذه الصفقة المريبة إلا في نفس اليوم الذي استقبلتهم فيه، اتصل بي النائب مساء اليوم الذي سبق الاجتماع وأخبرني بأن هناك اجتماعين مهمين في الصباح الباكر وأن عليّ حضورهما. سألته في أي ساعة من الصباح الباكر؟ قال في السابعة والنصف. قلت له. السائق لن يأتي قبل التاسعة. وأضفت. ولكن لابأس سوف يوصلني أحد الأولاد. قال: لا داعي لأحد أولادك، هناك سائق سوف يكون بانتظارك أمام منزلك في السابعة وقفل الخط. فعلا كان السائق يقف على الباب في الموعد الذي ضربه. في الطريق عرفت بأن السائق كان يعمل معه منذ أن كان في الأمن الوطني قبل خمسة عشر عاما. وأنه لازال في خدمته. عند وصولي الوزارة كان النائب قد سبقني في الحضور ووجدته يجلس هنا على الكرسي الذي تجلس عليه الآن. قبل أن يخبرني عن المقابلة المهمة التي حددها. سمعت جلبة غير معهودة في الممر. بدلا من أن يرد عليّ كان يبحث عنك ويرسل الرسول بعد الرسول ليستعجل حضورك. في تلك اللحظة وجدت الشخصية التي أعرفها وطباعها الشريرة. وجدته يدخل علينا وخلفه المرافقين والحرس الخاص بعدها جئت أنت وكان ماكان. .

* ألم يخبرك عن المقابلة الثانية ومن الزوار؟

* صدقني لم يخبرني بشيء عنهم ولا من أين جاءوا ومن يمثلون حتى اتضحت لي الأمور خلال الحديث الذي لم أشترك فيه.

* لماذا تقبل على نفسك هذا وتنسف تاريخك الطويل. لماذا لم تحتج على الأقل؟!

* لا تسألني. .

لم يكن وضاح بحاجة ليشرح له الوزير الحال. أصبح على يقين بأن الذي يجلس أمامه لايختلف كثيرا عن العديد من رجالات البلاد الذين صاروا أشبه بقطع «الشطرنج» يحركها أصحاب المصالح كيف ما يريدون. وجد بأنه ليس أمامه إلا أن يبحث له عن مكان يلتجىء إليه حتى تنقشع الغمامة السوداء حتى لا يتحول هو الآخر إلى قطعة من الشطرنج.. لكنه لا يريد الهروب قبل أن يبطل الصفقة ظل يحدث نفسه ويحاورها.. لو أنني انسحبت وقبلت الهجرة فلن أسامح نفسي ولن أذوق الراحة أينما ذهبت. يستدرك ويراجع نفسه ويقول علي البقاء والمواجهة مهما حدث بعدها يقول: بالتأكيد نائب الوزير سيظل يلاحقني حتى وإن تركت الوزارة..

وفعلا هذا ما يفعله النائب أنه يلفق التهم بسبب وبدون سبب. أما الآن فلن يتورع من أن يصفيه جسدياً. لن يكتفي باصطياد القضايا التي يرى أنه اشترك في حلها ويتهمه بالتحيز للطرف الضعيف. بينما يراها النائب مخالفة للقانون الساري في هذا الزمن الأغبر كما يسميه العديد من المطحونين. تذكر وضاح أن النائب قد يستغل القضية الأخيرة التي رفعتها أرملة ضد أحد أقارب زوجها الذي حرمها وبناتها من الإرث بحجة أن ليس لها أولاد ذكور. وقف وضاح إلى صف الأرملة وأعاد لها وبناتها نصيبهن حسب ما أوصى به الدين الحنيف. لم يسكت الرجل الذي كاد أن يستولي على كل شيء. لولا تدخل الوزارة التي لا يلتزم وكيلها بما جاء في المذهب الذي لا يقر بأن ترث الإناث تركة والدهن المتوفى. جاء من ينصح القريب بنقض الحكم والاستعانة بالنائب الذي ما صدق بأن وضاح هو الذي ساند الأرملة وبناتها. من هنا طول وعرض القضية، وكادت تأخذ سنوات وسنوات لولا أن وضاح تمكن من أن يحسمها في دار القضاء العالي..

كذلك هناك قضايا أخرى قد يستغلها نائب الوزير لأنه كان يراها مخالفة ارتكبها وضاح منها القضية التي منع أحد محامي الدولة وقضاتها الكبار من تنفيذ الحكم الصادر فيها ضد مواطن خالف قانون المرور. عندما لم يسعفه الزحام من إيقاف سيارته جانبا عند مرور موكب شخصية مهمة مما اضطر قائد الموكب لأن يطلع فوق الرصيف ويدوس طفلا في عمر الزهور. كان تلميذ في الصف الرابع الابتدائي لقي حتفه وهو عائد من المدرسة مع أخته التي حمت نفسها بالالتصاق بالسياج، وتهمة أخرى هو أن وضاح أخفى بين أوراقه مستندا يدي امرأة تطاولت على إحدى الشخصيات وأنكرت بأنها تسلمت نصف ثمن دارها منه، رغم أنها بصمت على الورقة التي يخفيها الدكتور وضاح..

وفعلا هذا ما قام به النائب. بعد أن أحس بأن وضاح قد يبطل مشروعه الذي يرى بأنه لن يضر أحدا. على العكس قد يفيد بعض العاطلين أو يحد من تزايد عدد السكان. أقسم النائب

بأن لا يدع وضاح ينجو هذه المرة. عليه أن يقصيه بأي طريقة. وجد بأنه لم يعد أمامه إلا أن يبحث في الأوراق القديمة ما يدين وضاح. على الأقل يتم اتهامه بتعطيل المشاريع التي تعود على البلاد والعباد بالتقدم والرفاهية . . .

يقول لنفسه إذا كان النائب قد وجد ما يتهمه به وبعد بحث وتدقيق في كل الأوراق ولم يجد إلا رسالة أو قصاصة ورق تدينه في قضية مر عليها أكثر من أربع سنوات. فلا خوف من أن يلفق لهَما طازجة جديدة. ربما اتهامه بالمسئولية عن صدور براءة الرجل المتهم بالاشتراك أو التسبب في قتل التلميذ. . كذلك المرأة التي حكم لها بثمن منزلها كاملا، من الذي مارس عليها التهديد واستغل سذاجتها وجهلها بالبيع والشراء. تلك الأحكام لم يكن الدكتور وضاح هو الذي أصدرها بل قاضي محكمة الاستئناف. ولكن بعد أن صار لغط وأخذ ورد ورسائل متبادلة بين الوزارة والمحاكم التي أصدرت تلك الأحكام. رأى النائب بأن يحمل وضاح كل اللوم. لذا عكف على بحث ومراجعة كل ورقة ورسالة من تلك الرسائل المتبادلة بين المحكمة والوزارة. عله يجد ثغرة أو إشارة توحي بأن لوضاح يدا في صدور تلك الأحكام التي تركت بلبلة في الأوساط القضائية. خاصة أولئك الذين كانوا على يقين منذ البداية ببراءة المواطن من تهمة الاشتراك في قتل الطفل . . .

بعد سهر وبحث وتنقيب في ملفات تلك الأحكام من قبل النائب. وجد من ضمنها رسالة من محامي الشخصية التي استولت على منزل المرأة. يقول فيها بأن وكيل الوزارة. أي الدكتور وضاح. كان قد أخفى الوصل الذي يثبت بأنها استلمت نصف ثمن منزلها. فرح النائب بتلك الرسالة أشد الفرح وتصور أنه قد وجد ضالته. لذا يجب البحث عن ذلك الوصل في مكتب الدكتور وضاح. من هنا طرأت له فكرة الاستعانة بمدير مكتب الوزير وبالباشكاتب هذا الرجل الصامت الذي لا عمل له سوى البحث في الملفات وتصوير بعض أوراقها ووضعها بين أوراق خاصة لا أحد يدري لمن ومن الذي يكلفه بذلك. كما أنه لا أحد يعرف ما هي وظيفته بالضبط، ومن الذي وضعه في هذه الوظيفة العشوائية ولماذا يصر على لقب «الباشكاتب»؟ كان قد سبق لأحد الظرفاء وقال إن الدولة العثمانية كانت قد عينته في هذه الوظيفة. وعند خروجهم من اليمن لم يبلغه أحد بنهاية الانتداب . . .

العم يحيى وهذا هو اسمه. رجل صامت بالكاد يرد التحية. يأتي أحيانا في الأيام التي ليس فيها دوام خاصة في العطلات الرسمية هذا ما يقوله ضابط الأمن. ويضيف بأنه عندما يعترضه أحد حراس الأمن. يخرج من الملف الذي يحمله ورقة من النائب تقول بأن له الحق في الحضور في أي وقت. يعطيهم الورقة دون أن ينطق بكلمة أو يفتح فمه! سبق للعم يحيى وعمل في عدة وظائف حكومية، أولها كاتب مع نائب الإمام أحمد في المحويت بعد ذلك

انتقل إلى البيضاء وبالتحديد قرية الخيبة حتى أنه بعد أن جاء إلى تعز كان يعرف عليه بالقول: «الموظف الخيبة الذي جاء من قرية الخيبة» في تعز عمل بنفس الوظيفة كاتبا ولكن هذه المرة مع رئيس الاستئناف. بعدها سافر معه إلى صنعاء. ومن ثم تنقل معه بين مدن كثيرة بينها ذمار. الحديدة. المخادر. إب. حجه. بعدها استقر به المقام في تعز وصار المسؤول الأول عن سجل البريد والتلغراف من وإلى تعز، وهو الذي يحرر البرقيات ويرسلها. بقي في تعز حتى قيام الثورة وتم اعتقاله من ضمن موظفي العهد البائد الذين كان لهم دخل مباشر في ملاحقة الأحرار والزج بهم في السجون أو تسليمهم للإعدام بالسيف. . .

بعد ثلاثة أشهر تمكن العم يحيى من الهروب والتحق بالملكيين في السعودية لكنه لم يمكث طويلا، عاد خلال الحرب وقبل المصالحة واتفاقية السلام التي أنهت الحرب، لكن العم يحيى ظل خائفاً مع أنه لم يكن له دور يذكر. سواء قبل الثورة أو خلال الحرب. بعد عودته ظل فترة طويلة بدون عمل سوى كتابة العرائض لمن يريد أن يقدمها إلى الجهات الحكومية. حتى تمكن أحد معارفه من أن يجد له عملا في مكتب الأشغال العامة. عمل في وزارة الأشغال وظل فترة يعمل في صمت وبكل إخلاص، وفي يوم جاء أحد المقاولين يريد ورقة يخلص بها معاملة بنكية لمبلغ من المال لم يتحصل عليه من وزارة الأشغال. وهناك في مكتب المخالصة بين المقاولين والوزارة تعرف المقاول على العم يحيى. . قال له منذ متى وأنت تعمل كاتبا هنا في مكتب «الشقاة» وأنت الذي كانت مكانتك فوق العامل والحاكم! . وأضاف. بحسن نية أو بغيرها: كيف قبلت هذا العمل المتواضع؟ .

لا أحد يدري كيف التحق بالوزارة التي يعمل فيها الآن كل الذي يعرفونه هو أنه جاء في الوقت الذي تعين النائب قبل عشر سنوات. ومن ثم صار العم يحيى في خدمته ويتلقى منه الأوامر مباشرة. لذا حين بلغه بخطة الهجوم المفاجئ على مكتب وضاح ومن فيه لم يتردد. لكنه خلال الأخذ والرد مع وضاح ومن بصحبته. فشل الباشكاتب في مهمته. كان قد اتفق بعد أن يجد الوصل يضعه في الملف الذي يحمله بعناية. بعد فشل الهجوم وما كان من الدكتور وضاح وتصرفه الحكيم عندما وصف ذلك الغزو أو الهجوم بأنه تصرف صبياني. ثم وسط دهشة الجميع توجه إلى الدور الرابع مع النائب ومدير مكتب الوزير، وذلك الباشكاتب الذي كان يلملم أوراقه وهو ينظر شزرا لفهيم الذي كاد أن يقذف به في الهواء، كما طارت الأوراق من داخل الملف. .

الدكتور وضاح بعد الهجوم الغريب وصعوده مع النائب والحديث المطول مع الوزير الذي لا حول ولا قوة له. وجد بأن لا فائدة من تضييع الوقت، وأن من الأفضل أن يترك الوزير يعاني من خيبته لوحده، وذلك بعد أن قام وضاح بتحليل الموقف بطريقته المعهودة. . وجد أن

من الواجب عليه أن يقوم بالمحاولة الأخيرة عله يتمكن من أن يلغي المشروع الخطير ويبطل الاتفاقية التي قد تؤدي إلى كارثة بيئية . . .

ترك الدور الرابع وعاد إلى مكتبه . كانت أخبار الاجتماع مع الوزير قد سبقت عودته . لم يدخل على زملائه إلا وهبوا جميعا في وجهه . منهم الذي يقول له لماذا تصبر على الحماقات وتتحمل الإهانات التي وصلت إلى الحد الذي جعلهم يشدوك بربطة عنقك! هل يمكن أن تشرح لنا ماهي النقطة السوداء في سجل حياتك وعملك القانوني . كيف تتسامح هكذا وتذعن إلى هذه الدرجة؟! كلهم يتحدثون في وقت واحد ويوجهون اللوم والعتاب القاسي . الأستاذ عبد الباري أراد أن يستفزه ويعيده إلى ثورة الأمس . لم يجد إلا أن يقول له : «نحن لن نسمح لك أن تضيع حقوقنا مع حقوقك . .

* أي حقوق أضعتها عليكم؟ أنتم الذين أضعتموها قبلتم على أنفسكم هذا الوضع الذي حولكم من محامين وقضاة يشار لهم بالبنان ، إلى فرقة من المهرجين .

* مهرجون . مهرجون . لكننا لم نتعرض لما تعرضت له يا دكتور . أما بخصوص إبعادنا عن ممارسة الأعمال التي هي في مجال تخصصنا . وتكديسنا في هذا المكتب . لا تقلق . الوقت في صالحنا بالتأكيد .

أهــل الكهــف

هكذا ظل وضاح يتابع في رأسه الهموم وهو في حيرته وتساؤله بين البقاء حتى يتأكد بأن الصفقة قد ألغيت فعلاً أو الرحيل .

ترك زملاءه وحماسهم وثورتهم غير المسبوقة وتوجه نحو باب الخروج وكله أمل بأن يتمكن من أن يلغي الصفقة . أخذ عهدا على نفسه ، وهو أنه لن يترك البلاد إلا بعد أن تلغى تماما .

وهو يقطع المسافة بين باب الوزارة والمكان الذي يركن سيارته ، يتذكر العديد من أصحاب القضايا الذين كان يلتقيهم ، وكل واحد منهم له أمل في هذا الوكيل الذي لن يرده خائباً يحز في نفسه تركهم ، ضحك الدكتور وضاح عندما تذكر ذلك الرجل الذي أوقفه ليخبره بأنه شاهده على شاشة التليفزيون مع ذلك المذيع البارع الذي كان يوجه له أسئلته الصعبة .

قال له : «إجاباتك كانت تعبر عن كل ما يجيش في صدورنا . كانت صريحة وواضحة مما طمأننا بأن القضاء بخير . .

في مرة من المرات استوقفه أحد أصحاب القضايا على باب الوزارة . أراد استفساره في مسألة قانونية وظل يرافقه ويوجه له الأسئلة وهو يجيب عليه ، رآه يتوجه نحو سيارة صغيرة وقديمة ويفتح بابها . ألجمته المفاجأة . سأله بدهشة . هذه سيارتك يا دكتور ! ؟

* نعم سيارتي والدليل على ذلك أنك تراني وأنا أفتح بابها . .

* لا أصدق . بأن هذه سيارتك . إلا إذا كنت من أولئك الذين يخافون الحسد !

تركه الدكتور وضاح بعد أن وعده بأن يرد على بقية استفساره في وقت آخر ، واستأذنه ومضى وهو يتأمل سيارته في غبطة لأنها تؤدي واجبها على أحسن وجه ، تذكر ذلك وقال إذا كان ولابد أن يسافر أو يهاجر أو يهرب . لن يهبها إلا لمن يعرف قيمتها ولا يفرط فيها . لم يكن يهمه . حديث بعض زملائه من أساتذه الجامعة عن سياراتهم الحديثة . قناعته العميقة بالاكتفاء بما لديه ، كانت تصدهم وتجهض كل محاولاتهم . لجعله يغير من الأسلوب الذي يتبعه في نمط حياته المتواضعة هكذا هو . بداخله شيء يجعله يحس بأن كل متع الحياة هي قناعة النفس . لم يكن يخاف من تقلبات الزمن أو يداخله الشك بأن هناك من يستطيع أن يؤذيه إذا تمسك بالوفاء حتى التهديدات المبطنة التي كانت تأتيه من حين لآخر ، لم تهز شعرة واحدة في رأسه . في طريق العودة إلى بيته ، ظل يفكر ويفكر ويطرح علي نفسه السؤال تلو السؤال لعله يجد تفسيرا لحاله الاختلالات المتسارعة في القضاء على القيم والمباديء التي يؤمن بمصداقيتها . وجد أن عليه أن يحسم الأمر إما أن يرحل سريعا أو البحث عن العيب ، هل هو فيه أم في الزمن ومتغيراته الغارمة التي غابت عنه ، كما لو أنه من «أهل الكهف» قبل حديث الصفقة . لم تكن تهتز له شعرة . . بعد الحديث الذي تم في المقابلة التي قلبت كيانه رأسا على عقب . جعلته يكفر بالديموقراطية بعد أن تحولت ديكورا لمسرحية هزلية . اكتشف أن معظم ما كان يأمل ويتوقع ، أصبح هراءً في هراء . وجد أن تلك الأيام التي كان يشكو المواطن منها ومن قساوتها خلال الحرب والجفاف وقلة الدخل كانت أرحم . كان هناك تعاون وصدق بين الناس ورغبة في البناء والعمل المشترك . كان هناك قانون يسري على الكل ، وكانت هناك أخلاق وقيم تردع عن الجرائم التي يراها ترتكب اليوم وتنشر الخوف وعدم الأمن . لم يكن هذا الإهمال والتسيب الظاهر الذي قد دب في كل إدارة حكومية . لم يكن هذا الكم من الطمع والنهم لجمع المال بأي وسيلة وأي طريقة ؛ حتى وإن كانت على حساب الكرامة وإهدار حقوق الوطن والمواطن . . الإهدار الذي جعل العديد يترحمون علي السنوات الأولى التي أعقبت الثورة . برغم شح الدخل لم تكن هناك معونات من الأشقاء أو مساعدات البنك الدولي أو أي دخل بترولي يذكر . . .

يعز على الدكتور وضاح ويدمى فؤاده عندما يدفع الحال بالبعض إلى حد الادعاء بأن حكم الإمام وما كان فيه من طغيان لا يقارن بما يحدث اليوم من خطف وقتل. من هنا نذكر شهادة رجل طاعن في السن. قال: «علي أيامنا كان هناك احترام للدولة والنظام والقانون، إن الإمام يحيى علي سبيل المثال كان يأتي بالقاتل أو الخارج عن القانون بعسكري واحد. حتي ولو كان في أطراف الحدود يأتي به ليمثل أمام القانون ويأخذ الجزاء الذي يستحقه، إما الإعدام بالسيف أو السجن المؤبد في القلعة، «قصر غمدان سابقاً» لم يكن يفلت من العقاب أي مخالف لشرع الله مهما كان مركزه وقرابته من أي مسؤول. القانون هو القانون. نعم كانت تحدث بعض التجاوزات ولكن لم يكن هذا الفساد والاستهتار والإسفاف بالمواطن والاستخفاف به وبحقوقه وإنسانيته».

أيضا يتذكر وضاح القصة التي روتها له والدته عن المرأة التي كان قد استولى عساكر الإمام على بقرتها، فما كان منها إلا أن توجهت إلى مقام الإمام وشكت عساكره، وحين أتت المقام وأصرت على مقابلة الإمام والشكوى بين يديه، كان قد سبق لعساكره ودسوا له بأنها تجمع السمن وترسله للأحرار في عدن! بعد أن أوعز صدره بما نقل إليه نهرها، قائلا: «اذهبي يا عاصية والديك».

عندما سمعته ينعتها بعاصية والديها. قالت: «أمرك لله يا أحمد بيني وبينك يوم القيامة»..

فلم يكن من الإمام إلا أن دعاها وألزم عساكره برد بقرتها إليها..

اليوم لم يعد هناك من الشرفاء من يطالب بوضع أفضل مما كان عليه الحال في الأيام الخوالي. صاروا ينشدون القيم والأخلاق التي غرست في أبناء الوطن منذ القدم.

صار هناك العديد ممن يقول لم يعد يهمنا تفشي الرشوة والفساد بقدر ما يهمنا المحافظة على القيم التي غرست وترعرعت منذ آلاف السنين باعتبارها السياج الواقي من الأخطاء والخطايا. إنه لشيء خطير أن نراها اليوم وقد انهارت أو تزعزعت، برغم أن كل الكتب المدرسية، الدينية والتاريخية تحث على التمسك بالقيم. وبرغم انتشار المدارس والمعاهد الدينية التي انتشرت بكثرة والجامعات إلا أنها فشلت في استعادة القيم الأصيلة التي عاشر عليها الشعب قرونا طويلة. اليوم حلت مكانها المصالح الشخصية والأسرية والقبلية بنعراتها وثاراتها وتعصباتها الجاهلية رغم مضي ٤٠ عاما على الثورة..

يأتي الدكتور وضاح أحد الأساتذة الكبار في كلية الشريعة يقول له: «من الصعب جـ السير على نهج الديموقراطية الصحيحة في مجتمع صار أكثر تمسكا برواسب الماضي في وض

الأقارب والأنساب في المناصب العليا» . حين احتد النقاش بينهما حول المناصب التي صارت حكرا على أسر بعينها . يتدخل عميد الكلية ويقول : « لا بعض المناصب تترك لشخصيات لها سمعتها ووزنها في المجتمع ، أو لأنها من منطقة لا يمثلها أحد في الدولة . مثل تعيين محافظ أو عضو مجلس أو وزير . لكن على شرط أن يوضع في المؤسسة التي يرأسها أو الوزارة . وكيل أو نائب له سلطة ومكانة أهم من الوزير مثلما هو وضع وزيرك المغلوب على أمره» العميد الذي أنهى النقاش كان قد أوحى له خلال أحد التشكيلات الوزارية بأنه سيصبح وزيرا . لم يأخذ المسألة مأخذ الجد كما أخذها بعض أصدقائه الذين علموا بالمكالمة . ظلوا يتابعون أخبار التشكيل الوزاري الجديد . ولم يسمعوا اسمه . بعدها يأتي الذي وعد بكرسي الوزارة ويقول بأن استبعاده تم في آخر لحظة برغم كفاءته ومقدرته على تسيير العمل في الوزارة على أحسن وجه خاصة وهي الوزارة التي دخلها من الثروة السمكية يساوي دخل البترول إن لم يكن أكثر ، إذا كان على رأسها وزير في كفاءة ونزاهة صاحبهم الذي استبعد لثلاثة أسباب . السبب الأول : هو أنه ليس من «المخلصين» . والثاني : والثالث : لا يتمتع بأي نفوذ حزبي أو قبلي . .

هكذا تسير الأمور التي يريد وضاح أن يغيرها أو كان يريد قبل أن تهتز ثوابته وتتبخر أحلامه ويفكر في الرحيل . في الماضي كل نذر العواصف التي كان يراها تتجمع في أفق حياته وتقوضها ، لم يكن يهتم بها . المصير الغامض الذي كان يقال له بأنه يتربص به . لم يكن يعمل له أي حساب . بعد الموقف الذي اتخذه من الصفقة التي يصر على إبطالها . كان عليه أن يواجه ألوانا من التخويف والتهديد . بل وصل الأمر أن يلفت نظره عميد كلية الطب ووصل به الأمر إلى أن يقول له بأن هناك من يترصد له ويكيد له كيداً . وإذا لم يتعاون أو يرحل قد تتم تصفيته جسدياً . .

شاع الخبر مما دفع صديق آخر يعمل في وزارة التخطيط . أن يأتيه ليلا ويحذره قائلا : «وضاح . قد لا تدري من أين سوف تأتيك الصفعة التي قد تقضي على سمعتك ومستقبلك وأولادك . بل وقد تقضي على حياتك عن طريق سيارة يقودها شاب متهور ، أو عن طريق أنبوب غاز يأتي بحريق يقضي عليك وعلى أسرتك» .

برغم قلقه وخوفه على أولاده وأسرته من الخطر الذي ينخر في جدار الأمان داخله ، إلا أنه لم يهتز أو يجعل طمأنينته تتداعى بسبب التحذيرات التي تأتيه بشتى الصيغ والصور . لم يضع للخطر الماثل أمامه أي حساب . ظن أن الأمر كله مجرد تهويش . . عدل عن فكرة السفر التي كان يسميها هروبا . أصر على البقاء إلى أن يتأكد بأن الصفقة تم إلغاؤها فعلاً ، وأن النفايات لن تدفن في أي جزء من اليمن . .

حتى بعد أن صارت التهديدات علنية، وأنه إذا لم يتعاون أو يرحل. سوف يلقى المصير الذي لقيه غيره وغيره. لم يأبه. ظل متماسكاً بموقفه وخياراته التي أبعد من بينها خيار الهروب. ظل مصمما أن لا يترك قبل أن تلغي الصفقة المشبوهة على الأقل.

العروض المغرية لازالت تنهال عليه ليعمل في الخارج. حتى أنه قبل اليوم العصيب كان قد نقل إليه من قبل الآنسة صفية عاملة الهاتف فحوى مكالمة أتت من الجامعة التي كان يدرس بها تحثه على العودة للعمل بعقد جديد وبالشروط التي يضعها. لم يعر العرض أدنى اهتمام. كان قد تلقى منذ ثلاث سنوات رسالة مسجلة بنفس المعنى ورد عليها معتذرا عن تلبية العرض الذي رد عليه بأن بلده في حاجة إليه بعد حصوله على الدكتوراه. كان سعيدا راضيا. شهرته في القانون الدولي، مع شهادة الليسانس في الفلسفة اليونانية. كتبه تنفد بعد وقت قصير ويحثه الناشر على المضي في نشر كتب جديدة، كل ذلك كان يشجعه على مزيد من العطاء والتضحية بكل المغريات، طالما أن هناك نتيجة ملموسة. خاصة بعد أن حقق مكانة أكاديمية عبر منازلاته الفكرية التي كانت تدحض وجهات نظر مخالفيه والتفاف الطلبة حوله ومناشدته ليشرف على أبحاثهم رسائل الماجستير والدكتوراه، فكان ذلك استفتاء على نهجه وأسلوبه في التعليم. كل هذا كان يجعله يطمئن بأنه يسير في الطريق الصحيح، وأن النائب الذي يضمر السوء منذ انتشار إشاعة تعيينه نائبا للوزير بل وربما من قبلها. كان وضاح يتعدى كل ذلك. حتى كانت مقابلة الأغراب الثلاثة. فتحطمت ثقته على صخرة ألاعيب النائب الملتوية. ثقته تحطمت بكل شيء وبنفسه وقدراته على الوقوف والتصدي تزعزعت وتحولت إلى انكسار لاحدود له. زفر تنهيدة حارة.. يا الله.. ماذا جنيت حتى تسود الدنيا في وجهي!؟ استفاق من كوابيس أفكاره وهوسه.. كانت سيارته قد وصلت أمام منزله.. غادرها يجر أذيال الإحباط إلى الداخل.. استقبلته والدته. لم تكن زوجته قد وصلت بعد من العمل.

والدته هي الأخرى تعاني مما يعاني قلقها على ولدها والمصير المجهول الذي ينتظره إذا عاد للغربة من جديد. إلا أن خوفها على حياته إذا بقي هنا. جعلها تشجعه على السفر وتدفعه لقبول الإعارة أو العودة إلى التدريس بالجامعة التي تطلبه حثيثاً.. منذ أن علمت بخلافه الجديد مع نائب الوزير، وبتخلي أصدقائه عنه صارت تصطحب أروى معها إلى منزل الأسرة لم تعد تتركها يوما واحدا مخافة من أن تختلي فيه بوالدها وتؤثر عليه ويغير رأيه ويلغي السفر..

فشلت محاولة والدته وأصبح أكثر تصميما على المواجهة والتصدي للعبث حتى وإن تخلى عنه الكل. لم تكن تتوقع بأنها سوف تراه بهذا الشكل من الكدر والحزن الذي لم تعهده من قبل. تسأله ما الذي جد معه ولماذا يبدو على هذا الحال؟ يرد عليها مجرد إجهاد من

العمل . . تقول له : «هل أعد لك كوبا من الشاي أو عصير الليمون؟» يقول : «أي حاجة» وهو سارح بفكره في من يمكنه الاستعانة به من المسؤولين . من منهم الذي سيقف وقفة شرف وبحس وطني ويتعاون على إبطال الصفقة الخطيرة؟ . .

الكـــلاب المســـعورة

يتذكر محنة زميله وصديقه الدكتور نشوان مع الكلاب المسعورة. كان وكيلا مثله عندما واجه المحنة . لم يفشل مثله فشلا كلياً . لقد حقق بعض النصر لأن الوزارة التي كان وكيلها لم تكن وزارة تهتم بالقوانين وسنها ومتابعة الخارجين عنها وتقديمهم للعدالة . وزارة صديقة مهمتها المواطن الفقير وصحته الذي ليس معه ما يحمله للتطبيب في الخارج . لذا تمكن زميله من أن يحقق بعض النصر ويقضي على الكلاب المسعورة من فصيلة الحيوان . لكنه فشل مع التي هي من فصيلة الإنسان . . لازال يحاول وسوف ينجح لا محالة. الدكتور وضاح أطلق على أحد أولاده اسمه متمنياً أن يكون لنشوان الصغير نفس صفات زميله وصديقه الغيور على مصالح الوطن وصحة المواطن. وضاح ونشوان يعرفان بعضهما من مدرسة عبد الناصر الثانوية. لم تنقطع صلاتهما كلياً حتى بعد أن اختار الأول دراسة القانون والثاني الطب البشري. ظلا على تواصل ويتابعان أخبار بعضهم البعض. عاد الثاني من البعثة قبل الأول ومارس مهنته، طبيب باطني في المستشفى الجمهوري وتزوج من قريبة له تعمل في وزارة الخارجية . وكانت من ضمن من رشحن للعمل في السلك الدبلوماسي بإحدى السفارات في الخارج . لكنها تنازلت عن الترشيح لصالح زميلة أخرى وفضلت البقاء بجانب زوجها الذي فتح عيادة مع طبيب آخر تخصصه أمراض نساء وولادة، وكان ذلك الزميل الذي يشاركه في العيادة قد تزوج خلال الدراسة من أجنبية درست التمريض، وهي التي تدير العيادة وتأخذ مواعيد الزيارات للاثنين. مما وفر على الدكتور نشوان دفع مرتب كامل لممرضة. لم يكن يشتكي من وضعه حتى بعد أن اضطر لترك العيادة بقرار جمهوري حسده الكثيرون عليه . ترك العيادة وما تدره عليه من دخل. لأنه تعين وكيلا لوزارة الصحة. . .

الدكتور وضاح تأخر في العودة لم يعد مباشرة بعد نيله الدكتوراه في القانون الدولي . لم يصله التعيين في الجامعة إلا وقد استهوته مواصلة دراسة الفلسفة، وبالذات فلسفة «هدجر» بعد أن كان قد درس الفلسفة اليونانية . . تجددت الصلات بينه وبين الدكتور نشوان منذ أن عاد وضاح بعد تعاقده مع جامعة صنعاء وقبل أن يعمل في الدوائر القانونية التابعة للوزارة التي يعمل بها الآن بدرجة وكيل. هذا المنصب الذي كلفه الكثير من حرق الأعصاب . وقد يكلفه حياته . . .

منذ سنوات جاءه الدكتور نشوان الذي كان يعمل آن ذاك وكيلا لوزارة الصحة جاء

مستغيثاً به، عله يتمكن من مساعدته للقضاء على الكلاب المسعورة. يتذكر وضاح كل كلمة وحرف من حكاية صديقه مع الكلاب المسعورة.. قال الدكتور نشوان أن بداية القصة كانت عندما بلغه أحد الأطباء في مستشفى الثورة بأن هناك حالة مرضية غريبة أصابت أحد المواطنين ويشك بأنها حالة خطيرة من حالات الصرع. قال: توجهت على الفور إلى المستشفى وهناك عرفت بأن حالة المريض سببها عضة من عضات الكلاب المسعورة. لم أتمكن من عمل شيء غير التوصية بحقنه بالمهدئات. لأن الأمصال معدومة. حتى وإن وجدت فلن تنفعه. عدت للوزارة أبحث عن الجهة التي يمكن أن تساعدنا في الحصول على الأمصال وبأسرع وقت لأني كنت على يقين بأن الكلب المسعور الذي عض المواطن لا يزال طليقاً، اتصلت بمعظم الصيدليات وأكثر من جهة في محاولة لإيجاد الدواء. فشلت في كل محاولاتي مع الجهات والسلطات المعنية..

قال الدكتور نشوان: بعد أن فشلت في إيجاد الأمصال الواقية. وجدت أنه لم يعد أمامي إلا الاستغاثة بالبلدية، وكان هذا الحوار: «آلو.. السلام عليكم.. البلدية؟

* نعم. من؟

- معك الدكتور نشوان.

- نشوان من؟!

- أنا الدكتور نشوان وكيل وزارة الصحة..

- مالك!

- ممكن أكلم الوكيل..

- أي وكيل؟

- وكيل البلدية لو تكرمت..

- أنت قلت بأنك الوكيل!

- أنا وكيل وزارة الصحة. أطلب منك أن توصلني بوكيل البلدية رجاءً..

- مش موجود..

- أوصلني بنائب الوزير من فضلك..

- خرج ولم يعد..

ـ أوصلني بالوزير المسألة مهمة. هناك كارثة يجب تلافيها وبأسرع وقت . .

ـ الوزير في اجتماع مع رئيس الوزراء . .

ـ طيب مدير مكتب الوزير . .

ـ الوكيل خرج مع الوزير، عفواً قلت لي من أنت؟

ـ أنا الدكتور نشوان وكيل وزارة الصحة . أرجوك أوصلني بأي مسئول . .

ـ لا يوجد أحد هنا غيري . .

ـ لا يوجد أحد غيرك في البلدية؟! متى ينتهي الدوام عندكم؟ .

ـ الدوام عندنا مثل الدوام في كل الوزارات والمؤسسات الحكومية . .

ـ ولكنك تقول لا يوجد أي موظف في مكتبه مع أن الساعة لم تتجاوز الحادية عشرة . .

ـ ما نسوي هكذا عندما يحين موعد شراء القات تخلى معظم المكاتب من الموظفين . .

ـ كلهم غادروا مكاتبهم! لا يوجد أي مسئول أو موظف في البلدية؟ .

ـ آخر مسئول خرج الآن لشراء القات . .

ـ وهذه المصيبة الثانية . .

ـ أي مصيبة يا دكتور مالك صلي على النبي . .

ـ لاشيء . لا شيء . شكراً مع السلامة . .

قال الدكتور نشوان لم يكن منه إلا أن ينهي المكالمة بعد وجد بأن لا فائدة من البلدية . دخل عليه أحد الدكاترة وأخبره بوصول الحالة الثالثة، وأن المصاب في حالة خطرة، ويجب التصرف وبسرعة قبل أن تستفحل الحالة وتنتشر مثل انتشار النار في الهشيم . .

هم أن يسأل عن عمر المصاب والحالة، ولكنه عدل عن السؤال إذ لا فرق .

الطبيب الذي كشف على المصاب الجديد بحث عن الدكتور نشوان لسرعة التصرف .

يقول له في الهاتف: انقلوا المصاب إلى مستشفى الثورة وسوف ألحق به بعد أن أتمكن من أعثر على الوزير . .

في صوت واحد يقول الطبيب ومساعده: «لا توجد أمصال في الثورة» .

ـ أعرف لذا يتم نقله إلى المستشفى العسكري قسم الحوادث . .

ـ العسكري كذلك خال من الأمصال وقد تخابرنا مع الطبيب المستلم وأخبرنا بأن حالة مماثلة وصلت منتصف ليلة أمس وتوفيت قبل ساعة ولا يوجد هناك أي دواء . . يعود الدكتور نشوان إلى الكرسي خلف مكتبه ، ويشعر بأن الكرسي هو الذي وضع فوق صدره . هب واقفاً وهو يبحث عن وسيلة تساعده على القيام بمهمته وأي مستشفى لديه استعداد لهذه الحالات . يكلف موظف ليستفسر إذا كان قد وصل وزير الصحة . .

يجيبه الموظف بتهكم وبكل سخرية وهو في نفس الوقت يستغرب اهتمام هذا الطبيب الشاب الذي يريد أن يغير نمط الوزارة وباعها الطويل ، بل ويريد إصلاح جميع الوزارات! يقول له : هل نسيت مواعيد الوزير ومتى يحضر؟! خفف على نفسك وعلينا ، أتعبتنا يا دكتور وأتعبت نفسك بدون فائدة . .

يضرب الهاتف الرابض على مكتبه . يلتقط السماعة بلهفة لاعتقاده بأن طالبه وكيل البلدية . الذي يرى بأن لا حل للكارثة إلا البلدية وأمانة العاصمة . .

خاب أمله . الطالب كان من مستشفى الثورة . يخبره بوصول حالات ثلاث دفعة واحدة . . يحاول إعادة الاتصال بالبلدية . لا أحد يرد . . يطلب أمانة العاصمة . الخطوط كلها مشغولة . يغادر مكتبه على عجل ليلحق بالمصاب الذي أمر بنقله إلى مستشفى الثورة العام . . ساعة الزحام والتوقف الفجائي عند المطبات . جعله يصل المستشفى بعد أن كان المريض قد فارق الحياة . يخبره الطبيب المستلم بأنه لم يصل إلا وهو في النزع الأخير . ويضيف حتى لو تم إدخاله غرفة العناية المركزة لن تكتب له الحياة . لأنه لا يوجد فيها أي دواء يمكن تقديمه . .

يسمعون صراخا في الردهة . سيدة تحمل ولدها وتنادي على الأطباء ليسعفوه وينقذوه من الموت بعد أن تشنجت أعصابه وهو لا يزال يئن وتصدر منه أصوات تشبه لعواء الكلاب . يهرع الدكتور نشوان ومن كان معه من الأطباء . لا فائدة الأم والولد في حالة واحدة . . يكشف على الولد الذي يبدو أنه في الثانية عشرة من عمره . وإذا لم يتم إسعافه سيلاقي مصير الذي سبقه منذ دقائق . .

تم وضع المصاب على سرير الكشف وبسرعة أعطيت له إبرة مخففة للألم . بعد أن خف هذيانه ، تركه الدكتور نشوان ومر على بقية المصابين بنفس الداء ولا يجد لهم دواء غير المسكنات . ترك مستشفى الثورة وتوجه نحو المستشفى العسكري ، على أمل أن يجد مكانا أو علاجا . فكر أن يأخذ الخط الدائري واتجه نحوه بالفعل ، وجد بدايته مزدحمة بالباعة والكلاب الضالة تتجول حولهم بكل حرية والتلاميذ على وشك مغادرة مدارسهم ، وقد تعترضهم تلك الكلاب المسعورة التي تسرح وتمرح في كل مكان ولا أحد يعترضها . .

حول وجهته نحو السائلة عن طريق باب اليمن. نفس الزحام، خاصة العربات التي فتحت مؤخرتها لبيع القات في تلك الساعة المزدحمة والحاسمة لشرائه في الظهيرة، برغم حرارة الشمس ووهجها الذي يشوي الوجوه في ذلك اليوم المضطرب من أيام الصيف الحار. لاحظ نشوان أن بعض تلك العربات التي تقف على جانب الطريق وتبيع القات، تحمل أرقاماً عسكرية! . وجد صعوبة في عبور السائلة. العمل بها في بدايته برغم مرور سنوات وسنوات على بدء العمل!

غير وجهته للمرة الثالثة نحو شارع علي عبد المغني. وهو يقف في الإشارة سمع من يناديه من الاتجاه المعاكس. من بين تلك الأصوات المتداخلة وصراخ الباعة حاول أن يسمع ما يريد ذلك الشخص الذي لا يتذكر اسمه في تلك اللحظة ولماذا يناديه. لم يجد أمامه إلا أن يحاول أن يفهمه بالإشارات ليكلمه في الهاتف إلى منزله بعد ساعة. .

واصل طريقه إلى المستشفى العسكري الذي وصله بعد أن غادر معظم الأطباء. لم يجد إلا بعض الممرضين الذين أخبروه بأربع حالات مصابة بنفس الداء. .

وجدهم ثلاثة أطفال مختلفو الأعمار، وقد تم حقنهم بالإبر المهدئة، وامرأة مسنة لم تفلح معها المهدئات لازالت تهذي وتقول «الكلاب. الكلاب» وتنتفض. . .

أظلمت الدنيا في وجه الدكتور نشوان حين واجه العجز الكامل في إنقاذ مريض واحد. ترك المستشفى العسكري وهو يضرب كفاً بكف ولا يدري ما يمكنه عمله. .

ركب عربته وتوجه نحو منزله عله يتمكن من الاتصال بوزير الصحة وبالجهات المختصة. تفادى المرور من شارع القيادة وفضل خوض الطريق من السائلة برغم خوفه من المطبات المليئة بالأكياس والعلب البلاستيكية الفارغة، وقد دفعت بها الرياح من الحواري والأزقة وألقت بها في السائلة التي لم يعد لها منفذ ولم تعد الأمطار غزيرة كما كانت. لم تعد تلك السيول التي كانت تأتي إلى السائلة من الجبال والأودية المجاورة وتسحب وتجرف أي شيء في طريقها. .

يتذكر الدكتور نشوان طفولته في الطبري وترقبه وصول السَّيل، كان وأقرانه يتنادون من النوافذ الصغيرة، بعد توقف الأمطار ويشجعون بعضهم البعض على النزول إلى الشارع والتفرج من بعيد على المجرة وهي تدفع أمامها الأشجار الصغيرة وكل ما يصادفها. . الدكتور نشوان لا زال يعيش مع زوجته وأطفاله الثلاثة في منزل يقع في حارة من الحواري المكتظة في بستان السلطان. إنه المنزل الوحيد الذي يملكه مع أخوته الخمسة. تمكن بعضهم من بناء مساكن جديدة والانتقال إليها، أما نشوان فقد ظل في مسكن الأسرة ويشاركه أحد أخوته الصغار الذي لم يتخرج بعد.

لم يكن نشوان يستجيب أو يستمع لتبرم زوجته وشكواها من ضيق المنزل . . حتى وإن استمع لن يتمكن من تلبية طلبها، برغم مركزه والمرتب الذي يتقاضاه وهو وكيل وزارة الصحة . .

أحياناً تمسك به زوجته وتلومه لأنه ترك العيادة التي كان دخلها يفوق مرتبه من وزارة الصحة بل يفوق مرتب الوزير نفسه . . يتركها بعد أن يجبر بخاطرها ويعدها بتحسن الأحوال . .

قبل أن تتركه يغادر، تقول له : «هل تريد القول بأن العمل في عيادة خاصة حرام ويتعارض مع العمل في الوزارة»؟!

ـ لا أنا لم أقل إن العمل في عيادة خاصة حرام . لكنه قد يشغلني عن زيارات المرضى التي أقوم بها بعد الدوام في الوزارة . .

ـ قم بزيارة المستشفيات في الصباح . أليس ذلك من ضمن الدوام ومن صميم العمل؟

ـ لا أستطيع ترك الوزارة خلال الدوام . .

ـ وأولئك الذين يتعاطون القات هل يداومون بعد الظهر مثلك؟

ـ نعم يداومون بعض الأحيان .

ـ بعض الأحيان أما أنت فيومياً!

ـ مع الأسف . وزارتنا لا تهتم بالحضور أو الغياب . مثلها مثل معظم الدوائر الحكومية التي لا يلتزم موظفوها بالدوام ويتخذون من رؤسائهم قدوة . لذلك أحرص على التواجد في الوزارة من بداية الدوام إلى نهايته، وبعد الظهر أزور المستشفيات لتشجيع الأطباء ولكي لا يشعرون بأن الآخرين في مجالس القات الذي تعبت من تكرار الحديث عن أضراره . ناشدت الأطباء أن يمتنعوا عن تعاطيه ويكونوا القدوة الصالحة في المجتمع . . .

ـ مالك ومالي ومال القات ومن يتعاطاه! كل الذي أريده هو أن تعيد التفكير في العودة للعمل بعد الظهر في العيادة مع صاحبك وزوجته، وتكتفي بالزيارات التي تقوم بها في المساء للمستشفيات . .

ـ من المستحيل أن أوفق بين عملين . .

ـ لا وأنت الصادق . أنت الآن تقوم بثلاثة أعمال . الصباح في الوزارة وبعد الظهر والمساء في المستشفيات . ومع هذا مرتبك هو هو لم يتغير! ترى هل هناك أمل في زيادة مرتبك؟ أو على الأقل هناك من يقدر مجهودك في الوزارة!؟

ـ المرتب إذا تصرفنا بحكمة وعدم تبذير سيكفينا. أما تقديري على عمل من واجبي القيام به على أحسن وجه. فلا أعتقد بأني بحاجة لشهادة تقدير من أحد. كل الذي يهمني هو أن يكون هناك تعاون خاصة في هذه الحالة الطارئة التي تفشت فيها الكلاب المسعورة، ونشرت داؤها بين المواطنين ونحن لا نجد الأمصال الواقية. إن جئت للحقيقة تعبت من العمل في الوزارة. . .

ـ إذًا. لماذا لا تتركها وتفتح عيادة جديدة وترتاح من الكلاب المسعورة ومن العمل الحكومي ووجع الدماغ؟. .

ـ بعد أن أتمكن من القضاء على داء الكلب سأفكر في ترك الوزارة. .

الدكتور نشوان درس الطب في جامعة عين شمس بالقاهرة تخصصه الأول كان في الأمراض الباطنية بعد دراسة ثماني سنوات في القاهرة. . سافر إلى بريطانيا بمنحة دراسية من وزارة الصحة التي حفظ لها الجميل. في بريطانيا التحق بجامعة «إكس فورد» وتخصص في جراحة الأعصاب تخرج بعد أربع سنوات وأخذ زمالة الجراحين البريطانيين. . بعد التخرج عاد مباشرة. مع أنه هو الآخر مثل الدكتور وضاح كانت تأتيه عروض مغرية للعمل في الخارج. مما دفع برئيس الجامعة وهو يمنحه الشهادة التي نالها بتفوق. أن قال له: «على ما يبدو بأن الدارسين الذين يأتون من العالم الثالث، هم الذين يكونون من أوائل المتفوقين. وتأتيهم العروض من كل مكان. . لكن الدكتور نشوان رفض العروض المغرية وفضل العودة إلى بلاده التي أهنتها به وأهنته». .

عودة الدكتور نشوان كانت دوافعها ثلاثة وعود. أولها: الوعد الذي وعده لوالدته بعد تخرجه من الثانوية بدرجات عالية مكنته من الانضمام إلى البعثة والالتحاق بكلية الطب في مصر. والدافع الثاني والأهم: هو نوع من أنواع الوفاء لوطنه الذي صرف عليه منذ بداية الدراسة في ثانوية عبد الناصر بصنعاء وصرف عليه بالعملة الصعبة لمدة اثني عشر عاما خلال دراسته الجامعية في مصر وبريطانيا التي عندما قرر التخصص في جراحة المخ والأعصاب فيها، حصل على منحة سخية عن طريق وزارة الصحة التي كان لها. الوعد الثالث: وهو إذا طلبته للعمل في أي وقت لن يتأخر. وهاهو من خلال وظيفته «وكيل» يعمل بجد واجتهاد محاولاً أن يرفع مستواها لكي تقوم بواجبها كما يجب لكونها وزارة الصحة التي يعول عليها الكثير وصحة المواطن قبل كل شيء. لم يكن على المستوى الذي ينشده. تمكن من أن يلفت نظر الوزير الذي يتمتع بشيء من الحزم. وزير الصحة التي كان الدكتور نشوان وكيلها لم يكن مثل وزير وضاح مسلوب الإرادة. كان قوياً وحازما نوعا ما إلى جانب تمتعه بالصدق

والنزاهة. تعاون مع الدكتور نشوان إلى حد كبير. لكنه لم يتمكن من القضاء كليا على التسيب والإهمال في الإدارة. أحيانا يتم التعاقد على شراء نوع معين من الأدوية من شركة معروفة عالميا. تصل إلى مخازن الوزارة ويستلمها الموظف المسؤول على أنها من الشركة التي تعاقدت معها وزارة الصحة. وخلال توزيعها على المستشفيات والعيادات، يكتشف بأنها مجهولة الصنع والصلاحية. يثور نشوان ويطلب الوزير ويحثه على عمل تحقيق. وفي النهاية تتضح الأمور بعد أن يعرف الذي قام بالاستيراد. من هنا يعجز وزير الصحة عن ملاحقته لأسباب لا يذكرها برغم شجاعته التي لا تمكنه إلا من إتلاف الأدوية الفاسدة وتحمل الوزارة ثمنها وثمن الجديدة. يثور وزير الصحة وينفعل ويهدد بالاستقالة. يأتي من ينصحه بالبقاء لكي لا تنهار الوزارة كلياً. من ضمن من ينصح الوزير بعدم تقديم استقالته يكون الدكتور نشوان الذي يرى بأنه أفضل من الذي قبله ومخافة من أن يأتي من هو أسوأ منه ومن الذي قبله..

عندما اكتشف داء الكلب فجأة وانتشر بسرعة مهولة كان أول من طلبه الدكتور نشوان هو وزير الصحة.. لم يجر أي اتصال بأي جهة إلا بعد أن فشل في العثور عليه.. بعدها توجه إلى مستشفى الثورة وبعد أن عجز عن عمل شي لإنقاذ المصابين ظل يلف على بقية المستشفيات وبين مستشفى وآخر يعيد الاتصالات لطلب النجدة..

بعد التعب والإنهاك والفشل الذريع عاد الدكتور نشوان إلى منزله عبر مطبات السائلة وحفرها. وصل المنزل ووجد أخته في انتظاره شاكية باكية من زوجها الجاحد الذي يصب غرقه فوقها لعدم حصوله على عمل يمكنه من العيش الكريم مع زوجته وأولاده.

طيب بخاطرها ووعدها خيراً وسأل عن أولادها وحذرها وزوجته من الكلاب المسعورة. تخبره زوجته بأن ابنة الجيران عضها كلب منذ يومين ولم تتمكن اليوم من الذهاب إلى المدرسة فكر في جيرانه الذين كانت والدته وكذلك زوجته اليوم تصفهم بأنهم من الناس الطيبين. أراد الذهاب إلى الجيران ونصحهم بنقل ابنتهم إلى المستشفى قبل أن يستفحل الوضع، عدل عن ذلك لأنه يدري بأن المستشفيات خالية وكذلك العيادات من الدواء المطلوب.. بما أنه كان قد أوصى زوجته بأن لا تؤخر الأولاد عن طعام الغداء حتى يعود، فقد كان يتناول طعامه بمفرده معظم الأيام..

تركته زوجته لتعد الطعام وهو يتجادل مع أخته ويحذرها من التمادي في الطلبات التي قد تدفع بزوجها إلى اتجاه لا يرضى به لزوج أخته وابن عمه.. بينما كانت زوجته في المطبخ، سمعت الباب يفتح ويغلق. توقعته باب الحمام أو باب حجرة النوم وأن زوجها دخل ليغير ثيابه.

كان الدكتور نشوان في طريقه للكشف على ابنة الجيران. وجدها وأمها في حالة حرجة. البنت تنتفض، والأم تحاول إسكاتها بالمزيد من الأغطية، لم يكن بيده إلا حقنها بإبرة مسكنة عاد إلى منزله وتناول طعامه واقفاً وعينه على الهاتف عل الوزير يطلبه أو أمين العاصمة. تخبره زوجته بأن الهاتف معطل. حاول إصلاحه وتمكن فعلا من إعادة الحياة إلى خيوطه. لم يضعه في مكانه إلا وضرب. تناول السماعة بلهفة عل الطالب وزير الصحة أو من البلدية أو أمانة العاصمة. كان المتحدث شخص بادره: «مالك يا نشوان رأيتك اليوم وكأنك في سبعين سنة»؟

تذكره، إنه الذي رآه في الاتجاه المعاكس عند الإشارة في شارع علي عبد المغني حياه واعتذر له عن عدم معرفته في البداية لكثرة همومه ومشاغله، خاصة المصيبة التي طبت على البلاد وتفشي الكلاب المسعورة في كل مكان..

- بسيطة يا رجال كل عقدة ولها حل. اتصلت بك لتنظم إلينا اليوم في مقيل القات..

- أي مقيل وأي قات. أقول لك البلاد في كارثة تقول لي قات ومقيل!

- تعال وبس ولا لك إلا ما يرضيك. علمت من أحمد زميلنا في الدراسة هل تذكره؟

- نعم أذكره ماذا علمت منه عني؟!

- أخبرني بأنك تبحث عن عمل لنسيبك العاطل..

- إنه ليس عاطلاً ولكنه مثلما تقول «فضولي» وطويل لسان في الأشياء التي لا تغير..

- يا صديقي كلنا فضوليون ونتحدث كثيراً دون عمل شيء ما عدا أنت يا صاحبي..

- حسناً. اتركني الآن أقوم ببعض الاتصالات الضرورية، هل تعرف أن الهاتف كان معطلا ولم يصلح إلا قبل قليل وكنت أنت أول المتحدثين.

- قبل أن أقفل الخط أطلب أن لا تتأخر عن المقيل، وهناك ستحل كل همومك صدقني..

- لا هم لي إلا القضاء على الكلاب المسعورة، ولن يكون ذلك إلا بتعاون البلدية وأمانة العاصمة مع وزارة الصحة..

- في مقيل اليوم ستجد معظم الوزراء وأصحاب المراكز المحظورة والكلاب المسعورة..

- يبدو أنك لا تزال كما كنت أيام الدراسة، تحب المزاح والمشاغبة. ما نوع عملك الآن.

- أعمل في وظيفة مرموقة، ولو أن مرتبها قليل ولكن دخلها كبير..

ـ كيف تحتفظ بمزاحك الثقيل ووظيفتك المرموقة كما تقول!

ـ يا رجال خليها على الله ونفس همومك تعال المقيل وسوف يبت في عمل لابن عمك . .

ـ لن أطلب له عملا لا يستحقه مهما كانت ظروفه . وبعد هذا ليس همي الأكبر . .

ـ همك الكلاب المسعورة والقضاء عليها . أعدك أن لا يكون الحديث إلا عن الكلاب . .

ـ آسف لن أتمكن من الحضور قبل أن أجد من يساعد على حل لهذه الكارثة . .

ـ أقول لك في مقيل اليوم ستجد من يقف إلى جانبك ويساعدك صدقني . .

ـ حسناً سوف آتي . اتركني الآن أقوم ببعض المكالمات قد أتمكن من العثور على الوزير .

ـ أي وزير يا دكتور؟! في المقيل ستجد كل المسئولين واطرح عليهم ما تشاء . .

ـ المقيل في منزلك . أليس كذلك؟ بالمناسبة أين تسكن؟

ـ لا لن يكون المقيل في منزلي . بل لدى صديق تعرفه ومنزله في شارع الستين . . بعد أن انتهت تلك المكالمة التي لم يكن يتوقعها الدكتور نشوان الذي كان همه هو العثور على وزير الصحة ليتعاونا على إيجاد أدوية وأمصال لداء الكلاب المسعورة . . فشلت كل محاولاته . لم يجد الوزير الذي لم يره منذ أسبوع . عاود الاتصال بالبلدية . أخيراً وجد الوكيل . أخبره بالحالة الخطيرة وحثه على التحرك السريع لتفادي الكارثة . تجاوب معه ووعده خيراً ، وحذره من انتشار خبر الوباء لأن الحكومة لا تحبذ ذلك . . فكر في دعوة صاحبه للمقيل ولماذا لا يلبيها! وخاصة قد أخبره بأنه سيجد من يتعاون . في طريقه للمقيل مر على مستشفى الثورة العام ، يخبره الطبيب المستلم بأنه لم يصل أي مصاب جديد اطمأن قليلا ، وواصل طريقه إلى شارع الستين قاصداً المنزل المذكور . . عربة الدكتور نشوان لا تختلف كثيراً عن عربة الدكتور وضاح ، كل ما هنالك أن حجمها أصغر قليلا . . كذلك يحرص نشوان على أناقته وتناسق ثيابه . عند المدخل استقبله الحرس بكامل أسلحتهم . عندما ذكر اسمه فتحت له البوابة الضخمة ودخل بعربته وأوقف محركها بعد أن اتخذ لها مكانا قصيا في الحديقة الواسعة . صاحبه الذي حثه على الحضور كان يقف على مدخل الدار في انتظاره وهو غير مصدق بأنه سيحضر . أخذه بالأحضان وهو يشكره على الحضور . .

وهما يصعدان إلى المفرج , مكان المقيل ، عبر سلالم رخامية واسعة وقد وضع عليها بساط أحمر تتخلل أطرافه رسومات خضراء زاهية تمثل «السيف والنخلتين» . تلك الضخامة والأبهة لم تتمكن إخراج الدكتور نشوان من قلقه وخوفه على البلاد من الكلاب المسعورة . . أخذ صديقه يحدثه عن صاحب الدار وكرمه ووجاهته في المجتمع . .

سأله: «لما ذا حرصت على دعوتي للمقيل في هذا المنزل واليوم بالذات؟!

- لم يكن هناك أي ترتيب مسبق لدعوتك. كل ما في الأمر أني رأيتك عند الإشارة وصوت محرك عربتك يطغى على كل أصوات المزامير. عرفتك من هندامك وأناقتك المعروفة التي لم تتخل عنها برغم كل الظروف التي مررت وتمر بها.

- من قال لك هذا؟! ظروفي لا تختلف عن أي مواطن يشعر ويحس بهذا الوطن وهمومه..

- لا عليك قد تجد في هذا المقيل من يحل كل همومك..

- كما أخبرتك لن يكون حديثي إلا عن هذا الوباء الخبيث وكيفية القضاء عليه..

- تمام. ولكن لا تهول الأمور وتصف هذا الداء بالكارثة الوطنية..

- ألا تعتقد بأنه كارثة كبيرة وخطر على المجتمع بكامله؟!

كانا قد وصلا المفرج الواسع والمعد إعداداً جيداً. فرشت أرضيته بالسجاجيد العجمية، وقد احتلت أطرافها المقاعد الوثيرة والمساند والمتاكي الحريرية. وأمام كل متكئ وضعت المياه المعدنية، وعدد من علب المشروبات الغازية المختلفة. وفي الوسط توزعت النارجيلات مرتفعة الأعناق، وقد وضعت داخل صوان نحاسية يلمع بريقها ويعكس الضوء المنبعث من العقود الزجاجية الملونة بشتى الألوان. بعض تلك العقود كان على شكل نسر ضخم الجناحين يحتضن في صدره الشعار المخلد، شجرة البن وسد مأرب. ومن أسفل جناحيه يتدلى العلم الجمهوري من الجانبين. يطل المفرج على ثلاث جهات، من الجنوب فج عطان الذي يحتضن الدور والقصور الجديدة مختلفة الأحجار والألوان. ومن الشرق ميدان السبعين وما جاوره من حدائق نادرة الزرع والأشجار. كما يطل المفرج من الجهة الشمالية على صنعاء القديمة وعلى جبل نقم الذي يحتضن المدينة بخوف وحنان..

اتخذ الدكتور نشوان أقرب مكان صادفه خالياً. وجد نفسه يجلس بجانب رجل هيئته تدل على أنه من رجال الجيش المتقاعدين. حياه الدكتور نشوان وهو يعرفه باسمه. أجابه الرجل: «يا دكتور أنت غني عن التعريف. أتيتك في المستشفى الجمهوري عدة مرات مع ولدي الذي كتب له الشفاء على يديك..

تذكره وشعر أنها بداية طيبة للدخول في الموضوع الذي أتى المقيل لأجله. سأله عن ولده وكيف حاله الآن وماذا يعمل. أخبره أنه التحق بوظيفة في أمانة العاصمة..

ـ آه. أمانة العاصمة. إنها الجهة التي يمكن أن تساعد في القضاء على الكلاب المسعورة. . فيما الدكتور نشوان في تفكيره، دلف إلى المكان شخص وقف له معظم من في المفرج. اتخذ مكانه في الصدر وساد الهدوء إلا من حركة خفيفة للبعض قبل أن يعودوا للجلوس.

بدأ المفرج يكتظ بالواصلين، وأغلبهم يحمل تحت إبطه حزم القات مختلفة الأحجام والأسعار، الدكتور نشوان يبحث بعيونه عن الذي دعاه للمقيل واستمات في حضوره. وجده يقبل نحوه مع صاحب الدار الذي يعرفه من أيام الدراسة في القاهرة. لم يتغير كثيراً، ماعدا بعض الشعيرات البيضاء التي بدأت تغزو مفرقيه. .

حياه ورحب به أجمل ترحيب وعاتبه على العزلة التي يتخذها والانقطاع عن زملائه. .

ـ ليس هناك أي انعزال. كل ما هنالك هو ارتباطي بالعمل في وزارة الصحة بوظيفة وكيل في وزارة إدارتها فاشلة. .

ـ فاشلة! كيف؟ لقد أصبحت وكيل وزارة وليست أي وزارة، إنها وزارة الصحة وبإمكانك عمل الكثير لما لك من نشاط وهمة وتطلعات منذ أيام الدراسة والتحصيل. .

ـ ألا ترى الوضع وكيف تسير الأمور؟ لا أحد يعمل بجد وإخلاص. وليس هناك أي تعاون بين الوزارات والمؤسسات الحكومية أو غيرها. . التقط الحديث الرجل الذي يجلس على يسار الدكتور نشوان، قال: «الحق معك. فوضى وتسيب في كل إدارة». . قاطعه المضيف ووجه حديثه للدكتور الذي لا هم له في تلك اللحظة إلا الوباء الذي قبل الدعوة للمقيل من أجله. التفت نحو الداعي وحثه على فتح الموضوع كما وعده. .

قبل أن يبدأ مضغ القات، كان للدكتور نشوان ما أراد. بعد أن رحب المضيف بالحضور طلب منه أن يتحدث ويصف الكارثة التي تقلقه ويريد تعاون الجميع للقضاء عليها. .

لم يكد الدكتور نشوان ينهي جملته الأولى. إلا ويعترضه الجالس أمامه في الجهة المقابلة. قال: «ندري ما تريد قوله يا دكتور. إنك تقصد القات الذي تسمونه كارثة، ويعتبر في نظركم مصيبة يجب القضاء عليها». .

ـ أنا لم أذكر القات ولن أتطرق لمساوئه. هناك وباء خطير يغزو البلاد يجب التصدي له.

ـ لا تقل إن لديك أي موضوع غيره، ليس لديكم أي حديث تخوضون فيه إلا القات. من قرب باب المفرج، سمع الدكتور نشوان من يقول له: «أدخل في الموضوع يا دكتور».

ـ كيف أدخل ألا تسمع الأصوات المعارضة والمحتجة وهي لم تسمع موضوعي بعد!؟ أصبح

الجدل على أشده بين الذين يريدون سماع ما يريد قوله الدكتور نشوان وبين الذين يؤيدون الرجل الذي قاطعه. .

لم يتمكن من إكمال جملة واحدة. فكر في الانسحاب بهدوء والعودة إلى المستشفى الذي لا يعلم إلا الله كم من المصابين قد وصلوا في الساعة التي أضاعها على الهاتف يبحث عن حل، وكم ماتوا خلال الوقت الذي قضاه في الطريق إلى المقيل الصاخب قبل أن ينهض أمسك به الرجل ذو الهيئة العسكرية وطلب من الصبر حتى تحين الساعة «السليمانية». بعدها يفتح الموضوع الذي جاء من أجله ويقلقه إلى هذه الدرجة. . خلال تلك الفترة التي سادها شيء من الهدوء المفتعل، وصار الهمس هو الوسيلة للتخاطب. من ضمن ذلك الهمس الذي سمعه الدكتور نشوان، كان بين الشخص الذي يجلس على يمين موظف أمانة العاصمة وجاره الذي يبدو عليه أنه يشغل منصبا مهما. كان الحديث يدور عن أرض تملكها الدولة يريد أحدهم إضافتها إلى حديقة منزله برغم أنه قد تم رسم المخطط الذي قد أقر ليكون امتداداً لشارع عمومي يربط بين خط الستين بالدائري. وشخص آخر يهمس لجاره الذي يبدو أنه قد اختار الجلوس بجواره. كان يطلب منه أن يتوسط لولده لدى وزارة التربية والتعليم، لتسهل له منحة لدراسة الطب في أمريكا. لم يخجل بالتصريح بأن ولده في الثانوية العامة حصل على خمسين في المائة بواسطة. .

وذاك يشتكي رجال الداخلية الذين لم يسمحوا له بإدخال ثلاث عربات بدون جمرك. .

وآخر يضيف: «لم أحصل على ترخيص من الجمارك إلا بعد أن سلمت حق ابن هادي». .

لحظ نشوان شخص ينظر إليه بإشفاق، ويبدو عليه الوقار. ابتسم له وشرح له بأنه لا يريد أن يعكر المقيل وعادة لا تستهويه النقاشات الصاخبة التي تتحول إلى شجار.

كان الرجل يجلس قرب النافذة التي من خلالها بإمكانه رؤية ميدان السبعين. لذا كان الدكتور نشوان يستعين بالإشارات لبعدهم عن بعض. .

بدأ مضغ القات، ولم يهدأ الصخب، منذ أن فتح الدكتور نشوان فمه ولم يكمل جملته. .

هذه المرة كان المتحدث والمنتقد رجلا ذا لحية مشذبة، وقد وضع غطاء رأسه الحليق على متكئ بجانبه الأيسر، وبدأ خده ينتفخ بأوراق القات الطرية، وبدون أن يوجه حديثه لشخص معين وبدون مقدمات قال: «ماذا تريدون وفيما تتناقشون؟ هل لديكم أي مشكلة غير القات ألا يوجد سواه؟!».

الدكتور نشوان وجدها فرصة لشرح الالتباس الذي حدث بين القات والكلاب المسعورة. خاب ظنه عندما قال الرجل: «هل تريدون قرارا جديدا يمنع القات؟!».

كان ذلك الرجل الذي يتحدث قد اتخذ له متكئا في صدر المفرج بجانب الشخص الذي وقف له معظم الحضور عند دخوله لم يتدخل. اكتفى بالملاحظة وانتظار رد الفعل على حديث جاره. لم يحاول أن ينهي الجدل الذي تحول إلى استفزاز وتحقير قرارات الماضي . .

لم يكن من نشوان إلا أن وقف وقال: «أنا لم أحضر إلى هنا لأناقش موضوع القات وقرارات منعه أو السماح به. أنا جئت أطلب منكم التصدي للأوبئة التي تنشرها الكلاب المسعورة. أما القات فازرعوه وامضغوه كما تشاءون . .

ـ أنت تؤيد القرار الذي صدر منذ ربع قرن بمنع القات ولم يتخذ قرار بتحريم الخمر . .

ـ حفظكم الله. الخمر لا يحتاج لقرارات جديدة . . لقد حُرم منذ ألف وأربعمائة عام. . ترك المكان وخرج دون أن يودع المضيف أو الذي دعاه وحثه علىَ المجيء . .

قبل أن يصل إلى المكان الذي أوقف به سيارته، كان المضيف والذي دعاه يهرولان خلفه وكل واحد يعتذر بطريقته، ولكنهما اتفقا على تحميله اللوم لما حدث . . استمر في طريقه وفتح باب العربة ومن على كرسي القيادة لوح لهما مودعا باسما! . .

توجه نحو المستشفى الجمهوري، وعند البوابة يخبرونه بوصول حالة واحدة فقط لا غير . .

دخل إلى حجرة الأطباء وعاود الاتصال والبحث عن وزير الصحة المختفي. جرب كل الأرقام التي في مفكرته ولم يتمكن من العثور عليه. من بين كل الاتصالات التي أجراها ردت عليه خادمة هندية بعربية مكسرة، قالت: «وزير خرجت قات. كلم بعدين». نادى الطبيب المستلم وسأله عن المصاب الأخير وكم عمره وإلى أي مدى وصلت حالته؟ . .

ـ إنه شاب في العشرين وفي حالة خطرة . .

ـ هيا بنا لنعيد الكشف عليه، وفي نفس الوقت نستفسر منه إذا سمحت حالته . .

ـ استرح يا دكتور نشوان. يبدو عليك الإرهاق والتعب. اترك الأمر لي أرجوك . .

ـ لا . يجب أن أراه وأكشف عليه بنفسي. بعدها نكثف البحث عن أمصال واقية في كل الصيدليات والمراكز الصحية . .

ـ لقد اتصلنا بكل المراكز في جميع المحافظات وبحثنا في كل مكان . .

ـ لا تغلق الأبواب في وجهي. يجب الحصول على الأدوية في أي مكان وبأي ثمن . .

ـ هناك طائرة ستصل غدا من جدة، وقد قام الدكتور عبد الرحمن بالاتصال بزميل له هناك

ووعـده بالبـحث عـن الدواء المطلوب ولكننا لن نتـمكن من إدخـاله إلا بإذن من وزارة الصحة . .

ـ تريد أن ننتظر إلى يوم غد؟ يا لبرودة أعصابكم واستهتاركم بحياة الناس!

ـ عصبيتك هذه لن تغير في شيء . ليس بأيدينا ما نقوم به . عد إلى بيتك وارتح قليلاً . .

ـ لن أرتاح إلا بعد أن يتم القضاء على الكلاب المسعورة . .

أصر نشوان على أن يكشف على المريض قبل أن يتوجه إلى مستشفى الثورة . خلال الكشف وصلت سيارة إسعاف ترك المريض الذي كان قد بدأ يخلد إلى النوم بعد الإبرة المهدئة الثانية ، توجه مع بقية الأطباء نحو حجرة استقبال حالات الإسعاف . كانوا أربعة جرحى تم إسعافهم عن طريق بوليس النجدة بعد أن دارت المعركة بينهم على قطعة أرض ، شب النزاع عليها بين عائلتين . أحد المصابين حالته خطرة إذ كانت الرصاصة قد اخترقت الدماغ . .

برغم إشفاق الدكتور نشوان على الشباب الذين يروحون ضحايا الأراضي والعقارات ، إلا أنه حمد الله لأنهم ليسوا ضحية عضة كلب!

لم يخف ذلك الشعور ، بل أعلنه للأطباء الذين علق أحدهم قائلاً : «شعورك لا يختلف عن شعور الذي سمع انفجاراً ضخماً هز المدينة ، وحطم زجاج النوافذ ، وقال لأولاده الذين سيطر عليهم الرعب : «لا تخافوا . إنها قنابل . وليس زلزالاً!» كان ذلك التعليق أو السخرية بعد أن كان الأطباء قد تمكنوا من انتزاع بعض الرصاصات من الثلاثة الذين لم تكن إصاباتهم خطيرة ، ولم يتمكنوا من إخراج الرصاصة التي استقرت في دماغ الرابع .

رفض الدكتور نشوان مغادرة المستشفى والذهاب إلى منزله ليرتاح قليلا . برغم توسل زملائه وإصرارهم لما لحظوا عليه من تعب وإرهاق . رفض وبإصرار . .

ـ «بعدها نريد المزيد من توضيح واختصار » ـ فكر أحدهم بأن يحقنه بإبرة منومة ليهدأ بعد أن بدأ تصرفه وكأن واحدا من الكلاب المسعورة قد عضه هو وأصابه في مقتل . .

بعد أن تمكن من نزع الرصاصة من الذي كانت إصابته في الدماغ ، وتأكد بأن الخطر قد زال عنه وأنه بدأ يستعيد وعيه وهو تحت الرعاية والعناية الفائقة ، نظر إلى ساعته وجدها تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل ، استجاب لإلحاح زملائه وغادر المستشفي . ولكنه بدلا من أن يتوجه إلى منزله ، وجد نفسه في شارع الزبيري متوجهاً نحو مستشفى الثورة العام . .

بالقرب من مقبرة خزيمة ، يعترضه اثنان من رجال الشرطة ، ويطلبان منه رخصة القيادة

يبحث عنها في كل جيوبه وفي درج السيارة ولا يجدها. يأمره أحدهما بالوقوف على جنب وإبراز رخصة القيادة والبطاقة الشخصية. في تلك اللحظة، وفي سرعة البرق تمرّق من جانبهم عربة «صالون» يتركه رجل المرور ويعدو بصفارته خلفها. في ثوان تنطلق من السيارة الصالون رصاصتان، الأولى في الهواء، والثانية تستقر في كتف رجل المرور. لم يكن منه إلا أن غادر سيارته التي كانت كاشفاتها لازالت مضاءة. فتح الخازنة والتقط حقيبته واقترب من المصاب الذي لا يزال يهرول خلف السيارة الصالون التي انعطفت نحو شارع الشوكاني بسرعة جنونية.

يناديه بأن يقف إذ لا فائدة من جريه وصراخه. لم يستجب ظل يعدو وسط الشارع شبه الخالي في تلك الساعة المتأخرة من الليل. كان زميله يطلق النار في الهواء لكي يسمع زملاؤه في النقاط القريبة..

قبل أن يغير عليهم أحد من قسم شرطة العلفي الذي لا يبعد كثيرا عن المكان أو من النقاط المجاورة، كان الدكتور نشوان قد أمسك بالجريح وسحبه إلى الرصيف المقابل لكي يتمكن من رؤية الإصابة وما مداها تحت الضوء المنبعث من اللمبة القوية. فتح حقيبته وتناول الشاش ليربط الجرح. فيما هو يبحث عن السائل المعقم، وجد رخصة السواقة وبطاقته الشخصية داخل الحقيبة..

كانت الإصابة طفيفة. طمأنه بذلك ولكي يبعث المزيد من الطمأنينة والسكينة في قلب الشرطي المسكين الذي كان ينتفض قهراً لا ألماً، قال له: «بعد أن أربط جرحك. يمكنك الاطلاع على رخصة القيادة. لقد وجدتها».

بعد أن كان قد أنهى مهمته وربط الجرح لكي يمنع النزيف، إذا بعربة جيب متجهة نحوهم وهي تنهب الأرض نهباً.. ترجل منها ثلاثة من شرطة المرور. كانوا قد سمعوا الرصاص وتمكنوا من تحديد مكانه. قبل أن يدخلوا في سين وجيم مع الدكتور نشوان، كان قد عاد الشرطي الثاني خائباً خجلا لعدم تمكنه من العربة الفارة..

وبعودته أعفي الدكتور من الأسئلة والأجوبة. اصطحب الجريح معه في سيارته إلى مستشفى الثورة بعد أن بلغ زميله الثاني بوجهتهما..

هناك في المستشفى سلم الجريح للطبيب المناوب وتوجه إلى قسم الطوارئ؛ وهو يدعو الله أن لا يجد حالات جديدة مصابة بداء الكلب الذي يقلقه أكثر من أي شيء آخر..

في قسم الطوارئ، الكل استنكر وجوده في تلك الساعة المتأخرة من الليل. قال له

المستلم: «يا دكتور نشوان ارحم نفسك. ماذا تعمل هنا؟! لقد كنت أتحدث مع الجمهور منذ أقل من ساعة وأخبروني بأنك في طريقك إلى منزلك أخيراً.. ما الذي جعلك تغير رأيك وتأتي إلى هنا؟ مع أنني قلت لهم أن يخبروك أننا هنا لم تصلنا أي حالة من الحالات التي تقضّ مضجعك. إذا لم ترحم نفسك ارحمنا نحن»..

لم يرد عليه. جلس وطلب الملف الخاص بالذي توفي داخل عربة الإسعاف في الصباح. ما كان من الطبيب المستلم إلا أن أمسك بخلف الكرسي الذي يجلس على طرفه الدكتور نشوان وهزه بعنف وهو يقول: «تريد ملفات الميتين أم تريد أن تلحقنا بهم؟! منذ الفجر وأنا هنا أستقبل المصابين الذين لا أجد لهم الدواء، وأبحث مثلك عمن يتعاون مع وزارة الصحة ومن ينبه المواطنين للخطر ويحذرهم من الكلاب المسعورة»..

شعر بتأنيب الضمير نحو الطبيب الذي يبدو عليه الإرهاق لأنه كلفه فوق طاقته برغم علمه بحالته الصحية وظروفه المادية وصعوبة العيش، إذ هو يعول أسرة كبيرة مكونة من زوجته وثلاثة أطفال إلى جانب والدته وأربعة أخوة في مراحل دراسية مختلفة.. فوق هذا هو يدري بأن لا شيء يمكن عمله إذا كان هو نفسه لم يتمكن حتى من مخابرة وكيل البلدية أو إتمام مكالمة واحدة مع وزير الصحة أو نائبه. شعر بأنهم كلهم يتجاهلون الكارثة. خاب ظنه في وزير الصحة. الطبيب المستلم هو الآخر يشفق على نشوان الذي استلم منصبه في وزارة الصحة كوكيل ولكنه حمل الوزارة كلها على عاتقه، ولا يجد أي نوع من أنواع التعاون بل على العكس من ذلك تماماً لا يجد إلا العراقيل من قبل الكل، بل ومن قبل الوزير الذي كان يتوسم فيه الخير. وجده أنه لا يختلف كثيرا عن بقية الوزراء والمسئولين..

لكي يتجنب النقاش ويعفي صاحبه من نتائجه الانفعالية، حول حديثه لزميله الثاني الذي لزم الصمت وظل يطالع في أوراق كانت موضوعة على رف أمامه، هو الآخر لا يرى إلا العجز والشلل التام في إيجاد وسيلة لإنقاذ الأبرياء من الكلاب المسعورة. دخل الممرض وبادر الدكتور نشوان قائلاً: «هناك عدد من رجال المرور يريدون مقابلتك». ترك الحجرة المتلئة بالتوترات وتبعه.. وجد أربعة شباب في عمر الزهور يؤدون له التحية. بادره الشاب الذي يبدو عليه من الأشرطة التي على كتفه بأنه رئيسهم أو أقدمهم. قال: «أتينا للاطمئنان على زميلنا ونشكرك لما قمت به نحوه كما نأسف لما حدث لك».

ـ لا تتأسف، رب ضارة نافعة. وأطمئنكم إصابة زميلكم ليست خطرة. هل وجدتم العربة؟

ـ لا لم نجد لها أو لصاحبها أثرا. لازال البحث جارياً.

ـ لقد تمكنت من التقاط رقمها، أعتقد بأني لازلت أحفظه. هاك هو سجله لديك!

أملاه الرقم وسط استغراب الشباب الذين كانوا قد سمعوا في غرفة الاستقبال عن الدكتور نشوان الذي يصر على ممارسة عمله، برغم أنه صار وكيلا لوزارة الصحة ولا زال يحرص على ممارسة مهنته ويتنقل بين المستشفيات. قبل أن ينصرفوا حذّرهم من الكلاب المسعورة . .

كان قد تبعه الطبيب المناوب في قسم الطوارئ وأخبره أن حالة الثلاثة المصابين بداء الكلب حالتهم مستقرة . .

طلب من الطبيب المناوب أن يعود إلى منزله ويستريح، ويتخلى له عن سريره لأنه قرر المبيت في المستشفى بدلا عنه . كادا أن يدخلا في جدل عديم الجدوى، ولا يختلف عن الجدل السابق الذي دار في حجرة الأطباء دون أن يحسم أي موقف.

الدكتور المستلم يصر على الدكتور نشوان أن يترك المكان ويعود عله يستطيع النوم ولو لساعة واحدة من الثلاث الساعات المتبقية من الليل. رفض وبدأ يفك ربطة عنقه ويتوجه نحو السرير الرابض في ركن صغير من زاوية حجرة تفوح منها رائحة الأدوية والمعقمات. منظره وهو يحاول أن يكوم جسده المرهق على السرير ومنظر زميله الذي يصر عليه أن يعود لمنزله، جعل الفراش يشفق عليهما وينادي زميلهما الثالث ليفض الاشتباك حول السرير الصغير . .

زميلهم يضحك ويوجه حديثه لكلاهما وهو يقول: «أدري بأنكما الاثنين بحاجة للعودة إلى منازلكما. الكل مرهق ومحبط لا داعي للمزيد من التوترات».

لم يقبل الدكتور نشوان، أصر على البقاء حتى لو لم يسمح له بالتمدد على السرير . .

- هل تفعل هذا لأنك وكيل وزارة أم زميل يشفق على زملائه؟

- لاذا ولا ذاك. كل ما في الأمر أني أريد أن أكون على كثب وعلى علم بتطور الحالة . .

- أي حالة؟ حالتك أنت التي بحاجة للمراقبة عن كثب . .

- حسنا. اتركوني هنا . .

تناول الهاتف وطلب زوجته التي ظلت تنتظره مع أخته الغاضبة من زوجها الذي لم يوفق بعمل يمكنهم دفع أقساط المدارس الخاصة التي أصرت على إدخال الولدين الكبيرين فيها. زوجته قد تعودت على تأخره ولم تكن تحتج، ولكن هذه الليلة قضتها ساهرة تتناوب مع أخت زوجها في الرد على المكالمات العديدة لم تتمكن إحداهنّ من النوم. في الأخير قررت زوجته أن تبقى بجانب الهاتف وتتلقى الاتصال بعد الاتصال من المستشفيات ووزارة الصحة وأمانة العاصمة. الكل يبحث عن الدكتور نشوان الذي أشعل الدنيا منذ الفجر، يبحث عمن يساعده على الكلاب المسعورة . .

لم يستقر في مكان، بعد كل مكالمة كان يجريها ولا يجد الذي يطلبه يتجه إلى مكان آخر وحالة أخرى. تخبره زوجته بأن أمين العاصمة الذي ترك رقمه الخاص وأخبرها بأن بإمكانه أن يطلبه في أي وقت. كذلك وزير الصحة طلبه عدة مرات وترك جميع أرقام هواتفه.

سجل رقم أمين العاصمة ولم يهتم بأرقام الوزير الذي اغتر به ولم يعرفه جيدا. . الآن صار يعرفه ويعرف شغف المسؤولين الكبار الذين يحلو لهم إحباط من تحتهم. لكنه لم يكن يحسب وزير الصحة من ضمنهم في بداية عمل الدكتور نشوان في الوزارة جاء من يحذره ويقول بأن الوزير برغم حماسه للعمل والتعاون إلا أنه يحلو له بذر الحساسيات بين الموظفين والأطباء وكل العاملين».

لم يصدق كلمة واحدة واعتبرها وشايات لا تستحق أن يعطي لها أي أهمية. ركز كل جهده في تنظيم العمل ولم يكن يهتم أو يلتفت للغمز والهمس المتبادل ممن حوله. .

برغم يأسه الآن من تعاون الوزير الذي لا يرد على مكالماته، إلا أنه وجد أن من واجبه أن يعلمه بكارثة الكلاب المسعورة وانتشار وباء السعر في أنحاء المدينة. . .

سجل رقم أمين العاصمة، وقبل أن يقفل الخط حذر زوجته من السماح للأولاد بمغادرة الدار. سألته والمدرسة؟! قال لا تسمحي لهم بتعدي معقم الباب. .

فكر في الاتصال بأمين العاصمة الذي يأمل أن يتعاون معه أكثر من البلدية ومن وزير الصحة الذي لم يكلف نفسه حتى بالرد على مكالماته المتعددة خلال النهار. .

لم يطلب أمين العاصمة، نظر إلى الساعة وجدها وقد تجاوزت الثالثة والنصف صباحاً.

ترك الهاتف وتمدد على السرير بعد أن غادر زميله المحتج. .

برغم أصوات عربات الإسعاف من وقت لآخر والحركة المستمرة في المدخل والممرات. لم يفق إلا على إحدى الممرضات وهي تحاول إيقاظه ليرد على الهاتف، لأن المتكلم وزير الصحة. . نظر في الساعة المعلقة في الحائط وجدها تقترب من الثامنة صباحا. لم يسبق له ونام إلى ذلك الوقت مهما كان نومه متأخراً. بحث عن نظارته التي لا يتذكر أين وضعها خلال المفاوضة مع الطبيب المستلم الذي لم يتخل عن السرير بسهولة. كان قد وضع النظارة فوق الطاولة التي بجانب باب الحجرة. . خلال بحثه بجانب السرير وفي جيب سترته، كانت الفراشة قد وجدتها وصارت تنظفها بطرف معطفها وهي تقف إلى جانب الممرضة مستغربة وجود وكيل الوزارة ونومه على السرير الضيق. لم يصل إلى الهاتف إلا بعد أن كان الوزير قد أقفل الخط غاضباً. .

لم يهتم بغضب الوزير . . همه هو هل هناك أي مصاب جديد بعضة كلب وصل إلى المستشفى؟ .

أخبروه بوصول حالة واحدة فقط ، وصلت بعربة الإسعاف بعد صلاة الفجر . .

ـ ولماذا لم يتم إيقاظي؟ ما الفائدة من بقائي في المستشفى؟! كيف حال المصاب؟

ـ حالته لا تسر . عند وصوله كان يشكو من آلام مبرحة بعدها بداء يصرخ ويهلوس . .

ـ ماذا فعلتم من أجله وأي دواء أعطي له؟ . .

ـ مثل العادة المهدئ والفيتامينات ومحاولة جعله يفرغ ما في معدته . .

ـ كم عمره وفي أي قسم يرقد الآن؟

ـ قسم الطوارئ . .

عدل عن غسل وجهه وتوجه مباشرة نحو قسم الطوارئ وهو يلوم نفسه عن الوقت الذي أضاعه في سؤال وجواب ، مع أنه يعلم علم اليقين بأنه ليس هناك ما يمكن تقديمه لهؤلاء الضحايا الذين يقعون واحدا تلو الواحد ولا يجدون الدواء أومن يحذرهم من الكلاب المسعورة التي تسرح وتمرح بكامل حريتها . .

بصعوبة كشف على المصاب الذي كان يتلوى من شدة الألم ولم تفلح معه المهدئات . كان شاباً في حوالي الثالثة والعشرين ، حاول تهدئته بكل الطرق ، وسأله : « أين كنت عندما تعرض لك الكلب؟ كيف تركته ينهش لحمك؟ولم تتنبه؟» . لم يتمكن من الرد عليه . أجابه أخو المصاب الذي يبدو عليه الهلع . قال : «كنا في طريقنا إلى جامع حنظل بعد أن سمعنا أذان الفجر ، فجأة سمعت صرخة أخي ومهاوشته مع كلب يبان عليه الهزال ولا يكاد يبين . لم يتحرك عندما هويت عليه بالعصا ! . ظل مكانه . بعدها لم نذهب إلى الجامع ، عدنا إلى المنزل ، وعندما ساءت حالة أحمد طلبت الإسعاف وأتينا إلى هنا» . .

تركهم وعاد في الحال إلي حجرة الأطباء وطلب أمين العاصمة الذي يحتفظ برقمه الخاص . حمد الله لأنه وجد الأمين يرد عليه بنفسه . بدون مقدمات طلب منه أن تقوم أمانة العاصمة وفي الحال ، بملاحقة الكلاب المسعورة وقتلها أين ما وجدت . .

خاب ظنه عندما قال له أمين العاصمة : «لا يمكن أن نقوم بملاحقة الكلاب وقتلها دون تصريح من الجهات المسئولة» . .

ـ أي جهات مسئولة؟! منذ صباح أمس وأنا أحاول الاتصال بالبلدية ولم يجبني أحد . .

ـ لا . إن الأمر ليس في يد البلدية أو أمانة العاصمة . إنه بيد مجلس القضاء والجهات الدينية التي تحرم قتل الكلاب . .

ـ ولكنها كلاب مسعورة ، تنهش وتنشر سعرها بين الأبرياء .

ـ يا دكتور نشوان أمانة العاصمة والبلدية لا يمكن أن تقوم بمساعدتك . .

ـ إذاً علينا تنبيه المواطنين عن طريق الإعلام المقروء والمسموع والمرئي . .

ـ تواصل معهم وأنا من جانبي لن أقصر . .

ـ بمن تنصحني مكالمته؟ . .

ـ وزارة الإعلام . الوزير مباشرة . .

قبل أن ينهي المكالمة مع أمين العاصمة ، يخبره المستلم بوصول ثلاث حالات دفعة واحدة ، وكلهم من تلاميذ المدارس الصغار . .

بدلا من أن يذهب للكشف عليهم والاطلاع على حالتهم ، ترك المستشفي وركب سيارته وتوجه إلى وزارة الصحة . وجد الوزير يبحث عنه ويخبره أنه قلق من الحالة ولكن ، ليس بيده ما يمكن أن يقوم به . إذ لا أدوية أو أمصال واقية . .

يجري مكالمة مع المستشفى الجمهوري ويسأل عن الذي وعد بإرسال الأدوية من جدة . يخبره بأن المسئولين هناك لن يوافقوا على إرسال الدواء إلا بطلب رسمي من المسئولين هنا . .

أظلمت الدنيا في وجه الدكتور نشوان وقرر الذهاب إلى وزارة الإعلام وإعلامهم بالخطر . على الأقل يمكن إعلان خبر الوباء . . قد يتمكن من تحذير المواطنين من الكلاب المسعورة . .

هناك في وزارة الإعلام يقابله الوكيل ، وبعد أن شرح له الحالة يخبره بأنه من المستحيل الإعلان عن وباء قد يقلق المواطنين ، ويجعلهم يتصرفون تصرفاً قد لا يحمد عقباه . .

بعد المحاولة المستميتة مع وكيل وزارة الإعلام والثقافة ، طلب مقابلة الوزير الذي لم تختلف وجهة نظره عن وكيله . .

عاد الدكتور نشوان إلى منزله ووجد زوجته ترتدي السواد وهي في طريقها إلى بيت الجيران لتعزيتهم في ولدهم الذي وافته المنية في المستشفى العربي صباح اليوم . . أخته كانت قد عادت مع أولادها إلى دارها بعد أن يئست من أخيها الذي كل همه هو القضاء على الكلاب المسعورة .

غير ثيابه ودخل على زوجته في المطبخ وطلب منها أن تمكنه من كسرة خبز أو أي طعام . . تناول قطعة من اللحم مع قليل من الفاصوليا التي لم يتم نضجها بعد. ودون أن ينبس بكلمة توجه إلى مستشفى الحوادث، وهناك يخبرونه بأن أربع حالات جديدة وصلت، وأن واحدا منهم وافته المنية خلال حقنه بالمسكنات . .

دون تفكير وجد نفسه في عربة أجرة متوجها إلى مبنى صحيفة ٢٦ سبتمبر . . يقابله رئيس دائرة التوجيه المعنوي ويرحب به أجمل ترحيب . . يعرض عليه الوضع ويطلب منه أن يصدر إعلاناً يحذر فيه المواطنين من الكلاب المسعورة . .

ـ تحت أمرك يا دكتور نشوان اكتب النص الذي تراه وغداً سينشر في الصفحة الأولى . .

ـ أشكرك جداً. قد يساعد ذلك في التخفيف من الكارثة . .

بدأ في كتابة النص وكله سعادة لأنه وجد الإنسان الذي يحس بالخطر . . في تلك اللحظة دخل شخص وجيه وأخذ مكانه في الحجرة. جلس في نفس المقعد الذي كان يحتله الدكتور نشوان الذي ترك مقعده وأخذ زاوية ليكتب الإعلان أو التحذير. بعد أن أنهى كتابته أحس بشيء من الراحة لأنه وجد من يتجاوب معه وعلى استعداد للتعاون للتحذير من الخطر الداهم. تنفس الصعداء وهو يقدم الورقة لرئيس التحرير الذي ضرب الجرس للمراسل ليأخذ الإعلان ويعطيه للمطبعة على الفور، لأن اليوم هو الأربعاء وستصدر الصحيفة الخميس. قبل أن يلبي المراسل النداء ويأتي لأخذ الورقة، طلب الزائر الاطلاع على الإعلان، في لحظات قليلة تغيرت ملامحه! طلب من رئيس التحرير التريث في تسليم الإعلان للمطبعة!

قال: «كيف يتم نشر خبر مثل هذا؟ يقول: «احذروا الكلاب المسعورة؟!». أي كلاب تقصد يا دكتور؟!

ـ أقصد الكلاب المسعورة . .

ـ هل تريد تخويف المواطنين؟

ـ لا بل أقصد تحذيرهم . .

ـ وتريد هذا الخبر أن ينشر في صحيفة رسمية تمثل الدولة؟!

ـ أرجوك لا تعرقل المهمة الإنسانية . .

ـ ومن قال لك بأن الذين تريد تحذيرهم يقرؤون الصحف؟

ـ عندما ينشر التحذير في صحيفة لها مكانتها سيطلع عليه العديد من القراء ويتحدثون عنه،

ويتناقلونه مع الآخرين ويتداول الخبر لأنه نشر في صحيفة٢٦ سبتمبر التي استوعبت الخطر وحذرت منه . .

دون أن يرد أو يعلق أحد على ما يقوله الدكتور نشوان، التفت الزائر نحو رئيس التحرير وحذره من مغبة نشر خبر مثل هذا . عند وصول الساعي كان رئيس التحرير قد غير رأيه وعدل عن نشر التحذير . .

بشيء من الخجل اعتذر رئيس التحرير للدكتور نشوان قبل الاعتذار، وعاد إلى منزله خائباً مكسوراً. عاود الاتصال بأمين العاصمة الذي يبدو أنه لم يعد غيره يمكن أن يتعاون معه لإيجاد حل للكارثة . .

قبل أن يتوجه إلى أمانة العاصمة يرن جرس الهاتف . ترفع زوجته السماعة، وقبل أن ترد تسمع الطالب يقول : « الدكتور . أين الدكتور نشوان بسرعة أرجوك» تستمهله وتنادي زوجها الذي لا يريد أن يرد على أحد بعد أن وجد بأن الكل غير مهتم بما سيكون عليه الحال إذا تركت الكلاب المسعورة تسرح وتمرح في البلاد . . .

قبل أن يقفل الباب خلفه كانت زوجته تناديه ليعود ويرد على الشخص الذي من صوته يبدو عليه الهلع . قبل أن يتناول سماعة الهاتف كان يسمع الصوت بوضوح عرفه أنه الذي دعاه لمقيل القات . قال له لا تتحرك من مكانك . هناك عربة في طريقها إليك . أرجو أن لاتتأخر يا نشوان . حالة الولد خطرة . .

* من المريض من أولادك؟

* ليس من أولادي . إنه ابن مسؤول كبير وشخصية معروفة ولها وزنها . .

* لماذا لا ينقلونه إلى أقرب مستشفى؟

* أقول لك ابن مسؤول كبير لا يمكن أن يدخل أي مستشفى هنا؟!

* لماذا؟

* لا أدري . على كل حال بعد أن تكشف على الولد انصحهم بما تراه . .

قبل أن يقفل الخط مع الذي يحثه على سرعة التحرك . تبلغه زوجته بأن هناك عربة تقف على الباب . يقفل الخط مع الذي يستعجله بسرعة التحرك ويلقي نظرة سريعة على العربة السوداء التي تقف على بابه . . تناول حقيبته الطبية، وقبل أن يغلق الباب خلفه أوصى زوجته بأن لا تسمح للأولاد بمغادرة المنزل . . .

اقترب من العربة الفخمة التي لم يتمكن من رؤية سائقها أو من بداخلها بسبب زجاجها العاكس غامق اللون مما زادها غموضاً! . فتح الباب الأمامي لكي يجلس بجانب السائق الذي لم يره بعد . وجد شخصا يجلس بجانبه وفي يده مسدس يقلبه وكأنه يعده للاستعمال السريع! . وقد وضع بينه وبين السائق قطعة سلاح تبدو من الوهلة الأولى إنها عبارة عن رشاش سريع الطلقات . الرجل الذي يجلس بجانب السائق بحركة خفيفة مد يده إلى الخلف وفتح الباب وبكلمة مهذبة ومقتضبة وفيها شيء من الاعتذار، فهم الدكتور نشوان أن عليه الجلوس في المقاعد الخلفية . . نفذ الأمر واتخذ مقعده . بعد أن تحركت العربة حاول فتح النافذة التي على يمينه ليتمكن من رؤية ما حوله بوضوح أكثر، عله يتبين الطريق التي يجهل إلى أين تقوده . لم يعثر على المقبض الذي يستعمل لفتح الزجاج أو إغلاقه . في المرآة المعلقة بمقدمة العربة تفحص وجه السائق ليستفسر كيف يفتح الزجاج المعتم؟ أدرك السائق بأن الذي يجلس في الخلف يريد أن يقول له شيئاً . عند أول إشارة التفت نحوه مبتسما وقال : «هل تريد فتح النافذة سوف أفتحها لك بعد أن نعدي هذه الحارة المتربة، ويمكنك فتح النافذة أو إغلاقها بالزر الصغير الذي على يمينك . على العموم المسافة قريبة يا دكتور . إنهم في انتظارنا على أحر من الجمر» . .

يسأله عن حالة المريض وقبل أن يرد يتبرع بالرد الذي يجلس بجانب السائق ويقول : «حالته خطرة يا دكتور» وهو يكلمه كان قد استدار بكله نحوه ويده لازالت تلعب بالمسدس وتنظفه بطريقه مرتبكة تبعث على القلق من أن تقع أحد أصابعه خطأ على الزناد وتنطلق رصاصة إلى الخلف أو إلى السائق الذي يبدو عليه الهلع أصلاً، ولا يدري الدكتور نشوان هل ذلك سببه الحالة المرضية التي قصدوه من أجلها، أو من السلاح الذي يلعب به الجالس بجانبه بدون مبالاة! بطريقة مهذبة يطلب منه أن يضع المسدس بجانب الرشاش ويخبره عن حالة المريض وكم عمره؟ يلتقط الحديث السائق الذي بدي عليه الاطمئنان بعد أن كان الجالس بجانبه قد تخلى عن اللعب بالمسدس . قال : «المريض لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره» . يسأله عن بداية الأعراض؟ يقول له بأن الذي حدث هو أن الولد كان منذ أسبوع يلعب مع أقرانه في شارع مجاور وهاجمه كلب هزيل وعضه في ساقه . هذا كل ما يعرفه . . .

* هل الشارع الذي عضه الكلب فيه قريب من المنزل؟

* نعم إنه في حارة مجاورة وقريبة من بيت «الفندم» . لقد نصحتهم أكثر من مرة بأن لا يسمحوا للأطفال باللعب هناك . .

* خير إن شاء الله . .

توقفت العربة أمام بوابة ضخمة عليها حراس شداد يقفون بكامل أسلحتهم. قبل أن يترجل الدكتور نشوان كما فعل صاحب المسدس، يقترب أحد الحراس من الباب ويلقي نظرة سريعة قبل أن يسمح للعربة بالدخول بمن فيها. فتحت البوابة بعد أن كان أحد الواقفين بقربها قد رفع سماعة صغيرة وتحدث مع شخص بالداخل. السائق ظل في مقعده بعد ترجل الدكتور نشوان ولا يدري إلى أين يتجه، وأي الأبواب المغلقة يدقها! ارتباكه الذي لم يستغرق ثوان فتح باب جانبي وخرج منه رجل محني ومتقوس الظهر يبدو في السبعين من عمره. أخذ بيد الدكتور نشوان وهو يدعو باللطف وعاقبة الأمور. حركة غير عادية وصراخ يأتي من الدور الأعلى والعجوز يحثه على الصعود قبله بسرعة. لم يكن الدكتور نشوان بحاجة لمن يدله أي الحجرات يوجد بها المريض. الأبواب كلها مشرعة على المكان الذي ينبعث منه الصراخ والعويل. طفل ممدد وسيدة تحاول منعه عن الحركة ومن تمزيق ثيابه. وأخرى تضع على قدميه الأغطية ورجل يقترب من السيدتين ويقول: «طريق. طريق. افسحوا للطبيب».

يتقدم الدكتور نشوان بعد أن وضع حقيبته على أول منضدة صادفته وأخرج منها إبرة مهدئة. اقترب من المريض بعد ابتعاد النسوة. لم يتمكن من إجراء الكشف المعتاد قبل أن يحقن المريض. طلب من الرجل مساعدته. بصعوبة تمكنا من أن يمددوه على السرير وضرب الإبرة التي لم تفعل مفعولها إلا بعد أن امتلأت الحجرة بالنساء والأطفال من أعمار مختلفة. الرجل الوحيد في الحجرة وقف إلى جانب المرأة التي لازالت تولول وهو يحاول تهدئتها ويطلب من البقية مغادرة الحجرة. لا أحد يريد المغادرة الكل عيون متسائلة. أخيرا وصل الرجل العجوز واتخذ مكانه قرب سرير المريض الذي كان قد هدأ قليلاً. بكل حب وحنان يقترب منه ويناجيه بصوت متهدج يبدو على صاحبه علامات السهر والإرهاق. يقول: «روح جدك ما الذي أصابك؟! يعود المريض للأنين والتقلب ومحاولة تمزيق ثيابه بيد واهية يحركها بصعوبة من أثر المخدر. الرجل الواقف بجانب المرأة يسأل ما الذي يجب القيام به لتخفيف الحالة قبل أن يتم السفر؟ تتداخل الأصوات وكلها تريد الجواب. لم يجد الدكتور نشوان إلا أن يطلب من الكل مغادرة الحجرة حتى يتمكن من إكمال الكشف، وبعدها يقرر ماذا يجب اتباعه. الرجل الذي يقف بجانب المرأة ولم يكن الدكتور نشوان قد تبين ملامحه بعد، أو يعرف صلته أو قرابته من المريض أمر البقية بسرعة المغادرة في ثوان كان الكل خارج الحجرة ومن ضمنهم المرأة التي عرف الدكتور نشوان بأنها أم الطفل والرجل الآمر هو والده.. بعد الكشف الذي تم بصعوبة يخبر الرجل بأن ولده مصاب بداء الكلب ويجب نقله على وجه السرعة إلى المستشفى.. يعترض الأب ويقول: «لا. لا يمكن إدخاله المستشفى وهو بهذه الحالة الجنونية».

* إذا لم يتم نقله في الحال إلى المستشفى سوف تسوء حالته ويتعرض لما هو أخطر من الصراخ وتقليد صوت الكلب . .

* أعطه المزيد من المسكنات تساعده على الهدوء حتى تقلع الطائرة على الأقل .

* لا يمكن سفره قبل أن تتحسن حالته .

* لا عليك سيتم السفر اليوم . لقد طلبت طائرة خاصة ونحن الآن في انتظار الموافقة . بالتأكيد لن يتأخروا . قبل أن تأتي بلغني أمين الرئاسة بأنهم موافقون تقريباً . .

* قد يتوفى بين أيديكم فوق الطائرة . .

* يمكنك السفر معنا . أرجوك يا دكتور . .

* المسألة ليست فيمن يسافر معكم . الولد لن يتحمل السفر . هيا وافق على نقله إلى أقرب مستشفى . .

* لا يمكن دخوله المستشفى وهو يعوي مثل الكلب دعه يموت ولا الفضيحة . .

في تلك اللحظة دخلت الأم التي كانت تقف خلف الباب وتسمع الحوار . قالت دع الطبيب ينقله إلى ما يريد أرجوك . دخل خلفها الرجل العجوز ويخبرهم بأن وزير الصحة في الباب ومعه ثلاثة أطباء . . يقول الرجل : «دعوا الوزير يدخل ولا داعي لدخول الآخرين» . .

الدكتور نشوان برغم شفقته على الطفل إلا أنه وجد نفسه يتمنى أن يكون الكلب الذي عض ابن المسؤول قد يساعد في القضاء على الكلاب المسعورة . الوزير الذي لم يتجاوب معه أو يهتم بالكارثة ، هاهو يأتي بنفسه . . يصل الوزير واللهفة المفتعلة تكسو ملامحه . قبل أن يتوجه نحو المريض يهمس له الدكتور نشوان قائلا : «هذه فرصتك يا أحمد للقضاء على الكلاب المسعورة . هيا يا صفي تحرك واطلب نقل المريض إلى المستشفى وسرعة طلب الأمصال» . .

رنت الكلمات في أذن الوزير وفهم القصد . قبل أن يعيد الكشف على الولد الذي عاد للعويل والصراخ ووالدته تترجى زوجها بالسماح للطبيب بنقله إلى المستشفى . الوزير يتمم على كلام الدكتور نشوان ويقول : «يجب أخذه الآن بدون تردد» . .

وافق الأب على شرط أن لا يطلع أحد على حالة ولده ، وأن يتولى الدكتور نشوان معالجته دون غيره . . أراد الوزير أن يطلب عربة الإسعاف . يعترض الوالد ويقول سيتم نقله بالسيارة

الصالون. يوافقه الدكتور نشوان الذي يطمئن الأم بأن حالة ولدها قابلة للشفاء . . بصعوبة تم وضع المريض في العربة الواسعة بعد أن عادت له حالة الهيجان. أرادت والدته الذهاب معه لكن الأب منعها. هو الآخر لم يركب في نفس العربة. اكتفى بالجد الذي يبدو أكثر لهفة من الأب . . في الطريق إلى المستشفى عرف الدكتور نشوان بأن الرجل العجوز هو والد الأم التي لم يسمح لها بمرافقة ولدها. يقول العجوز بأن المريض هو ولدها الوحيد على أربع بنات أكبر منه، الأب الذي استقل عربة أخرى مع وزير الصحة الذي أصر على المرافقة ليطمئن بنفسه على المريض، وفي نفس الوقت يطلب من الأب التعاون في القضاء على الوباء الذي لم يصب ولده فقط أخبره بأن في المستشفيات العديد من المصابين بنفس الداء. وهناك في المستشفى يعد الأب بأن يبذل كل ما في وسعه للقضاء على الوباء . . بعد أن استقرت حالة الطفل بعض الشيء واطمأن الدكتور نشوان بأن الخطر على حياته قد زال. انتحى بالأب جانباً وقال له: «بداية التعاون هي إجراء مكالمة للبلدية وأخري لأمانة العاصمة لكي يتحركوا لجمع الكلاب وقتل المسعورة منها . .

* لا يكفي قتل المسعورة فقط. يقتلون كل الكلاب . .

* لن يسمح لهم سيعترض الكثير. وقد يستغل البعض ويعمل قصة من ذلك . .

* يبدو أنك لا تعرف من أنا!

* العفو. أنا أعرف بأنك من المسؤولين الكبار . .

* لا عليك. من تريد أن أكلفه بملاحقة الكلاب والقضاء عليها؟

* البلدية وأمانة العاصمة. قبل أن أتوجه إليكم كنت قد تحدثت مع أمين العاصمة. هو الوحيد الذي وجدت منه رغبة في التعاون . .

على الفور قام الرجل وسأل عن مكان الهاتف. الممرضة التي كانت تقيس ضغط المريض تركت ما بيدها وأخذته إلى الحجرة المجاورة. كان الدكتور نشوان قد زوده بالأرقام. طلب أمين العاصمة أولا وبعده البلدية. لم تمر ساعة إلا وعربات البلدية تجوب الشوارع في محاولة لجمع الكلاب. بصعوبة تمكن موظفو البلدية وأمانة العاصمة من جمع عدد قليل من الكلاب الحذرة. مدير البلدية الذي كلف بالمهمة اهتدى إلى فكرة قد تنجح. كان الرجل المسؤول قد تحدث معه مباشرة. وأعطاه جميع أرقام هواتفه. وقال له يمكنك طلبي في أي وقت. عندما طرأت له الفكرة طلبه على رقم المنزل. في ساعة متأخرة من الليل يخبره عامل الهاتف بأنه نائم ولا يمكن إيقاظه. قبل أن يقفل. يقول له لحظة. في ثوان معدودة كان الرجل معه على

الخط بعد أن أخبره بالمجهود الكبير الذي يبذله رجال البلدية إلا أن المهمة صعبة، ولم يتمكنوا من تحقيق النتيجة المطلوبة وعرض عليه الفكرة التي طرأت خلال ملاحقة الكلاب. قال له الرجل: «قلها بسرعة»..

* الفكرة هي أن نستعين بالأمن الوطني. وأرى أنه من المفيد لو تكلفونهم بتزويدنا بمسدسات كاتمة للصوت..

* بسيطة ابق مكانك وسوف تأتيك المسدسات في الحال.

قرب الفجر كان الرجال المسلحون قد قضوا على العديد من الكلاب. التي لم يفق سكان المدينة إلا على أصواتها وسحبها إلى داخل العربات وهي تتأوه وتئن قبل أن تلفظ نفسها الأخير..

صباح اليوم الثاني كان قد انتشر خبر ملاحقة الكلاب وقتلها بدون سبب. أمين العاصمة يطلب الدكتور نشوان ويبلغه بأن هناك من يريد أن يتخذ الحدث ذريعة ليؤلب خطباء الجوامع ضده وضد البلدية. وساعتها قد يستغل البعض الفرصة ومن على المنابر يهاجمون الدولة. يقول له الدكتور نشوان: «إذا لم يبق إلا إعلان السبب على فكرة عندي لك خبر سيفرحك. يبدو أن الحملة التي قمتم بها خففت الإصابات

* فكر في الموضوع وراجع صاحبك..

* من صاحبي؟!

* صاحبك الذي تعالج ولده. سمعت من ردفان بأن الرجل وعدك بالتعاون.

* إنه ليس بصاحبي سامح الله ردفان هذا الصديق الذي يغطس ويغيب فترة ويظهر فجأة. سبق وأخبرتك كيف رآني في الشارع وحياني ولم أصل المنزل إلا ويطلبني في الهاتف، وعندما اعتذرت له لأني لم أتعرف عليه عند إشارة المرور لأني كنت قلقاً وسارحا وشرحت له السبب. وجدته يدعوني لحضور مقيل القات، وهناك سوف أجد من يتعاون معي. بدلا من أن أجد من يساعدني تعرضت لأسوأ موقف أخبرتك بذلك. كذلك الرجل الذي تقول عليه صاحبي لم أذهب إليه إلا بعد أن اتصل بي نشوان وبطريقته المعهودة طلب مني الذهاب لمعاينة طفل حالته خطرة..

* كيف حاله الآن أرجو أنها قد تحسنت..

* تحسنت حالته نوعا ما..

بعد أن قفل الخط مع أمين العاصمة طلب ردفان صديقه الذي يحاول أن يجمع الأصدقاء والزملاء ويوفق بين شتات الأفكار والاتجاهات. يفلح أحياناً وأحيانا كثيرة يزيد التباعد ويوسع الهوة بحسن نية. ردفان خلال الدراسة كانت لديه ميول اشتراكية وفعلا انضم للحزب الاشتراكي عندما كان حزبا سريا، وبعد أن تسلم الحزب الحكم في الجنوب. حول إلى حزب البعث، وبعد أن صارت الأحزاب تمارس نشاطها في العلن بعد الوحدة تخلى عن ميوله الحزبية وأصبح أكثر مرونة مع الكل ولم يعد له هم إلا جمع الصحاب. ردفان درس الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة «مؤتة» بالأردن. بعد التخرج التحق بوزارة الخارجية التي بعد فترة عينته ملحقا اقتصاديا في موسكو في أوج ازدهار مجد الاتحاد السوفيتي. بعدها تنقل بين الداخل وبلدان عديدة دون أن يترقى ظل في نفس المنصب ملحقاً اقتصادياً، آخر عمل له كان في بغداد وعاصر الحرب بين العراق وإيران. بعد الوحدة عاد إلى صنعاء وهو الآن من ضمن العاطلين في وزارة الخارجية...

عندما طلبه الدكتور نشوان معاتباً على ما قاله لأمين العاصمة بأنه صار صديقاً للرجل المسؤول الذي لا يعرفه إلا من خلاله. وهو يضحك قال له: «احمد الله يا نشوان. الادعاء بصحبة المسؤولين قد تسهل أمور كثيرة».

* من قال لك بأني بحاجة لمن يسهل لي الأمور وأي أمور تقصد؟!

* بطل الفضول يكفيك أنه سوف يساعدك على محنتك التي تقضي مضجعك.

* المحنة التي تتحدث عنها ليست بمحنتي وحدي. القضاء على أسبابها واجب وطني على الجميع..

* المهم أنك وجدت من يتعاون معك. لا تستغرب إذا تم تعيينك وزيراً للصحة.

* يا رجل كن جادا مرة واحدة في حياتك. رجاءً لا تطلق هذه الإشاعة..

* م تخاف؟ أنا عن نفسي أراك كفئا للمنصب وتستحقه بجدارة.

لم يكن من الدكتور نشوان إلا أن قال له إذا سمعتك تذكر اسمي أو يبلغني أحد بأنك تتقول عن لسني أو عني لن أسامحك..

* أجل التهديد حتى تصبح وزيرا..

* ردفان. أرجوك أن تبحث عن أصدقائك العاطلين مثلك.

* ما شاء الله. أصدقائي وحدهم هم العاطلون! انظر حولك يا دكتور. أريد أن أسألك قبل أن تقفل الخط ما آخر مرة التقيت بالدكتور وضاح؟

* لم نلتق منذ مدة طويلة. ولكن لماذا تسألني عنه ومتى التقينا؟

* لا لشيء إلا لأنه مرشح ليكون وكيل وزارة مثلك.

* هو يستحق أكثر من أن يكون وزيرا. على العموم. لا تدع هذه المسائل تشغلك اهتم بأولادك وواظب على الدوام في وزارة الخارجية. أنا الآخر سمعت بأن هناك تعيينات جديدة وترشيحات لبعثاتنا في الخارج، أرجو أن تكون واحدا منهم ونرتاح من طلعتك البهية وقفشاتك المكلفة والموجعة أحياناً. .

قبل أن ينهي المكالمة التي طالت بينهما يرجوه مرة ثانية أن لا يتقول عليه. بعد أن وضع السماعة تعاتبه زوجته على ما صدر منه نحو صديقه دمث الخلق ولا يصح أن يقسو عليه ويجرحه بتلك الطريقة. . خلال العتاب يرن الهاتف يعتقد أن الطالب هو الصديق نفسه ويحجم عن الرد. ويطلب من زوجته وضع طعام الغداء بسرعة لأنه ينوي العودة إلى المستشفى. سألته ألم تمر بعد خروجك من الوزارة؟ ارحم نفسك ونم قليلا.

* نعم مررت مع الوزير لكنني لم أمر على بقية المصابين.

* تمام نم قليلا ومر بعد العصر.

* لا بعد العصر عليَّ الذهاب إلى المستشفى الجمهوري وبعده العسكري.

* ألم تقل بأن الإصابات قد خفت وأن معظم المرضى قد غادروا المستشفيات؟

* نعم كذلك لم يبلغني أحد بوصول إصابات جديدة بداء الكلب. .

* الحمد لله مرض ابن المسؤول هو الذي ساعد حملتك على الكلاب المسعورة.

* ليس بعد لا يزال هناك العديد منها تسرح في الشوارع. لقد رأيتها بأم عيني.

* على فكرة اليوم هو السابع على وفاة ابن الجيران. كنت عندهم صباح اليوم ولا حديث للمعزيات إلا عن الكلاب التي يلاحقها عمال وموظفي البلدية ويقتلونها في الشوارع. إحدى السيدات تقول بأن هناك بدء معارضة من المواطنين الذين يقولون بأن قتل الكلاب حرام. هل صحيح أن قتل المسعورة منها حرام؟

* لا ليس حراما عندما تهدد حياة الإنسان الذي سخر الله كل شيء من أجله.

تناول طعامه على عجل واستقل عربته وتوجه نحو مستشفى الثورة. كانت الطريق هادئة عربات قليلة في السائلة التي تخلو من روادها خلال القيلولة بعد أن يكون بائعو القات قد

تركوا باب السبح ولم يعد إلا باعة الأقمشة والعصائر. قبل أن يتجه يساراً صوب باب اليمن يشاهد مجموعة من الصبية يلعبون ويمرحون ويتراكضون هنا وهناك والكلاب تلف حولهم وبينهم. كاد أن يوقف العربة وينزل محذرا. لم يفعل واصل طريقه إلى مستشفى الثورة وهو يفكر لو أن واحدا من تلك الكلاب مصاب بالسعر ماذا ستكون النتيجة؟ يستقبله مدير المستشفى الذي لم يعد يغادر إلا نادرا منذ أن حل ابن المسؤول. يسأله الدكتور نشوان عن حالة المرضى؟ يقول بخير. الولد بخير. يقول له: أنا لم أسألك عنه وحده.

* أعرف ولكنه الوحيد الذي حالته مستقرة ولم تتدهور.

* والآخرين ماذا عنهم؟

* الشاب الذي دخل منذ يومين توفى قبل نصف ساعة..

* كيف حدث هذا مع أن صحته بالأمس كانت تبدو متحسنة..

تأتي إحدى الممرضات وتبلغه بأن أمين العاصمة على التليفون ويريد في الحال الدكتور. قبل أن يرد على أمين العاصمة أوجس خيفة. وكان حدسه في محله. إذ قال له: «تلقينا أوامر صارمة فحواها بأن تتوقف الحملة كلياً، وأن هناك تحقيقاً مع الذين أعطوا الأوامر للبلدية بقتل الكلاب. يبدو أن صاحبك سوف يتعرض للغضب وعدم الرضا».

* كل الذي يهمك هو ما سيتعرض له الذي تقول عليه صاحبي؟!

* أفهم ما تعاني وما يهمك، لذا بعد أن جاءني الأمر بالتوقف الفوري.. أخفيت الأمر وتركت الحملة تواصل مهمتها. كل ما هنالك هو أن المكان الذي كانوا متوجهين إليه وهي حارة الأبهر والسائلة. حولتها إلى الحي السياسي، على أمل أن القوم هناك لن يعترضوهم كما فعل سكان صنعاء القديمة الذين استقبلوا عمال البلدية بالعصي ومنعوهم من أداء مهمتهم.

* وما الحل في نظرك الآن؟

* لا أدري. يؤسفني أن أبلغك بأنه لا يمكنني إخفاء الأمر. حتى وإن خالفت وتركت الحملة تستمر لن يسمح بها غيري.

تخبره نفس الممرضة بأن هناك طردا وصل في التو، وأن حامله لا يريد تسليمه إلا لك. المدير الذي كان قد لحق بالدكتور نشوان إلى حجرة الهاتف مواسيا بعد توقف الحملة على الكلاب المسعورة. قال: ولماذا لم تخبروني بوصول الطرد؟ تقول الممرضة: أقول لكم أنه وصل في التو وهأنا أخبركم.. يقول الدكتور نشوان: إنه نفس الطرد الذي كان عبد الرحمن قد وعد

بإرساله من جدة وأخرته السلطات هناك حتى يأتي طلب رسمي من وزارة الصحة هنا. المدير والدكتور نشوان استلماه من حامله وعندما تم فتحه لم يجدا بداخله إلا خمس علب لا تكفي المصابين بداء الكلب حتى الآن.

اتفقا على أن يوزعا الكمية على المستشفيات الرئيسية الثلاثة، الجمهوري والحوادث والثورة، وصل أبو الولد وانضم إليهم في مكتب المدير الذي وقف هاشا باشا وهو يبشره بتحسن ولده ووصول الأمصال. لم يعلق. كان يبدو عليه الضيق بسبب توقف الحملة التي لا يريد الخوض فيها. أدرك المدير بأن الرجل يشعر بالخجل بعد أن وعدهم بالتعاون والوقوف إلى جانبهم حتى يتم القضاء على الكلاب المسعورة نهائيا. ليس في العاصمة فقط. بل في طول البلاد وعرضها. شكره الدكتور نشوان وقال لا يجب أن يكتنفنا اليأس. لابد أن يستمر التعاون حتى نجد الحل بعدها تركهم وقام بجولة على بقية المرضى، وهو يأمل النجاة بعد وصول الأمصال. خلال فحصه للمصاب الأخير يدخل الطبيب المناوب ويخبره بوصول ثلاث حالات دفعة واحدة وكلهم في وضع حرج. يهرع إليهم مع بقية الأطباء الذين منهم كان قد تم تشكيل معسكر استقبال لمواجهة الوباء. مباشرة توجه معهم مدير مستشفى الثورة والدكتور نشوان الذي كان قد وزع كمية المصل الذي يؤمل في مفعوله السريع. لاشيء، الحالة كانت متقدمة. يموت أحد الثلاثة بين يديه يتجه مع بقية الدكاترة نحو الثاني الذي يصرخ بطريقة هستيرية. يسأل كم مرة أخذ مهدئا قبل حقنه بالمصل؟. الأطباء المكلفون باستقبال المصابين بداء الكلب يقول أحدهم: «لقد تم إعطاؤه الجرعة الثانية من المهدئات قبل وبعد أخذ المصل» أقارب المصاب يحيطون به ويربكون الحركة مما دفع بالممرضين إلى محاولة إخراجهم بالقوة. المصل أو الترياق الذي انتظره الأطباء أكثر من أسبوع وعلى رأسهم الدكتور نشوان لم يفعل مفعوله بعد أن كانوا يعتقدون بأنه الحل ولكن يبدو أن لا فائدة. هاهو الأول الذي أعطي له لقي نحبه، والباقون في انتظار نفس المصير...

قبل أن يغادر الدكتور نشوان مستشفى الثورة محطما يائسا يستدعيه المدير ويخبره بأن الحملة على الكلاب المسعورة توقفت تماما. ويزيد من تحطيم معنوياته ويخبره بأن هناك من يطالب بإجراء تحقيق مع الذي أمر بقتل الكلاب بدون وجه حق..

لم يعلق الدكتور نشوان اتجه إلى مستشفى الجمهوري. حاول أن لا يتلفت يميناً أو يساراً لكي لا يرى أطفالاً في عمر الزهور، وهم يسرحون ويمرحون في الطرقات آمنين، وفجأة سوف تهاجمهم الكلاب المسعورة.

في الجمهوري يخبره المدير بأن الوزير قد طلبه أكثر من مرة. لم يكن على استعداد للرد

على أي مكالمة. سأل عن المرضى، يقول له المدير: «نشوان. لماذا انحصر كل تفكيرك في داء الكلب ونسيت الأوبئة الأخرى التي تفتك بالعديد من المواطنين؟ منها داء الكبد. الملاريا. التيفود. وإذا قارنا كل الأمراض بوباء واحد سوف ترجح كفة خطرة عن الثلاثة هو داء السلاح. نعم السلاح يا نشوان. هذا الوباء الفتاك الذي لا يرحم. قبل وصولك بنصف ساعة طلبت المستشفى العسكري مستفسراً عن وصول المصل الواقي من داء الكلب هل وصلهم كما وصلنا قبل ساعة، وهل جربوه إذا كانوا قد أعطي للمرضى ماذا كانت النتيجة التي حققها؟ تحدثت مع المقدم أحمد الذي لم يكن مع أسئلتي بالمرة. كان مشغولا مع ضحايا السلاح. . خمسة عشر رجلا من أعمار مختلفة أصغرهم في الثامنة عشرة وأكبرهم في الخمسين. وأضاف الخمسة عشر جيء بهم في ثلاث عربات بدون أرقام وأن سائقيها ظلوا في مقاعدهم برغم أن اثنين منهم كانت الدماء تغطي ثيابهما، لكنهما رفضا النزول ليتم تنظيف جراحهم. ظلوا في مقاعدهم رافضين حتى إطفاء المحركات. لم ننتبه للسبب أو المغزى من ذلك إلا بعد أن تم خطف أربعة من الجرحى من بين أيدي الأطباء. . الذين قاموا بخطفهم هم الذين جاءوا بهم».

* * *

يستمر الدكتور وضاح في تذكر ما واجه صديقه الدكتور نشوان وإلى أين وصلت وأوصلته، وما بذله صديقهما ردفان قبل سبع سنوات. . يتذكر بأن الدكتور نشوان جاءه إلى الجامعة قبل أن يلتحق بالوزارة. جاء بصحبة ردفان الذي لم تكن قد مرت ثلاثة أشهر على عودته من يوغسلافيا حيث كان ملحقا اقتصادياً فيها قبل أن ينفرط عقدها.

والقاضي أحمد الذي كان يعمل آن ذاك في محكمة بلاد الروس جاءوا ثلاثتهم علهم يجدون الحل لدى الدكتور وضاح لمشكلة الدكتور نشوان الذي أخبره بأن أمانة العاصمة والبلدية تخلو عنه، كما منع من نشر أي إعلان أو تحذير من الكلاب المسعورة. فما كان من القاضي أحمد إلا أن اقترح عليه أن يقوم بصياغة إعلان وهو على استعداد لنشره في جميع الصحف لأنه لن يغضب السلطات العليا، لكنه سوف يساعد على تخفيف الإصابات بداء الكلب. . الثلاثة في صوت واحد «ما هو» قال: «انصح المواطنين باستعمال الحناء لكي لا تعضهم الكلاب!» عندها فتح المجال أمام ردفان ليعلق ويسخر من الدكتور نشوان الذي ضيع الفرص التي أتاحها له قال: «فكرة الحناء فكرة ممتازة. بعدها سيقال في العهد الملكي دهنا أجسادنا بالقطران لكي يحمينا من مرض الطاعون. وفي الجمهورية دهناها بالحناء مخافة من الكلاب المسعورة». .

كان الدكتور وضاح قد حاول أن يثني القضاة عن حضور الجلسة التي ينوي مجلس العلماء عقدها لمساءلة أمين العاصمة ومدير البلدية ووكيل وزارة الصحة الذي حرض على قتل الكلاب. الرجل المسؤول الذي كان قد وقف إلى جانب الدكتور نشوان. تخلى عنه بعد أن تلقى أمراً صارماً من جهات عليا بأن لا يتدخل فيما لا يعنيه. بعد أن تحسنت صحة ولده. أخرجه من المستشفى وغادر البلاد ترك الدكتور نشوان دون أن يمكنه ووزارة الصحة حتى من استيراد الأمصال الواقية التي قد تحد من الإصابة بداء الكلب وخطره. تركه الرجل المسؤول لسخرية ردفان الذي يتهمه بأنه لم يستفد بالفرصة التي أتاحها له في مقيل القات ولم يستغل صلته بالمسؤول الذي أنقذ ولده من موت محقق. الدكتور نشوان رفض الرد على مكالماته بعد أن نصحه بأن يستغل مرض ابن المسؤول للقضاء على الكلاب المسعورة. زوجة الدكتور نشوان هي التي تولت الرد على الهاتف وعندما تخبره بأن المتكلم هو صديقه الغيور ردفان. يقول لها: «نعم ردفان صديقي الغيور لكنه قوي الطباع». بعد رفضه المتكرر الرد على مكالمات ردفان الذي لم يجد وسيلة لإيصال ما يريد قوله إلا أن اشتكي لزوجة الدكتور نشوان من ترفع زوجها وغروره الذي سيجعل أصدقاءه يتخلون عنه واحداً بعد الآخر.. بعدها لن يتمكن التصدي للكارثة بمفرده..

الدكتور وضاح بسمعته الطيبة بين المحامين ورجال القانون كان قد تمكن من إقناع العديد منهم بعدم الموافقة على عقد الجلسة.. وظل يبحث مع الدكتور نشوان عن وسيلة تساعد في القضاء على الوباء دون أن تعرض المواطنين للفزع، ومن ثم تنشغل الأجهزة الأمنية عن أداء واجبها في ملاحقة الخارجين عن القانون الذين يخلون بالأمن والاستقرار الذي يحلم به الكل بعد إعادة الوحدة.. هكذا كان الدكتور وضاح قبل المقابلتين الصاخبتين وقبل أن يتعين وكيلا لوزارة مسئوليتها الأولى الحرص على أن لا يتعرض المواطن لأي تعسف. كان يبحث عن الحلول البعيدة عن التشنج الذي يعرض صاحبه والقضية برمتها للكثير من المتاعب.. هذا ما اقترحه على الدكتور نشوان الذي وعده بالتفكير فيما قاله، وأن يتصرف بحكمة حيال الوباء لكنه بعد أن تطورت المسألة وصار الضحايا الذين يموتون بداء الكلب يقترب من ضحايا السلاح بسبب الأراضي والثارات. لم يجد أمامه إلا أن يوزع المنشورات على المراكز الصحية والمستشفيات وينشرها في الطرقات. كتبها بنفس النص الذي كان يريد نشره في صحيفة ٢٦ سبتمبر وعنوانه «احذروا الكلاب المسعورة».

لا فائدة. أعداد متزايدة من الإصابات تصل يومياً إلى المستشفيات. لا أحد يهتم حسب نصيحة الدكتور وضاح وهي التعامل بهدوء وحكمة مع الجهات المختصة بصحة المواطن وسلامته، جرب الدكتور نشوان الاتصال بالبلدية وأمانة العاصمة علهم يعيدون النظر

ويتعاونون معه. لا أحد يريد الرد عليه. وزير الصحة وحماسه الذي كان منقطع النظير بعد إصابة ابن المسؤول الذي استصحب السلامة وسافر مما دفع بالوزير إلى الانسحاب من القضية برمتها. ترك للدكتور نشوان حرية التصرف في معالجة الأمر بالطريقة التي يراها. بعد الفشل الذريع لم يجد الدكتور نشوان إلا أن يستعين بأهالي المصابين ليتولوا ملاحقة الكلاب بعد أن زودهم بمواد سامة تمكنهم من القضاء على الكلاب المسعورة..

ثارت الدنيا ولم تقعد. وصلت القضية إلى خطباء الجوامع وصارت خطب الجمعة لا تخلو من الهجوم على الذين يحرضون على تسميم الكلاب..

في الحادية عشرة صباحاً كان الدكتور نشوان ووزير الصحة وأمين العاصمة ووكيل البلدية كلهم في مجلس القضاء الأعلى. انعقدت الجلسة وبدأ الحديث صاحب الوجاهة الذي كان حاضرا مجلس القات الذي دعي إليه. إنه نفس الشخص الذي قاطعه قبل أن يكمل جملته قائلا: «هل تريد قراراً جديداً يحرم القات ولا يحرم الخمر؟!» فكان جواب الدكتور نشوان: «عافاكم الله الخمر حرم منذ ألف وأربعمائة عام. أنا لم آتي إلى هنا لمهاجمة متعاطي القات. خزنوا وشجعوا زراعته كما يحلو لكم» قال تلك الكلمات قبل أن ينسحب ويترك ردفان وصاحب المنزل في وضع حرج.. الوجيه كذلك تذكر الدكتور نشوان وما قاله في مجلس القات. لذا بادره بالمساءلة قبل أن يوجهها لوزير الصحة أو أمين العاصمة وممثل البلدية. بعد أن سأل الذي يجلس بجانبه ما وظيفة هذا الرجل؟ قال له إنه وكيل وزارة الصحة وهو المحرض الرئيسي على قتل الكلاب. بعد أن سوى من وضع شاله، قال يبدو أنك من أولئك الذين ينوون إثارة الفتن يا ولدي. لماذا تريد إزهاق روح حرم الله إزهاقها؟ قبل أن يرد تدخل أمين العاصمة قائلا « الدكتور نشوان أراد حماية المواطنين من الأمراض والأوبئة التي تنشرها الكلاب الضالة. كلنا كنا نريد مساعدته إلى النهاية لولا الأمر الذي جاء بتوقف الحملة»..

يسكته الرجل الوجيه ويقول: «لقد ساعدتموه بما فيه الكفاية ونشرتم الرعب والفزع بين المواطنين الذين أردتم حمايتهم. بحملاتكم الليلية على الكلاب الآمنة والسارحة في أرض الله. لقد ارتكبتم جريمة بتلك الحملة»..

الرجل الذي يجلس على اليسار يقول «كانت حملة دنيئة ومذبحة رهيبة قامت بها أمانة العاصمة بمساعدة عمال البلدية. لا يجب التسامح مع منفذيها أو من أمر بارتكابها».

الرجل الذي يجلس على يمين الوجيه يقول: «صحيح أنه إذا كان هناك حيوان أي حيوان يهدد حياة الإنسان، فيجب التخلص منه إما بنفيه في البراري البعيدة أو قتله، ولكن من أكد

لكم بأن الكلاب التي قمتم بقتلها مصابة بالسعر؟!» أمين العاصمة كان قد علم بأنه هو الذي سيرأس الجلسة. وأخبر الباقين بذلك.

وقف الدكتور نشوان وطلب من مجلس العلماء الموقر أن يسمحوا له بالحديث دون مقاطعة. قال: «لم نلجأ إلى ما سمح به الشرع وهو التخلص من الحيوان الذي يضر بصحة الإنسان، وقد يتسبب في موته إلا بعد أن منعنا من ممارسة ما يخوله القانون في تنبيه المواطنين وتحذيرهم من الأخطار التي تهدد حياتهم وأولادهم. لم يسمح حتى بنشر إعلان صغير عن الوباء. بعد أن استفحلت الحالة وتزايد عدد المصابين، لم نجد إلا اللجوء لما يقره الشرع وهو التخلص من الكلاب المسعورة»..

ثالث ورابع في صوت واحد: «لا يجوز قتل الكلاب».. وسط تلك الضجة وتداخل الأصوات التي تقول لا يجوز قتل الكلاب. قال أمين العاصمة: «إذاً ليس هناك حل إلا جمع الكلاب ووضعها داخل بيوتنا والعناية بها» الرجل الوجيه: «لا.. إدخال الكلاب إلى المنازل حرام». مندوب البلدية قال: لا يقصد الأمين إدخال الكلاب وتركها تأكل وتشرب معنا. لم يقل إلا أن نسمح لها بالعيش داخل أسوار المنازل قال ذلك بعد أن شعر بأن مساءلة مجلس العلماء ومحاولتهم إدانة الدكتور نشوان الذي لم يرتكب ما يستحق الاستدعاء إلى مجلسهم الموقر..

بعد أخذ ورد وتهديد مباشر للدكتور نشوان وأمين العاصمة من قبل المتعصبين ولفت نظر من بقية العلماء وتعهدات من أمين العاصمة والبلدية بعدم تكرار قتل الكلاب سواءً عن طريق الحملات أو تسميمها.

قبل أن ينفض المجلس أراد الدكتور نشوان أن يطلب من العلماء الأفاضل أن يساعدوا على نشر التوعية بين المواطنين من خطر الكلاب المسعورة. ولكن صديقه ردفان الذي حضر في آخر الجلسة وسمع المساءلة الأخيرة، وحمد الله أنها انتهت على تلك الصورة. ساعد أمين العاصمة على سحبه إلى خارج القاعة..

التزم الدكتور نشوان بالاتفاق ولم يعد يضع السم للكلاب أينما صادفها. لكنه استمر في توزيع التحذير الذي كان يرجو نشره في الصحف. وصار ينبه كل زائريه من خطر الكلاب المسعورة.. بعد أن علم وزير الصحة بأن الدكتور نشوان لم يتعرض لأكثر من لفت النظر.. مكنه من الحصول على المزيد من الأمصال الواقية.. الدكتور نشوان الذي كان على صلة مستمرة بصديقه الدكتور وضاح طوال المحنة التي تعرض لها. بعد نجاحه في التوعية، وكيف أنه لم تمر فترة حتى اختفى داء الكلب نهائيا. جاءه ليخبره بأنه على حق في تأمله بتحسن الأوضاع..

نجح الدكتور نشوان في القضاء على داء الكلب تقريباً، كما نجح في دفع الدولة على تبني حملة وطنية للقضاء على شلل الأطفال. لازالت الحملة مستمرة وصار معظم المسئولين يتباهون بظهورهم على شاشة التليفزيون ونشر صورهم في الصحف وهم يعطون الأطفال الجرعات. .

الدكتور وضاح بعد أن تذكر قصة صديقه بكل تفاصيلها. قال لنفسه: ترى هل سيتمكن هو من تخليص البلاد من الصفقة المريبة التي يسعى نائب الوزير لتنفيذها؟ عدد أسماء الشخصيات التي يمكن أن تحول دون دفن النفايات. من جديد عدد تلك الشخصيات التي تعاونت مع الدكتور نشوان. وكيف أنه كان لبعضهم مواقف مشرفة في السابق. من بين تلك الأسماء وجد اسم وزيره الذي خذله اليوم. وجد سجله من أنصع السجلاّت. كان ذلك السجل قبل أن يستدفئ المكان، ويسترخي على كرسي الوزارة الذي أوهم بأن بقاءه عليه يرجع للنائب. . .

بعد رحلة طويلة قطعها الدكتور وضاح بين مجالس المسؤولين وحبل أفكاره. قبل أن يتناول طعامه دخل إلى غرفة النوم وبدلا من أن يخلع ثياب الخروج ويرتدي ثياب المنزل راح في سبات عميق. لم يدرك كم استغرق في النوم. كانت الشمس قد غربت وحل الظلام. استيقظ على صوت الأولاد ووالدتهم تحاول إسكاتهم. خرج اليهم وجلس وسط أسرته يكابد من فشله الذريع في إيجاد من يقف معه من بين تلك الشخصيات التي كانت لها مكانة. فاتح زوجته وأخبرها بقراره الأخير وهو الفرار. . انتظر ردود الفعل. والدته بادرت قائلة باقتضاب: «أرض الله واسعة وأينما تولى وجهك سوف تجد ما يناسب مؤهلاتك. . توكل على الله». أما زوجته فقد اعترتها الدهشة والوجوم للمفاجأة. سبق لها أن عرضت عليه قبول الإعارة والسفر إلى بلد عربي شقيق، رفض رفضاً قاطعاً. أمة العلي هي نفسها لم تكن متحمسة لسفر زوجها في إعارة للخارج. تعرف مسبقا أنه لن يقبل ذلك. مرة ومرات فاتحته في موضع السفر بمفرده والعمل عام أو عامين في دول الخليج كان دائما يرفض، إلا أنها كانت تتمنى أن يقبل زوجها الإعارة. قد يتمكنان من امتلاك واحد من المساكن العصرية في «حدة» أو «عصر» أو مدينة «الأصبحي» رغم قناعتها بوظيفتها المتواضعة في عمل إداري مريح ينتهي دوامه في الواحدة ظهراً، كانت تتمنى قبوله الإعارة حتى وإن رغب أن ترافقه مع الأولاد أو بدونهم. كانت تحدث نفسها بتعلق الأولاد بجدتهم ولا مانع أن تتركهم معها. لكنه كان يرفض الفكرة من أساسها. تحدثه عن زميلاتها في العمل وكيف يعرضن توصيلها بسياراتهن وترفض بحجة أنها تفضل المشي. لكنه كان يرفض فكرة السفر من أساسها. دفعها إلى القناعة الكاملة بحياتهم البسيطة، ولم تعد تتطلع إلى وضع معيشي أحسن. .

بسهولة كانت تتخطى المزالق بحكم فضيلة الاستغناء التي استمدتها منه. لم تكن تغريها الكماليات التي يأتي بها العائدون. هكذا أفهمها زوجها..

العقبات المادية التي كانت تعترض طريق حياته لم يعطها أي أهمية. كان يقفز فوقها بمهارة. كل التلميحات الخفية أو الصريحة من أهل زوجته وأخته وزوجها تجهضها قناعته العميقة بأكفاف الرضا والستر. صديقه الحميم عبد الباري في مرة صرخ في وجهه قائلاً: «قاض لم يضع نصف عمره في التحصيل العلمي. اكتفى بما درسه على يدى فقيه القرية وبوراثته القضاء عن والده الذي ورثه عن جده. احتل أكبر المناصب يتمتع بمزايا واعتمادات أفضل منك».

سأله من القاضي الذي تتحدث عنه يا عبد الباري، هل هو أحد زملاء المكتب؟ ضحك عبد الباري وقال: لا وأنت الصادق. إنه القاضي الذي تذهب إليه الوزارة!

والدته هي الأخرى برغم قناعتها بنظريته. إلا أنها من حين لآخر كانت تتأثر عندما تراه وزوجته.

يتحركان إلى العمل في الثامنة صباحا وتعود زوجته في الواحدة ظهرا منهوكة وأحيانا تعود بعد ذلك.

الوقت. هو لا يعود إلا بعد الرابعة. عمل متواصل بدون أي زياد في دخله. تقول له لو تحدثت مع أي أحد عن ظروفك المادية لن يصدقني. بعض الأحيان تنضم إليها زوجته وتشاركها في لوم وضاح الذي يعطي الاستشارات القانونية مجانا. وتتحسر على الساعات التي يضيعها ليليا في مراجعة رسالة طالب يريد أن يأخذ عليها شهادة الماجستير أو الدكتوراة يراجعها ويصححها ويكتب الملاحظات. وفوق هذا كان يوزع معظم كتبه مجانا على الطلبة الذين لا تسمح أوضاعهم المادية بشراء المراجع.

لم يستغرق الحديث عن السفر وقتا طويلا رغم أهميته. كان الأولاد قد فرضوا وجودهم وصخبهم حول قطعة الحلوى التي أعدتها أمة العلي ونسيتها في الفرن، ومن الذي كان نصيبه الجزء المحروق، ومن الذي حصل على القطعة الكبيرة بدعوى أنها لم تقطعها بالتساوي وأن نصيب أروى كان كبيرا، لأن الجدة تحبها أكثر من أخواتها. ثم راحوا يتزاحمون من يستعمل الحمام أولا، ومنهم من يشتكي من التوأم الذين يعبثون بممتلكاته، ومن الذي سينام مع الجدة. وأي الحكايات سترويها. قبل المقابلتين الصاخبتين كان يحسد نفسه وهو وسط الجو العائلي السعيد، كان يرى أن والدته وزوجته ليستا على حق في إبداء التذمر. بعدها يسأل نفسه: ها هي السعادة ترفرف في أجواء أسرته.. فماذا ينقصها إذن؟ كل متطلبات الحياة يراها

موجودة. لهم بيتان، بيت الأسرة الواسع في صنعاء القديمة ويتكون من أربعة أدوار. صحيح إنه صار بحاجة للإصلاح والترميم. كانا قد فكرا في ذلك لكنهما وجدا أن العملية تلزمها مبالغ كبيرة. فكر في أخذ سلفة من الوزارة لكنها لم تتم وكان ماكان من الزميل الذي كان مكتبه يجاوره عندما كان له مكتب خاص في الدور الرابع. عرض عليه تخليص قضية تمكنه من حل جميع مشاكله المادية. لم يكتف وضاح بالرفض. بل وهدده بأن يرفع القضية إلى أعلى مستوى وفعلا نفذ التهديد وأوقف التلاعب في الحكم الذى كان على وشك الصدور ضد مجند مستحدث كلف بحراسة قطعة أرض، كان الخلاف بشأنها على أشده بين شخصيتين متنفذتين كل واحد يدعي بأنه استولى عليها قبل الآخر خلال العراك قتل شخص. من هنا اتفق المتنازعون على أن القاتل هو المجند الذي لم يكن حاضرا خلال المعركة. ولكنهما أي الخصمين حملاه جريمة القتل وحكم عليه بالسجن المؤبد بدلا من الإعدام. عندما وصلت الأوراق إلى الدكتور وضاح طلب إعادة التحقيق، ومن هنا ظهرت براءة المجند من جريمة القتل. القاضي الذي أوكل للفصل في القضية وخسرها مع المبلغ الذي كان يتوقعه شن حملة شعوى ضد الدكتور وضاح وانضم للنائب في محاربته. أول ما قام به هو عرقلة السلفة وعدم الموافقة على صرفها. لم يهتم الدكتور وضاح وزوجته بالسلفة، صرفا النظر عنها ووجدا بأن استئجار سكن جديد أرخص من إصلاح منزل الأسرة الذي حتى وإن تم ترميمه تظل درجات السلم عالية ولاتقوي أمة العلي علي صعودها بعد أن صارت حاملا للمرة الرابعة. الوقت والإمكانيات المادية لاتمكنهما من هدم السلم وإعادة بنائه من جديد. كما أن أمة العلي. لن تطلب إجازة من عملها إلا في نهاية الشهر السابع للحمل. مع أن وضاح كان يريدها أن تأخذ الإجازة منذ أن أخبرتهما الطبيبة بأنها تحمل توأمين. ثم أضافت الطبيبة وهي تبتسم: «من الجائز أنهم ثلاثة» من هنا بدأ البحث عن منزل آخر بدون سلالم عالية. لم يتم العثور على المنزل المناسب من كل النواحي إلا بعد مجيء التوأم وكانا اثنين بنتا وولدا. البيت الذي استأجره بعد مجيئهما. حجراته كافية. هناك حجرة للولدين الكبيرين وأخرى لأروى والجدة عندما تكون معهم. التوأمان ينامان معهما، وهناك حجرة الصالون والسفرة إلى جانب الديوان الذي حوله إلى مكتب. كان ذلك بعد موافقة أمة العلي التي استحسنت الفكرة. . وهكذا دائما كان يشركها في كل شيء إلا همومه الشخصية التي يكابدها في عمله. كان يحسب حساب أسرته ويشكر الله علي التوافق والانسجام بين أفرادها. كان يرى بأن ما يلزمهم من ضروريات الحياة متوافرة. تبرم زوجته ووالدته ليس في محله. ويرى الأشياء الجميلة موجودة. صحيح أن أمة العلي تشتكي من الغسالة اليدوية وتتمنى استبدالها بأخرى «فول أتوماتيك»، لكنها اقتنعت في النهاية بالمثل القائل «على قد لحافك مد رجليك»، وعندما سألته ابنته أروى: «لماذا لا يوجد لدينا طبق فضائي» دش «للفرجة على قنوات العالم؟» بكل

بساطـة أقنعها بأن القنـوات الكثيرة ستشـغلها وأخواتهـا عن المذاكرة. كما أنها تبث برامج لا يحبذ أن يشاهدوها. بعـد أن يجدها وأخوتهـا سعـداء ببـرامج الأطفال التي تبثهـا القناة المحلية. يزداد رضاءً وقناعة بأسلوبه في إسعاد أسرته.

مقابلة تليفزيونية

التذمر الذي كانت تبديه أمة العلي من زوجها. كفت عنه ولم تعد تساير الذين ينتقدونه، من طول العشرة اقتربت من فكره ومشاعره وطموحاته. زاد فخرها به واستقامته وتفانيه في عـمله.. عندما يكون لديها متسع من الوقت. تدير جهاز «الفيـديو» لمشاهدة المقابلة التليفزيونيـة الشهـيرة التي أجراهـا معه المذيع في برنامـج عن سـاحة القضاء والقوانين التي لا تنفذ. أعجبت بالطريقة التي طرح بها الوضع وكيف بدا هادئا، وأجاب بمنطق محكم ولغة بليغة. شرح الأسباب التي تشجع البعض على الاستهتار بالقانون.. تتحسر على ما كان في حياتهما من خير كثير وهموم قليلة وشر قبل تلك المقابلتين الصاخبتين. التي غيرت كل شيء وجعلت زوجها يجنح إلي العصبية والانفعال علي غير عادته.. لم يكن يفكر في الهجرة ولم يخطر على باله قبول العروض المغرية للعمل بالخارج. اليوم عاد وفتح الموضوع بكل جدية. كانت قد يئست من السفر. لم تعد تطالب بأكثر من الاستقرار والأمان حزمت أمرها وقالت له: لا لن أقبل الرحيل. مهما كان.. أما إذا كان ولا مفر سافر وحدك ونحن هنا قاعدون في انتظارك. يقول: تعبت يا أمة العلي وأتعبتكم معي وأحرجت كل أصدقائي. كلهم يسدون إليَّ النصح بعدم التصدي لنائب الوزير. هذه المرة لن أهادن حتى وإن وجدت من يتعاون معي لإجهاض المشروع المشبوه. لن أبقى. لم يعد أمامي إلا الهجرة...

تقول والدته: أنت الذي كنت تنصح زملاءك بالصبر والتحلي بالحكمة ماذا جرى؟! هل تتذكر موقفك مع الدكتور نشوان عندما جاءك يائسا محطما؟ لقد دفعته للمواجهة ونجح. قال: تغيرت الأوضاع من سيء إلى أسوأ، لم يعد هناك من يهتم بالمصلحة العامة. كل واحد لم يعد يهمه إلا جمع الثروة بأي وسيلة..

تقول زوجته: اترك الجامعة والوزارة إذا كان هذا يريحك ويجنبنا المشاكل...

يقول لم تعد لي رغبة حتى وإن صلحت الأمور. مع أن المؤشرات لا تدل إلا علي المزيد من التدهور..

* بإمكانك أن تستقيل من الوظائف الحكومية وتعمل في الجامعات الخاصة..

* لن أستمر في أي عمل لست مقتنعاً به. أرجوكِ لا تحاولي إثنائي عن قراري.

* الأولاد ودراستهم. والدتك وهي في هذه السن هل فكرت في مصيرهم؟.

* كفاك حجج وأعذار. الأولاد سيلتحقون بالمدارس حال وصولنا، ووالدتي ستبقى مع أختي وتأتي لزيارتنا متى شاءت. عليك بالاستعداد للسفر.

* وماذا عن أحلامك. لماذا تتخلى عنها بعد أن جعلتني أحلم معك بغد أفضل..

* أنتِ لا تدركين ما أواجهه. سيصيبني الجنون إذا بقيت هنا صدقيني..

* ما تواجهه اليوم سبق وواجهت ما هو أمر وأدهى ولم تفكر في الهروب..

* هذه المرة الوضع يختلف. لم تعد القصة مجرد إهمال وفوضي، بسبب الجهل أصبح الوضع تنافساً غير شريف وتآمر اً ورشوة وتهديداً لمن ينجز معاملة دون أن يمر صاغرا عبر النفق المظلم وأنت أعلم من غيرك أنني أرفض تبرير الفساد!

* لماذا لا تنقل هذا الواقع المرير للوزير؟ وإن اقتضى الأمر عليك أن تعرض الأمر علي أعلى مسئول في الدولة!

* لم يعد ذلك ممكناً. أنا مهدد بالقتل. هل تفهمين؟

عندئذ فقط لم يعد أمام زوجته إلا أن تفكر في موافقته على السفر. ولو لبعض الوقت وبعدها يحلها ألف حلال تذكرت دخوله أول يوم إلى قاعة المحاضرات في كلية الشريعة والقانون، مشى بجبهة مرتفعة بدون تعال. خطواته تنتقل جنباً إلى جنب مع خطوات العميد، كل شيء فيه كان يوحي بالثقة مع الاهتّمام بالأناقة والتناسق بدون تكلف. كانت أمة العلي في السنة الثالثة عندما رأته يجتاز المدرج المكتظ بالطلبة والطالبات وبصحبة عميد الكلية الذي قدمه قائلا: «يسعدنا أن ينضم إلينا الدكتور وضاح وسوف يلتقي بكم في محاضرة كل أحد وأربعاء».

قبل أن يغادر العميد ألقى نظرة فاحصة على القاعة وقال: «الدكتور وضاح حصل على الدكتوراه من أشهر الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي جامعة كولومبيا في نيويورك. لقد ترك كل المغريات وفضل أن يكون بيننا». خلال حديث العميد، كان الدكتور وضاح يضع حقيبة يده على المنضدة بهدوء، والطلبة كلهم عيون ترقبه بإعجاب وشغف لمعرفة المزيد عن هذا الأستاذ الواثق من نفسه ومن خطواته ونظراته التي تنم عن جدارة ومعرفة تامة بكل ما حوله.

من بين العيون التي كانت تتفحصه وترقبه كانت عيون أمة العلي. لم تمر شهور إلا وزميلاتها يتحدثن عن إعجابها بالدكتور الذي تحرص ألا تفوتها محاضراته.

بعدها أصبح إعجاباً متبادلاً بينهما. الدكتور وضاح كان تعاقده مع الجامعة والتحاقه بهيئة التدريس. لم يكن قد تم تعيينه في الوزارة بدرجة وكيل مساعد. لم تكن وظيفته ذات شأن يذكر. بعد فترة أشيع بأنه قد تم ترشيحه نائب وزير بعد أن أثبت كفاءة عالية في عمله. كان ذلك الترشيح من قبل الوزير نفسه. تردد آنذاك أنه لن يقبل العمل مع النائب الأزلي الذي يتصرف وكأنه فوق الجميع. في بداية عمله لم يكن بينه وبين النائب أي احتكاك. إلا أنه كان يلحظ بعض العراقيل من النائب وحاشيته. لكنه كان يتمكن من معالجتها. بهدوء ولباقة حتى أشيع خبر التعيين. من هنا بدأ النائب في الغيرة من كفاءته ونجاحه في عمله ثم محاربته علنا. حتى بعد أن تم تعيينه وكيل وزارة ظل النائب يترصده ويحاصره ويلغي أو يعطل ما استطاع تعطيله وعرقلة القضايا والأمور التي كان قد تمكن من حلها وإنجازها. فكر في هذا الوقت المبكر أن يترك الوزارة خاصة بعد أن وجد ضالته في الجامعة التي أتاحت له الفرصة للمزيد من البحث الأكاديمي. معظم أصدقائه نصحوه بأن يحتفظ بوظيفته في الوزارة، فقد يتمكن وهو في سلطة القرار من تحقيق طموحاته في نشر الثقافة والمبادئ التي يحلم بها. المستقبل الزاهر في طريقه إليه. من هنا وجد أن هذا الهدف يستحق المزيد من الصبر وتحمل الحماقات التي يواجهها في الوزارة. .

ارتباطه بأمة العلي تم قبل تعيينه في الوزارة بدرجة وكيل. يتذكر اليوم الذي كان فيه يتجاذب الحديث في مسائل جامعية مع العميد في حضور أستاذة تدرس في نفس الكلية. لمحت له علي استحياء ما يتردد عن إعجاب متبادل بينه وبين إحدى الطالبات. دون أن تذكر الاسم. تنبه إلي أن سمعته باتت عرضة للقيل والقال، لم يمر شهر حتى كان يفاتح والدته وأخته برغبته في الزواج، في البداية تشككت أخته خاصة وما سبق لها أن عرضت عليه الزواج ويطلب تأجيل البحث عن عروس. وهاهو يبدد شكها السابق، حين كانت تعتقد بأنه كان مرتبطا بفتاة أجنبية تنتمي إلي البلد الذي كان يدرس به في الخارج. والدته لم تسعها الفرحة، عادت لبحثها القديم عن عروس من أسرة كريمة تناسب ولدها لم تكن على علم بأنه قد حسم الأمر واختار، وما عليهنّ إلا مفاتحة الأسرة التي وقع الاختيار على ابنتها. خلال أسبوع تمت الخطبة. وتكتشف الأسرتان أن بينهما صلة قرابة. وكان قد سبق للأم أن أبدت رغبتها لابنتها أن تبحث عن عروس له من تلك الأسرة. .

لم يكن الدكتور وضاح قد رأى وجه أمة العلي قبل الخطبة، كانت من الفتيات المنقبات في الجامعة. لكنه أعجب بثقافتها التي دلت عليها أجوبتها المستوعبة لكل ما قرأته في الكتب أو

سمعته في المحاضرة. تتحدث وتناقش بثقة. لم تكن من صارخات الجمال. وإنما اعتدالها في كل شيء كان يضفي عليها جمالا آسرا في نظره. الأشياء التي لا تعرف الاعتدال فيها. إيمانها القوي بدينها وتراثها وحب الوطن والأسرة. لذلك لم يكن من السهل عليها أن تقتنع بفكرة الهجرة أو الهروب كما يسميه زوجها. لكنها أدركت بأن ما يتعرض له فوق كل احتمال ممكن!

تقول حماتها: «الغربة كربة» لكنها تدرك بأن زوجها لن يقبل السفر بدونها والأولاد.

وجدت بأنه ليس أمامها إلا الموافقة على السفر. خاصة بعد أن صار هناك من يهدده بالقتل إذا لم يصمت: فليس أمامه إذن سوي أن يترك البلاد وليس عمله فقط. تزايدت التهديدات من خلال المكالمات التليفونية، أدركت أمة العلي أن حياة زوجها معرضة للخطر إذا لم يغادر. صارت هي التي تحثه على سرعة إتمام إجراءات السفر، وراحت تطمئنه بأن غربتهم لن تطول!

الدكتور وضاح الذي بدا وكأنه يتلكأ في السفر قبل أن يتأكد بأن الصفقة ألغيت. فض تعاقده مع الجامعة أمره بسيط لن يواجه صعوبات.

زملاؤه خف قلقهم عليه بعد أن تأكدوا بأنه لن يتراجع عن الرحيل. الوضع صار مختلفا جداً بعد أن اطلعوا على ما يؤكد تعاقده بالفعل مع الجامعة المشهورة. الكل شعر بالأمان منذ أن اتخذ قرار الرحيل.. والدته بعد أن أطلعتها زوجته على الخطر المحدق به باركت السفر وكررت قولها «أرض الله واسعة»:

اليوم التالي بكر إلي قيادة سيارته في طريقه إلي أحد زملائه قرر أن يهبها له شرط أن يسلمها له يوم سفره الذي لن يحدده بعد، عندما وصل مكتبه وجد بانتظاره أحد وكلاء الوزارة الذي يستعد لتسلم مهام منصبه فور استقالته. نقل إلي مسامعه حفنة من الأخبار، بينها وأن الوزارة في حالة ارتباك بعد زيارة الأغراب الثلاثة وقد يستقيل الوزير. بل قد تتغير الوزارة كلها، وأن الرأى العام صار ضد الحكومة خاصة بعد أن تم رفع الأسعار بطلب من البنك الدولي. من بين كل تلك الأخبار فاضت به السعادة عندما سمع منه ما يشير إلي احتمالات إلغاء مشروع دفن النفايات. لكنه حذره من النائب الذي لن يغفر له مساعيه في هذا الإلغاء...

بدأت بعض صحف المعارضة في نشر أخبار الصفقة بالبند العريض في صدر صفحاتها، من هنا أدرك جدية الأخطار التي تتهدد من كل حدب وصوب وبدا يحتاط للأمر. ساءل نفسه: إلى هذا الحد انقلب السحر علي الساحر، وبات احتمال إلغاء صفقة النفايات المشبوهة

وشيكا . من بين المواقف الطيبة التي وقفها أصدقاؤه وزملاء المكتب تذكر موقف صديق قديم برغم الفوضى التي يعيشها في شؤون حياته وتهوره وتدخله في شؤون أصدقائه إلا أنه مشهود له بالاستقامة ، إنه ردفان الذي لم يسأل عنه ولم يره منذ كان الدكتور نشوان في محنة . لكن ردفان بعد أن علم بأن صديقه وضاح يواجه متاعب جمة ، أعاد الاتصال به وعندما عرف بالمؤامرة لم يخذله . صحبه إلي لقاء مسئول كبير يعرفه بعد أن قدم الدكتور وضاح وأبلغ المسؤول ما يحاك ضده . انسحب في هدوء لأنه أحس بأن المسؤول يريد التحدث مع وضاح على انفراد . بعد أن ترك ردفان قام الرجل ورحب بالدكتور وضاح ودعاه للجلوس . بعد أن تم إغلاق الباب همس له بأن هناك بعض زملائه يكيدون له كيداً . لذا عليه أن يتفادى أي شبهة أو تهمة قد تضره مستقبلا . الدكتور وضاح يخبره بأن كل ذلك لم يعد يهمه كل الذي يهمه هو إلغاء الصفقة المريبة التي يراد تمريرها . وتحويل البلاد إلى مقبرة للنفايات . .

يقول له : «وأنت يا دكتور هل أنت مطمئن على حياتك؟ أخشى مصارحتك بأن أي مسؤول لن يحميك» .

لست خائفا على حياتي بقدر خوفي من الخطر الذي ستواجهه الأجيال القادمة .

تعرف يا دكتور ما هي التهمة التي ستلاحقك؟ إنها تهمة الوفاء . أعرف ذلك من الشكاوي والتقارير الكيدية التي تصل إلى هذا المكتب . ولكن لا تقلق سوف أهتم بذلك بنفسي حتى يظل الوفاء التهمة الوحيدة التي تلاحقك .

قبل أن ينصرف الدكتور وضاح من المكتب كان ذلك المسؤول كان قد طلب من سكرتيره الخاص أن يطلب له رقما معينا . سمعه يخبر الشخص الذي على الطرف الآخر بموضوع الصفقة وأضرارها وما قد يترتب عليها . .

أثلج صدر وضاح حديث ذلك المسؤول بعد أن لمس جديته وحماسه . . لم تستمر سعادته طويلا . لحظ الامتعاض على سحنته وهو يحاول أن يلصق سماعة الهاتف بأذنه حتى لا يسمع ما يقوله الطرف الآخر . عدوى الاهتمام بالدكتور وضاح من قبل المسؤول كانت قد سرت إلى مدير مكتبه الذي نهض من على مقعده وأبلغ الحارس أن يصحبه إلى غرفه جانبية مخصصة لاستقبال الضيوف المهمين . الدكتور وضاح لم يعد خافيا عليه التغيير الذي طرأ . لكنه لم يعترض على تغيير الوجهة . الحارس الذي صحبه أدرك ما يدور وبدأ يبدي حماسه وتشجيعه علي موقفه المعارض للمشروع المشبوه . . مع الدكتور وضاح كان قد عرف صاحب الصوت الذي كان علي الطرف الآخر خلال المكالمة الهاتفية . إنه النائب الذي سمعه يقول : «من الدكتور وضاح ومن أبوه؟! . لا تسمح له بمقابلة(الفندم . .) أو مقابلتك مرة ثانية .

الدكتور وضاح أدرك وفهم وفسر موقف الرجل الذي كان ردفان قد أفهمه بأنه ليس بالضعف الذي عليه الوزير. لم يستسلم ردفان حث وضاح على المواجهة وظل يتنقل معه بين مكاتب معارفه الذين يتوسم فيهم خيرا لعلهم يساعدونه على مقابلة المسؤول الأول لكي يشرح له ما يجري.

الدكتور وضاح برغم المعاناة إلا أنه تجاوب مع ردفان الذي أصر أن لا يدعه يرحل، وأن عليه البقاء حتى تتم المقابلة التي يعتقد بأنها ستكون الفصل. . .

بعد أن صار وضاح يلغي كل مواعيده مع أصدقائه وزملائه وأصبح يتبع ردفان ملغيا كل تفكيره. لم يكن من أمة العلي إلا القول: ردفان هو الصعلوك الحقيقي وليس رفقاؤه في الوزارة. ما الذي يجعل زوجها يقل من مكانته المرموقة ويتبع ردفان إلى مكاتب المسؤولين ومنازلهم! ما العمل؟ لمن تلتجيء؟ من الذي بإمكانه إيقافه؟ فاض بها الكيل هي الأخرى ولم تعد تحتمل البقاء. صارت تحثه على السفر. هي وأمه وأخته صرن يخفن على قواه العقلية لإصراره على مقابلة المسؤول الأول.

لم يعد يهمه إذا تعرض وأطفاله لمخاطر وخاصة أن استقالته من الجامعة ومن الوزارة لم يخبره أحد بقبولها أو رفضها. . زوجته كانت قد علمت بأن استقالته قد قبلت وبعدها يخبرها الأستاذ عبد الباري بأن استقالة زوجها لم تقبل. حالة الخوف والترقب بقيت كما هي. كل الذي تغير هو أن تلك التهديدات التي كانت تأتي عن طريق الهاتف، خفت. بعدها توقفت تماما. من هنا لم يعد زوجها يسلك الطرق البعيدة حتي يصل جلسات المقيل وإلي الشخصيات النافذة التي يريد مقابلتها دون نتيجة يعود ويحاول مقابلتهم في مكاتبهم. ولا يجد من بينها صدراً رحباً أو إحساساً بالواجب أو وفاء للوطن وأهله.

خلال تلك الفترة العصيبة. تخففت أمة العلي من القلق على زوجها، قالت لنفسها: ربما قد فقد توازنه أن ذلك أهون من فقدانه. . .

بدأت تطمئن بعض الشيء على حياته واستبعدت فكرة الهجرة وهموم السفر تماما في الوقت الذي بدأ. أقرباؤه وأصدقاؤه في البحث له عن عمل في الجامعات الخاصة ومكاتب المحاماة. رفض وظل متمسكاً بالهجرة لكنه لا يريدها أن تتم قبل أن يصل إلى المسؤول الأول. لم يعد له حديث أو نقاش مع وزوجته، إلا عن المقابلة التي يعتبرها أهم عمل وأهم واجب وطني عليه القيام به قبل السفر.

بعد أسابيع من القلق والإجهاد يأتي للدكتور وضاح من يقول له إنه قد يتمكن من تحديد اللقاء الذي يسعي إليه. يعد نفسه للمقابلة المنشودة حضر إلى المكتب الذي وعده بمقابلة

المسؤول. حسب الموعد الذي ضربه له لكنه لم يجده. يحدث نفسه ويقول. هكذا هي الحالة. لا أحد يلتزم بالمواعيد..

خطرت له فكرة تري هل أستطيع. أن أجعل الوزير يتحمس ويكون هو الذي يطلب مقابلة المسؤول الأول ويشرح له الخطر. لم يأخذه التفكير طويلا في الموضوع. بعد أن اقتنع بسلامة فكرته. وجدته أمة العلي يستقل سيارته ويتوجه للوزارة مبكرا! لم تعترض أو تستعين بحماتها التي صارت مقيمة دائمة منذ أن عرفت بالخطر المحدق بولدها. تركته يتصرف بالطريقة التي يراها عند وصوله إلى مرآب السيارات وجد عربة أخرى تحتل مكان عربته. لم يعر ذلك اهتماما. ولكن الحارس الذي يرى بأن عربة وضاح أهم عربة. في اليوم الثاني والثالث الحارس نفسه يقول له: «لماذا قدمت استقالتك وتركتنا يا دكتور!؟». يعود للحديث مع نفسه ويقول: «غريب أمر هذا الحارس! طوال الأيام التي أتيت فيها يوجه لي نفس السؤال، لماذا تركتنا؟! أن أمره غريب! يراني ألف من مكتب لمكتب ولا يدرك لماذا تركت. هل أخبره السبب ولماذا أتردد على الوزارة؟ ولكن أنا نفسي لم أعد أدري ماذا أريد! آه. أريد مقابلة الوزير. نعم الوزير بإمكاني أن أعيد له الثقة بنفسه ومكانته العلمية» بعدها يعود وضاح إلى وضعه المزري وتعلقه بقشة لا يمكنها إنقاذه من الغرق..

صعد إلى الدور الرابع حيث يوجد مكتب مدير مكتب الوزير.. تقدم هذه المرة وكله ثقة بأنه لن يفشل.. كان لديه إحساس، بل كان متأكدا بأن مدير المكتب سوف يبلغ الوزير برغبته في مقابلته.

يعرف أن مدير مكتب الوزير مسالم وسبق له أن قال له أكثر من مرة: «تجنب مواجهة النائب» حسنا سوف أقول له: «النائب الذي تخشاه في رحلة خارج البلاد».. كان يحدث نفسه وهو يصعد السلالم بأن مدير مكتب الوزير سوف يسهل المقابلة، طالما أن النائب الذي يخافه غير موجود، كذلك الوزير سيرحب به وعندها أذكره بمواقفه الشريفة عندما استلم ذلك التقرير المزيف بأن وضاح يحرض الطلبة على الشغب والخروج في مسيرات.. فوق ذلك هو لا يريد منه أي خدمة.. كل الذي يريده هو أن يمكنه من مقابلة المسؤول الأول قبل السفر..

عاد للحديث مع نفسه: «بالتأكيد لن يرفض مقابلتي. هو يعرف المهمة التي أتيت من أجلها.. كما أنه يعرف مبادئي التي لم ولن أتخلى عنها مهما واجهت من مصاعب. يعرف ذلك حق المعرفة. سبق له وأشاد بموقفي حيال ذلك الرجل الذي أتى بأوراق مزورة وادعى بملكية أرض واسعة، نصفها كان لبعض المزارعين البسطاء. والنصف الآخر ملكاً للدولة. لم تشفع له عندي قرابته من أحد المسؤولين كما شفعت له عند غيري. كل الذين حضروا

الاجتماع يذكرون تلك الواقعة التي جعلت الوزير يقف ويصافحني ويشيد بي ويطلب من الكل أن يحذوا حذوي، وأن لا يتساهلوا بالقانون وحقوق المواطن من قبل أي متلاعب مهما كان مركزه . .

في مرة من المرات التي أشاد به فيها قال الأستاذ غانم بأن اهتمام الوزير بما يقوم به ما هو إلا لأنه كان يأمل أن في استطاعته إزاحة النائب المستقوي عليه بصلاته الواسعة .

فعلا استقبله الوزير هاشا باشاً برغم لفتات الحذر مخافة من عيون النائب . مع أن مدير مكتبه قد أبلغه بأنه في أمان . قال لوضاح بأن مشروع دفن النفايات التي قلبت كل شيء رأسا على عقب . قد تلغى . وإن تمت فهي ليست بالخطورة التي يتصورها! برغم الحفاوة والترحيب الحار بوضاح إلا أنه قال له : «لا يمكن أن تقابل المسؤول الأول عن طريقي» ونصحه بإبعاد الفكرة عن رأسه لأن ذلك لن يتم مهما حاول . وهذا ما حدث فعلا . لم يقابل المسؤول الأول حتى يتمكن من ترك رسالة .

منـــزل الذكـــريـــات

بعد أن أعياه اللف مع ردفان الذي سلم له أمره . عاد إلى منزله ووجد زوجته وقد أفرغت حقائب السفر . . برغم أنه كان قد أبلغها بأن اليوم هو آخر عهد له بالوزارة والجامعة . . بعدها لم يعد أمامهما سوي توديع الأهل وتسليم مفتاح البيت لأصحابه . . عادت إلى ذاكرته ما رواه الأستاذ مطهر موظف الأرشيف عن صديقه عبد الرحمن الذي لم يكن له هم إلا تسليم عهدته قبل أن يغادر البلاد .

وجد نفسه في موقفه تماماً الفرق بينهما كان بيت العائلة القديم كان هو وأخته قد فكرا في بيعه لكن والدتهما رفضت برغم السعر المغري الذي كان قد عرض عليهم . مع أنه منزل قديم وفي حي شعبي والشارع الذي يؤدي إليه ضيق ولا تستطيع العربات المرور منه والدته كانت تصر على أن يقضوا كل يوم جمعة معها في ذلك المنزل القديم المليء بالذكريات بالنسبة لها . أطفاله حتى من قبل مجيء التوأم كانوا يشتكون من السلالم المرتفعة التي لم يتعودوا عليها . لكن اشتياقهم لجدتهم يسهل صعودهم محملين بالفواكه والمرطبات . الدكتور وضاح وأخته . كذلك لهما ذكريات جميلة . لكنها ليست مثل ذكريات الأم التي انتقلت إلى ذلك المنزل في سن صغيرة . تزوجت والده وهي في الخامسة عشرة من عمرها وعاشت مع الأم والأب والأخوة سنوات عديدة وتعتبر تلك الفترة، أحلى سنوات عمرها . جالت كل تلك الذكريات في رأس الدكتور وضاح وهو ينظر إلى والدته وهي تساعد زوجته على إفراغ

الحقائب والكراتين وإعادة الأشياء إلى مواضعها السابقة. كان قد اتفق مع الجميع على السكن مع والدته حتى يتم سفرهم، وفي نفس الوقت يطيب خاطرها ويسافر وهي راضية عنه. ستسعد بسكناه وزوجته وأولاده معها حتى ولو أيام معدودة. كان يعتقد بأنه قد تمكن من إقناعها بسفره. لم يدرك بأنه الخوف على حياته هو الذي دفعها لحثه على سرعة السفر. حاول معها ومع زوجته أن يعدوا ترتيب الحقائب. خلال النقاش الحاد كانت ابنته أروى قد عادت من المدرسة، اقتربت من جدتها وكلها فرح. وهي تزف الخبر للجميع بأنها أبلغت زميلاتها والمدرسات والمديرة بأنهم قد ألغوا فكرة السفر نهائياً. تبتسم زوجته وتخبره هي الأخرى بأنها قد عادت إلى عملها في وزارة التربية دون متاعب. وأنه صار من السهل عليه أن يلتحق بمكتب المحامي الذي كان قد عرض عليه العمل قبل أن يلتحق بالوزارة..

هكذا حاولت أن تثنيه عن السفر أو تأجيله بعد أن اطمأنت بأن حياته لم تعد معرضة للخطر. زوجها الذي تغير وتذبذبت ثقته في نفسه وبعلمه وبالسنين التي ضيعها في دراسة القوانين والفلسفة التي ترى اليوم أن الفلسفة هي السبب في العبث بأفكاره وتشتيتها لم تشك في ذكاء زوجها وقدرته على التصرف بحكمة في هذا الظرف العصيب...

بينما أمة العلي تسرح بأفكارها كان يسند ظهره على الحائط وهو يستمع لحوار مسموع لوالدته التي كانت تعبر عن فرحتها بإلغاء السفر وتداعب الأطفال. لم يكن منه إلا أن صرخ صرخة عبر فيها عن كل ما يجيش في صدره من ألم وحسرة.

لم يحترم وجود والدته. نهر زوجته وأمرها بإعادة حزم الحقائب. فما كان من والدته إلا أن قالت له: «كل ما تعانيه ما هو إلا من عنادك وتمسكك بمبادئ انتهى عصرها وولى. لم يعد هناك من يتمسك بها غيرك. إنك لا تختلف عن أمك في شيء. أنا تمسكت بمنزلنا القديم ورفضت بيعه حين عرض علينا ذلك السعر المغري، وأنت ترفض العمل في جامعة خاصة أو مكتب محاماة. الفرق الذي بيننا هو أنك تريد الهجرة والهروب من الواقع وأنا متمسكة به خاصة بعد أن زال الخطر فلم يعد أحد يهدد حياتك»..

كظم غيظه ودنا من والدته يقبل يديها ويطلب منها أن تنصح زوجته بعدم الخوف من الغربة حتى لا يسري ذلك للأولاد ويؤثر عليهم ويخافون من سفر لابد منه..

* يا ولدي. لن يكون وضعكم في الغربة أحسن من وضعكم هنا صدقني..

* هل يرضيك يا أمي أن يصبح وضعي هكذا خائفاً ومهدداً من قبل أناس كنت أتصور بأنهم أول من سيقف إلى جانب الحق ولا يقبلون هذا التسيب وهذا الفساد الذي يسري مثل النار في الهشيم.

* أنت لست في موقع المسؤولية التي تمكنك من التصدي لهؤلاء عديمي الضمير لقد سعيت جهدك في مواجهة الفساد. . وهذا يكفي.

* لا يمكنني السكوت. .

* حسناً فعلت بتركك العمل. حتى يرتاح ضميرك. ابحث عن عمل يكون بعيداً عن الدوائر الحكومية إذا كان هذا يرضيك. . المهم هو أن تبقى هنا. .

تدخلت زوجته قائلة: «أنت تحمل شهادات عالية تمكنك من أن تعمل في وظيفة غير حكومية وتكسب أحسن وأكثر من الوزير الذي باع ضميره في آخر عمره. أنت في عمل خاص لن تحتاج لرفقة ردفان الذي من أجلك يضطر لمجاملة المسؤولين ونفاقهم بدلا عنك وباسمك في محاولة لإيقاظ الضمائر الخربة. . ردفان هو الآخر هل يرضيك الأسلوب الذي يتبعه في حياته؟ سمعتك أكثر من مرة تنتقده على الطريقة التي يعيش بها بدون هدف. كل همه هو أن يقال عليه أن له صلة قوية مع المسؤولين ويتصور بأنه عن طريقهم سوف يسهل أمور أصدقائه الذين يضيقون به وبقوة طباعه لكنهم حين يضيق بهم الحال يلجئون إليه عله يتمكن من مساعدتهم بعد أن أغلقت الأبواب في وجوههم. هأنت صرت تركن إليه وأصبحت واحداً من أصدقائه الذين يلجئون إليه حين تواجههم مصاعب. هل تذكر صديقكم المشترك الدكتور نشوان؟ وتذكر الجهد الذي بذله ردفان كم ظل يلاحقه باتصالاته. لم يكن يغضب أو يقاطع إذا أقفلت السماعة في وجهه، يعيد الاتصال بكل طيب خاطر. هل سأل أحدكم نفسه سؤالا واحداً ما هي الفائدة التي استفاد منها ردفان بصلاته الواسعة بأصحاب المراكز؟ لا شيء. وظيفته في وزارة الخارجية لم تتغير منذ أن عرفناه وهو في نفس الدرجة. حيناً يعينوه ملحقاً اقتصادياً في بلدان معظمها ليس بيننا وبينها أي تعامل اقتصادي. ويتم نقله قبل نهاية المدة بعدها يعود إلى ديوان الوزارة لا عمل له إلا التنقل بين مكاتب الموظفين المهضومة حقوقهم وإيهامهم أن بإمكانه إيصال شكواهم إلى الجهات العليا. لم ينصحه أحد بأن يهتم بشؤونه وبأسرته التي كبرت في غفلة منه وصار له أولاد على وشّ زواج.

والدة وضاح مقاطعة: «تمكن ردفان من أن يساعد في القضاء على الكلاب المسعورة. وقف إلى جانب نشوان بكل شجاعة».

* نشوان قضيته غير قضيتي يا أمي. .

ثم التفت نحو زوجته وقال: «أنا سعيد باهتمامكم بصديقنا ردفان. لكنني لن أقبل أعمل في أي مكتب من مكاتب المحامين الذي ذكرت. كيف لي قبول ذلك وأنا الذي أحاسبهم حين يحاولون تمرير قضية مخالفة للقانون. أمة العلي عليك أن تعدي نفسك للرحيل». . .

والدته بعد أن عاد إليها هاجس الخطر على حياته لم يعد يهمها إلا سلامته. قالت: «إذا قبلت البقاء وعملت في عمل خاص، من يضمن لنا بأنهم سيتركونك في حال سبيلك؟ سيحاربونك في أي عمل.. سوف تظل تهمة الوفاء تطاردك أينما كنت.

قالت زوجته لماذا هذا التشاؤم يا عمتي وأنت الذي كنت المتفائلة دوماً؟

والدته تهمس في أذن أمة العلي «هل تعتقدين أنه من السهل إيجاد عمل حر هنا دون أن يخاف صاحب العمل سواءً كان في مكتب محاماة أو في جامعة خاصة من الشبح الذي يسعي إلي تحطيم وضاح وتلويث سمعته»!

الدكتور وضاح بعد صمت طويل خلال اقتراحات زوجته بالبقاء والبحث عن عمل بعيدا عن الدواوين الحكومية وبين والدته التي تريد سلامته قبل كل شيء قال: «هل نسيتم بأن التحاقي بهيئة التدريس في الجامعة لم يتم إلا بواسطة وليست الشهادات؟ يعود ويتذكر عبدالرحمن والوسائط التي ذكرها مطهر موظف الأرشيف. يقول لزوجته ووالدته: «نعم عملي في الجامعة لم يتم إلا بواسطة. مع أني كنت أعتقد أنها شهاداتي. ويضيف. تعرفين ذلك جيداً يا أمة العلي. لا أنكر أن الواسطة تمت دون علمي إلا أنني قبلت العمل على أساس شهاداتي وخبرتي.. لكنني بعد أن اكتشفت بأنه لولا الواسطة ما كنت تمكنت من إيجاد أي عمل أخبرتك بذلك بعد الزواج.. تذكرين يا أمي أنني عدت بعد أن حصلت على الدكتوراه بدرجة امتياز في القانون الدولي وليسانس الفلسفة اليونانية مع الدبلوم في مجال الكمبيوتر.. كانت فرصتي عظيمة ولا زالت سانحة في أن أحصل على عمل يمكنني من أن أعيشكم في أجمل بقاع الأرض وفي أفخم القصور. لكني فضلت العودة. من ضمن الذين شجعوني على العودة هو الوزير نفسه. كذلك عرض تعييني بدرجة أستاذ مساعد مع الحرية الكاملة في اختيار عمل إضافي مع أي مؤسسة دولية. رفضت واخترت العودة.. من ضمن من شجعني إلى جانب الوزير. كان أحد أصدقاء الوالد الذي كان يأتي للزيارة مثله مثل الوزير...

كنت مثل عبد الرحمن تماما. لم يكن لي علم بمركز أي منهما عندما كنت أرافقهم. حتى أنني حينما ذهبت إلى مكتب ذلك الصديق للوالد لم أكن أتوقع بأن له كل هذه السلطة.. ماذا عليّ أن أفعله بعد كل ما لاقيته من مكائد: هل أظل هنا وأموت كمدا؟! أم أن الخيار الآمن هو السفر؟

كان يتجادل مع أمه وزوجته عندما سمع هرج في الشارع. وصوت يقول: «حتى الموت حتى الموت. ارجموها. لا تأخذكم بها رحمة أو شفقة»!

يصغي السمع أكثر يتأكد بأنه يعرف صاحب هذا الصوت . إنه الشخص الذي يراه يتردد كثيرا على الوزارة .

ترك موضوع الجدل وخرج يستفسر السبب الذي جعل الرجل الذي كان يبدو عليه الوقار يهذي هكذا . يخبره أحد المارة همساً بأن ابنة ذلك الرجل قد اختفت في ظروف غامضة . وأنه بعد البحث الطويل عنها ، يبلغه رجال الأمن بأن ابنته هربت مع رجل غريب . . بعدها أصيب بالجنون كما ترى وصار يبحث عنها في الشوارع والأزقة ويتفوه بما سمعت . .

عاد الدكتور وضاح إلى الداخل ووجد أمه وزوجته وأطفاله الثلاثة الكبار يتابعون المجنون من وراء النافذة بنظرات مشفقة . أخذ ابنته أروى وأدخلها حجرة النوم وحبسها دون أن يدري لذلك سببا . . ربما لأنه خشي عليها من المجهول في زمن الاختطافات . لم تعترض أروى أو أمها التي وجدها تودع والدته على الباب . كرر عليها توصيلها بالسيارة . لكنها رفضت مثل العادة . لا تقبل . . تعودت على المشي . لذا كانت تتندر على ابنتها وزوجة ولدها لأنهنّ يفضلنّ ركوب العربات مهما قصرت المسافة . . بعد أن ودع والدته عاد وزوجته للنقاش من جديد ونسيا ابنتهما التي استكانت في حجرة النوم كما أمرها والدها . لم ينته الجدل العقيم حول السفر أو البقاء إلا بعد أن سمعا أحد التوأم يطلب الطعام . الدكتور وضاح برغم سعادته بالتوأم إلا أنه لازال يعتبر أن مجيئهما كانت مؤامرة من والدته وزوجته التي يصعب عليه حالها خاصة بعد أن رفضت الاستقالة من عملها في وزارة التربية . كانت تعتمد على حماتها وأمها في تربية أطفالهما الثلاثة . وبعد أن رزقا بالتوأمين طلب منها البقاء في المنزل ، ولكن والدته كانت تقف له بالمرصاد . تقول له : «أنت الذي اخترت زوجة جامعية ومثقفة ولها الحق أن تعمل مثلها مثلك . ولا تنس بأنك الذي اخترت لها العمل» .

من هنا عادت زوجته لعملها بعد الوضع بثلاثة أشهر . وكانت حياتهما علي ما يرام حتى كان حديث الصفقة وما قد يترتب عليها . بعدها لم يعد يطيق الحياة مع هذا الأسلوب الذي لن يرتضيه مهما كان ، بعد أن يئس من مقابلة المسؤول الأول . فجأة خبط كفه برأسه . . تذكر أن بعض ما لديه من أوراق العمل الرسمية لم يسعفه الوقت حتى يسلمها لأصحابها والجهات المعنية . . أخبر زوجته بأن عليه أن يسلمها لأحد الزملاء الذين يثق في نزاهتهم تذكر ابنته التي حبسها , دخل إلي غرفة النوم حتى يطيب خاطرها . وجد أروى وقد استغرقت في النوم . بعد أن وجد أن كل الأبواب قد أوصدت في وجهه وكل هذا الفشل الذريع الذي لم يكن يتوقعه . اقتنع بأن لا فائدة ، كف عن المحاولة ولم يعد يتردد على الوزارة أو أي مصلحة حكومية . لم يطل اعتراض والدته وزوجته على السفر بعد أن ساءت حالته وصار معرضا لمس من الجنون بعد أن سدت كل الأبواب في وجهه دون أن يتأكد بعد بأن الصفقة الملعونة قد

ألغيت. لم يعد لأمة العلي هم إلا أن تأخذه وتسافر به بعيدا وبعيدا جدا، وجدت نفسها وزوجها وأطفالهما الخمسة في طائرة تغادر مع الساعات الأولي من الفجر. من نافذة الطائرة ألقت نظرة أخيرة على صنعاء. وجدت دموعها تنحدر على خديها. قالت لنفسها في لهفة ورجاء: «اللهم اجعله خيرا وسفرا قصيرا وبعده عودة محمودة». مضت الساعات بطيئة حتى سمعت صوت المضيفة يعلن الاستعداد للهبوط. لتبدأ مع أسرتها حياة جديدة في الغربة.

الذبح على الطريقة الإسلامية

كان الدكتور وضاح قد عدل عن السكن في واشنطن والعمل بالتدريس في جامعة «جورج تاون» لم يكن لأمة العلي دور في اختيار البلد الذي ارتحلوا إليه أو المكان الذي آوت إليه الأسرة. الأمر كله كان لوضاح. تبعته راضية بقسمتها حتى يشعر بالأمان وأن النائب وزبانيته لن يلاحقوه فيه. لم تعترض على السكن في ضاحية من مدينة نيويورك هذه المدينة الكبيرة التي لا أحد فيها يعرف جاره أو يسأل عنه. لم تبد أي اعتراض على المنزل الضيق الذي لاتدخله الشمس إلا في أيام معدودة في السنة. صحيح، به كل الكماليات التي كانت تحلم بها في صنعاء إلا أنها بلا روح. أولادها الكبار فرحوا بالبرامج المتنوعة في التليفزيون وتساقط الثلوج على السطح والنوافذ والطعام الجاهز والحلوى. في يوم الوصول كان في استقبالهم مندوب جامعة «كلومبيا» هذه الجامعة التي سعت حثيثا لعودته إليها في اليوم التالي للوصول جاء لزيارتهم رجل كهل رحب بهم أجمل ترحيب ثم اصطحبه إلى عمله الجديد القديم في الجامعة. عاد الدكتور وضاح والساعة التي في معصم أمة العلي تشير إلى الخامسة. كان قد تم تغيير وقتها في المطار عبر إدارة عقاربها إلى الخلف ثماني ساعات.

* * *

ذبـــح حـــلال

على امتداد الطريق من المطار إلى السكن الذي استأجرته الجامعة لزوجها في إحدى ضواحي مدينة نيويورك، ظلت أمة العلي تشاهد تلك الأبنية الشاهقة، والشوارع الواسعة، وحركة المرور المنتظمة برغم الزحام. لا أحد يتذمر أو يفكر في مخالفة السير. عربات الإسعاف وحدها هي التي تطلق الأبواق لكي يفسح لها الطريق. كذلك لاحظت كثرة عربات الشرطة التي تمرق بين فينة وأخرى، وتسبب إزعاج أكثر من عربات الإطفاء والإسعاف. كلما

اقتربت عربة وضاح وأسرته من الحي الذي اختير لسكناهم، زادت كثافة عربات الشرطة وضجيجها. . وكلما اقتربوا أكثر، تشاهد اللافتات التي تقول بالعربية. ذبح حلال. شاورمة. فلافل. فطائر، أفلام، صحف، أمة العلي لم تخف امتعاضها من تشويه الأحرف العربية ووضعها بهذه الطريقة العشوائية. ابتسم زوجها. هو الآخر لفتت نظره تلك اللافتات. ولكنه لم يعلق. . بعد يومين بحثت عن تلك الدكاكين التي تستغل الأحرف العربية الجميلة وتكتبها مشوهة بين الهندية والأردية والفارسية. وجدت أنه من الصعب عليها الاستغناء عن الدجاج واللحوم التي يدعي الباعة ذبحها على الطريقة الإسلامية، بينما زوجها الذي عاش سنوات في هذا البلد ينصحها بالابتعاد عن الشراء من تلك الدكاكين التي لا تهتم بالنظافة.

كل شيء يوحي بأن أصحابها يتركونها خصيصًا بهذه الفوضى. تقول له: «أين الرقابة» التي نسمع عنها؟ أين مفتشو الصحة المفروض قيامهم بواجبهم؟ كيف يستثنون هذه الدكاكين ويتركونها وأصحابها دون رقابة أو تفتيش؟! يقول لها ضاحكا: هكذا هي الحياة في هذه المدينة الصاخبة. يتركون الأحياء التي يقطنها الوافدون من العالم الثالث بلا عنايةلكي لا يشعر أصحابها وزبائنها بالغربة. العبارة العربية الوحيدة التي ينطقها الباعة مكسرة هي: «كله هلال». اللوحة الصدئة المعلقة فوق باب هذا الدكان تقول «محل عربي».

الدكتور وضاح تحت إلحاح زوجته وفرحتها بالعثور على دكان يبيع اللحم الطازج المذبوح على الطريقة الإسلامية وجد نفسه داخل المحل. ألقى نظرة على الصحف الموضوعة بدون ترتيب على رف تعلوه الأتربة السوداء. المجلات والجرائد العربية كلها مبعثرة هنا وهناك بدون ترتيب. وفي زاوية أشد قذارة وظلمة تطل مجلات بالأحرف اللاتينية وعليها صور خليعة.

حاول أن يثني زوجته ويصرفها عن شراء احتياجاتهم من هذا المحل؛ الذي كان يخيل له أنه ما ترك بهذه القذارة وبدون رقابة، إلا لكي يظل كل من يتردد عليه يشعر أن بينه وبين العالم الغربي الذي يريد الذوبان فيه؛ مسافات بعيدة. من الصعب اجتيازها.

وبينما كانت زوجته تتفحص البضائع، وتضع ما يلزمها أمام البائع الذي لا يعرف استعمال المستحضرات التي تزيل رائحة عرق الإبطين، ويتحرك هنا وهناك بجلبابه المتسخ الطويل حتى الركبة أو يزيد، وفي كل حركة متكاسلة يعبث بلحيته التي تحتل نصف صدره بدون تشذيب، وبين حين وآخر يؤكد أن كل ما في دكانه «هلال في هلال».

لم يتمكن وضاح من سحب زوجته من ذلك الدكان الذي يذكره بكل السلبيات واللامبالاة التي يمقتها. زوجته برغم ما عانته من خوف على زوجها وما كابدت وما تلقته وزوجها من

ظلم وجحود . . إلا أنها ظلت بخيالها وعقلها وروحها معلقة بالوطن، تنهدت بحرارة وهي تتذكر الأسباب التي دفعت زوجها إلى العمل في هذا البلد. تتذكر محاضراته في الجامعة. لم تكن تخلو من الكلمات التي تحث على الصبر والتحمل من أجل الوطن وأهله . . بعد أن انتهت مشترياتها الحلال كان وضاح قد انتزع صحيفة عربية ووضعها مع بضاعة زوجته أمام البائع. وهو يعزي نفسه بأنه استفاد من مرافقة أمة العلي لأنه وجد صحيفة عربية. لا بأس ولو أنها قديمة. وجدها بصعوبة وانتزعها من بين الإيرانية والأردية.

في طريق العودة إلى السكن بالسيارة الجديدة المريحة التي وضعتها الجامعة تحت تصرفه، بالإضافة إلى سداد إيجار السكن سنة كاملة، يقول لأمة العلي: «ها هو أخيرا السكن الذي تتوافر فيه كل الكماليات التي كنت وأمي تطلبين مني الحصول عليها.

صادف وصول الدكتور وضاح وزوجته وأولادهما الخمسة أعياد السنة الميلادية. الأشجار والنوافذ معظمها مزينة بالأضواء الملونة البراقة. لم ينتظر الدكتور وضاح حتى تفتح المدارس أبوابها، ذهب وزوجته ليطلع على المكان الذي توجد به المدرسة التي تم تسجيل الأولاد فيها من قبل الجامعة. في إحدى زياراته صحب ابنته أروى التي فرحت بمدرستها الجديدة.

ابنته أروى تختلف كثيراً عن أمها. كلها فرح وسعادة بالهجرة، من أول يوم لوصولهم وهي تعبر له عن سعادتها وفرحتها حين تتساقط الثلوج وتغطي أسطح المنازل لا تخفي دهشتها بكل جديد حولها. كلها تطلع لمعرفة المدينة وسكانها.

برغم شعوره بضياع الأحلام وجهل المصير، إلا أنه حرص على أن لا يؤثر ذلك على زوجته وأولاده الذين لا ذنب لهم فيما صارت إليه الأمور . . وجد بأن عليه أن يخفي كل معاناته من الاحباط مجددا وما تعنيه الغربة. في طريق العودة إلى المنزل أشارت أروى إلى سيدة أجنبية تنظر إليها وتحييها من بعيد، وهي تحمل في يدها سلة مليئة بالورود، قالت له «إنها السيدة التي حدثتك عنها وعن محاولتها الحديث معي بالأمس ولم أفهم كل ما قالت. بصعوبة أدركت أنها تريد معرفة اسمي ومن أي بلد نحن. لم أفهمها واكتفيت بالابتسام. إنها سيدة لطيفة وبشوشة انظر إنها تحيينا وكأنها تعرفنا! ألا تراها أنها تتقدم نحونا. تعال نرد تحيتها ونخبرها من أي بلد نحن، وأنني ابنتك ولي ثلاثة أخوة وأخت أصغر. حاول الدكتور وضاح الانشغال بتنظيف الثلوج التي تراكمت على زجاج السيارة، بينما أروى مشدوهة بتلك السيدة التي تريد التعرف عليهم. تحاول إقناعه بالتقدم نحوها أو برد تحيتها ولو من بعيد. أو يدلف

إلى العربة بدلا من أن يحرجها مع هذه السيدة البشوشة . . سبب تردد الدكتور وضاح في عدم رد تحية السيدة يعود إلى الصدفة البحتة التي لم يكن يتوقعها بعد مرور أكثر من تسعة عشر عاما تقريبا . . إنه يعرفها . كانت تعمل في مكتبة الجامعة بواشنطن، وكانت تطمع بالزواج منه . ولكنه أفهمها بأن ذلك لن يتم . ليس لأنها أكبر منه في السن قليلا . السبب هو أنه يريد العودة والاستقرار في وطنه الذي قد لا يروق لها العيش فيه والتقيد بعاداته وتقاليده، وانتهت القصة هنا ولم تعد تلاحقه . وفي إحدى الرسائل المتبادلة بينه وبين صديق من زملاء الدراسة أخبره بأن «ملدرد» تزوجت برجل إيطالي يصغرها ببضعة أعوام، وأنه أي الصديق دعي لحفل الزفافَ الذي كان في إحدى الكنائس الضخمة وبعدها انتقلت وزوجها إلى مدينة «لوس أنجلوس» في ولاية كاليفورنيا . . حين كانت أروى تسحبه نحوها كان يسأل نفسه ما الذي جعلها تترك لوس أنجلوس وتأتي إلى نيويورك وإلى هذه الضاحية بالذات؟! أروى لم تتح له الفرصة للتفكير إذ كيف عرفت هذه السيدة أنها ابنته . صحيح الشبه بينهما كبير . وضاح يسأل نفسه : كيف يتصرف حيال هذه الصدفة الغريبة؟ أروى لازالت تجره نحو السيدة التي تقول عليها بشوشة . . فعلا هي بشوشة ومرحة ولم تتغير كثيراً . قبل أن يحسم الأمر وكيف يقدمهما لبعض، كانت ابنته قد تركت ما كان بيدها واستوت نحو السيدة بابتسامة عريضة زادتها أشعة الشمس الصباحية صفاءً ونقاء .

أروى تتقدم نحو السيدة وهي تتلفت إلى الخلف لتتأكد بأن والدها يتبعها . لم تعد تهتم بكتل الثلج التي بدأت تذوب شيئًا فشيئًا من أوراق الشجر، وتسيل في قطرات متتابعة كلما ارتفعت حرارة الشمس الربيعية في هذه المدينة التي سلبت عقلها وجعلتها تنسى دموع جدتها وتشبثها بالتوأم ليلة الوداع .

السيدة تتقدم نحوهما بابتسامة عريضة وتنظر إلى وضاح الذي لازال مرتبكا ولا يرد التحية . . لم يمنعها ذلك من التقدم بكل ثقة . وضعت الورد على مقدمة العربة، ومدت يدها لتسلم على الفتاة وتعرفها باسمها وتنظر للأب الذي يبدو أكثر خجلا من ابنته التي تنظر إليها ولوالدها الذي مد يده مصافحا ملدرد قبل أن تتاح له الفرصة؛ حتى يشرح لابنته المعرفة السابقة . وجد نفسه يتمتم باسم ابنته التي لم ترتح للطريقة التي تصرف بها مع هذه السيدة البشوشة وهو اللطيف المبتسم دوما، وهو الذي يحثها وأخوتها على رد التحية بأحسن منها . . لماذا يتحدث هكذا باقتضاب؟! بعد أن جاء بهم إلى هذه المدينة التي لا يعرفها ولا يعرفون لغتها، أو عادتها وليس لهم فيها صديق أو قريب . .

بعد التحية والسلام رأت السيدة تفتح حقيبتها وتخرج ورقة وقلما وتكتب شيئًا على ورقة تناولهاوالدها، وقبل أن تنصرف وقفت قرب سيارته، وقطفت زهرة حمراء من الباقة التي تحملها بيدها اليسرى وتقدمها لها.

لعدم فهمهما لما يدور من حوار مقتضب بين والدها والسيدة ، شغلت نفسها بإزاحة كرات الثلج عن زجاج السيارة، ثم راحت تفكر: ما الذي حدا بوالدها المجيء لهذه المدينة.. لم تتمكن من معرفة السبب. كل الذي تتذكره مجرد كلمات الحوار الذي دار بين جدتها وأمها وعمتها، بعدها سمعت والدها يقول: «لا يا أمي لن أستطيع البقاء هنا. عليّ أن أرحل قبل أن أفقد عقلي».

بعدها وجدت أمها حزينة باكية تذرف الدمع، وهي تحزم الحقائب وتودع أسرتها. لم تكن ابنة الدكتور وضاح قد تجاوزت التاسعة من عمرها، إلا أنها عند وداع مدرستها وزميلاتها في المدرسة التي تحمل اسمها «أروى» شعرت بأن هناك حدثًا مهمًا جعل والدها يسحب أوراقها من المدرسة. وفي اليوم الثاني تجد نفسها في طائرة تبتعد عن الوديان والجبال، وترتفع فوق السحب مخلفة وراءها أهلا وأحبة تراهم في مخيلتها وفي دموع تجري على خد الأم.. سبأ ونشوان. برغم انبهارهما العفوي بالتحليق فوق السحاب. إلا أنهما يدركا الحال. في الطائرة حاولت أروى أن تنشر شيئًا من المرح وسط أخواتها الذين تراهم حيارى بين دموع الأم وصمت الأب، هي الوحيدة بين أمها وأبيها وأخواتها التي كانت تعاني دون أن تدرك السبب الذي جعل والدها يصر على الرحيل، تاركا وراءه أمه الباكية وكل أحلامه وتطلعاته التي لم يكن ينفك عن ترديدها. لم تتمكن من معرفة كل الأسباب التي جعلته يفر بهم.

ظلت ترقب السيدة وهي تبادل والدها الحديث بالإنجليزية. حتى رأته يضع حقيبة الأوراق تحت إبطه الأيسر، ويمد يده للمرأة التي سبقته في مد يدها للمصافحة الحارة. الذي لم تفهم أروى مغزاه.. السيدة دون مقدمات بادرت والدها قائلة: «أسعدني الحديث مع ابنتك الصغيرة الذكية». طال الحديث وهي ترقب السيدة التي أخذت سبت الورد، وقبل أن تنصرف اقتربت منها وقرصت خدها وهي تحيي الأب.

ابتعدت عنهما وهي لا تزال تحدّق بهما والابتسامة العريضة تكسو تقاسيم وجهها الأبيض، وعيناها الزرقاوين وأشعة الشمس تزيد من زرقتهما. ولأن أروى لم تفهم شيئا راحت تواصل انشغالها بإزالة كرات الثلج. وكانت قد تعودت على منظر تغيير لونه، وكيف

يتحول من البياض إلى الرمادي بعد ساعات من هطوله. كانت شغوفة به في البداية. في أول يوم لوصولهم رفضت الدخول إلى المسكن، وفضلت البقاء في الخارج، وظلت وأخواتها الكبار يتقاذفون بالثلج الناعم ويصخبون. حتى بعد تغير ملمسه الناعم، وتحول من لمس القطن الناعم إلى كتل صلبة، رغم أن حرارة الشمس التي كانت مرتفعة في ذلك الصباح. ظل محتفظًا بتماسكه وهو يغطي أسطح المنازل وأغصان الأشجار ومظلات النوافذ، وقد ذاب بعضه وحفر له أخاديد متعرجة تهرع نحو الأسفل، وتجرف معها الوريقات الصفراء الصغيرة المتساقطة من الأشجار العالية، وتصب بتكاسل في ساقية ضيقة تنحدر من الرصيف بهدوء نحو حفرة تحتل زاوية الشارع. هكذا اعتادت أروى على تأمل ما حولها. تتفحص الأشياء وتحاول أن تجد لها تفسيرا. وربما من هنا لفتت اهتمام السيدة البشوشة!

حال دخولهما إلى المنزل بادر الدكتور وضاح إلى مساعدة زوجته في ترتيب الشقة. التي تتكون من غرفتين للنوم، وحمامين وصالة، وبها ركن فيه مطبخ صغير وطاولة طعام ومكان لكنبة وكرسيين. لم تعترض زوجته على ضيق المكان، كلما كانت تتمناه هو أن لا تطول الغربة..

شكوك حول ملدرد

بعد لقائه وأروى بملدرد التي لا علم له كيف وضعتها المقادير جارة له وأسرته. بعيدا عن الأولاد وبالذات أروى أخذ زوجته جانبًا وأخبرها بأنه قابل السيدة التي تحدثت عنها أروى يوم أمس. كان قد سبق له بعد زواجهما أن حدثها عن الفتاة الأمريكية التي كانت تريد الارتباط به. وكان تعليق زوجته آنذاك تعليقا ساخراً إذ قالت: «من منكما رفض الآخر؟» لكنها اليوم بعد أن أخبرها باللقاء، كادت أن تشك بأنه كان على تواصل مع تلك المرأة، وربما كان قد أخبرها بفكرة السفر من خلال الرسائل.. ثم عادت تناجي نفسها: «إذا كان وجودها هنا صدفة كما يقول. فأنا لا أعتقدها مجرد صدفة من قبل الذين رتبوا لنا هذا السكن. لابد أن لهم مصلحة.. ثم استجمعت شجاعتها وقالت لوضاح. لا شك أننا نجهل طباع هؤلاء الغرباء، بالتأكيد لهم مصلحة في تركك العمل بالوزارة والمجيء هنا للعمل في الجامعة!

أجابها مندهشا: أي مصلحة يا أمة العلي؟! يبدو أننى وأنت نعاني من حالات المرض بالشك.

قالت: ألا تلاحظ اهتمامها بكل تحركاتنا! لم تعد تكتفي بالحديث معك وأروى. صارت

تعترض طريق سبأ ونشوان ولا تتركهما إلا حين تأتي حافلة المدرسة. حسنًا إذا لم يكن هناك من رتب لهـا السكن بجوارنا. قـد تكون هي التي سعت لذلك. إذا لم تكن أنت أو أحـد أصدقائك أخبرها بعودتك، قد تكون حصلت على المعلومات من الجامعة. ألم تقل بأنها كانت تعمل هناك؟ الشك يراودني بأنها لازالت متعلقة بك. .

من أين تأتـين بهـذه الأفكار يا أمة العلي. . أخاف أن يدفعك الفراغ إلى أفكار وتخيلات لا تتناسب مع ثقافتك وثقتك بنفسك وبزوجك الذي لم يهف قلبه أو يهيم بسواك. . لعلمك ملدرد هذه لم تكن تعمل في جامعة كولومبيا. بل في جورج تاون بواشنطن.

كان الدكتور وضاح قد عاد شيئاً فشيئاً إلى توازنه. حالة الشك كان قد برئ منها لم يعد ذلك الموسوس. لذا قال لأمة العلى: «لا أتصور بأن هناك أى ترتيب لوجودها. لقد أخبرتنى أنها انتقلت إلى السكن هنا منذ عام، وتعمل فى مصلحة البريد، وأن لها ولدين وزوجها يعمل فى شركة أغذية تستورد الأطعمة الإيطالية. . وعندما تتعرفين عليها سوف ترتاحين لها. وأضـاف ضاحكاً: «إنما فى عمـر والـدتك وليس بينك وبينها أى مقارنة لا فى العقل ولا فى الجمال، ثم إننى زوجك وأحبك ووالد ما أنجبت من صبيان وبنات!».

ملدرد أكبر من أمة العلى بكثير. ولكنها ليست من عمر والدتها. فعلا المقارنة صعبة بينهما. ملدرد فارعة الطول وبرغم أنها تتسم بالنحافة الزائدة إلا أن أطرافها ممتلئة وضخمة وتبدو خشنة. بشرتها حالكة البياض ولها عينان زرقاوان وتضع نظارة سميكة تجسم الخطوط والتجاعيد حول العينين، مما يجعلها تبدو أكبر سنا إلى جانب الهالات السوداء التى يزيدها سواداً بياض بشرتها. .

أمة العلى تعتبر طويلة ولكن إذا قورن طولها بطول ملدرد. أمة العلى متوسطة القامة. صافية البشرة تميل للبياض، ولكن إذا قورن بياضها بملدَرد فأمة العلية تعتبر قمحية اللون. ليس هناك أى مقارنة بينهما وهذه السيدة التى بعد أن توَطدت العلاقة بينها وبين أسرة الدكتور وضاح، صار الأولاد ينادونها «مس ملدرد» حسب رغبتها. هكذا قالت لهم بأنها تفضل مناداتها «بالآنسة». .

أروى التى لازلت تسميها السيدة البشوشة. تقول لها ولكنك يا مس ملدرد: «متزوجة ولديك أطفال»

قالت نعم لكنني احتفظت باسمي كما تفعل النساء عندكم. لا تتغير أسماؤهن بعد الزواج أليس كذلك ؟

يعود الدكتور وضاح إلى نفسه ويحدثها : «ما الذي عاد بي إلى هنا مرة ثانية؟» ألم يكن قبول أحد العروض التي كانت تعرض عليّ من الجامعات الخليجية أفضل من الشكوك التي بدأت تطاردني حول علاقتي السابقة والمتجددة بملدرد؟

يوما كان يصطحب أروى فى طريق العودة من مدرستها وحمد الله أن ملدرد لم تعترض طريقهما، وفى نفس الوقت يتمنى أنها قد قابلت زوجته وتحدثت معها كَي يزول شك أمة العلي بأنه كان هناك ترتيب. ثقته عميقة بأن زوجته واعية ولن تفكر فيما قد ينغص حياتهما وتبني على شي لا وجود له. .

يعود ويتذكر اليوم الذي عاد فيه إلى منزله بعد اليوم الطويل من المعاناة والجري بين المؤسسات والدوائر الحكومية. عله يجد من يقف إلى جانبه ويوقف الصفقة المريبة، وكيف استقبلته زوجته والرعب تبوح به عينيها. لكنها تصرفت تصرفا ينم عن رجاحة العقل، ما الذي غيرّها وجعلها تعود إلى عناد الصبا وأوهام ليس لها ما يبررها!؟ لعله الفراغ هو الذي دفعها لذلك التصرف الذي لم يكن يتوقعه، ولم يكن يتصور بأن الصدفة البحتة التي جعلت سكن (ملدرد) بجوارهم سوف يدفعها إلى الشك الذي لا مبرر له. نعم إنه الفراغ. . ، لذا يجب أنَ تعمل أمة العلي كما كانت في اليمن. يتذكر كيف استقبلته بعد ذلك اليوم العصيب الذي واجهه في الوزارة. كيف هونت الأمرَ عليه وكانت عونا له بعد أن خذله الجميع. في ذلك اليوم المشؤوم كانت أمة العلي قد عرجت على بيت والدته، وعادت بالتوأمين الصغيرين فاطمة وعبدالرحمن. تناولت الملف من يده مثل العادة ووضعته على الطاولة الخشبية المرتفعة التي تحتل الركن الأيمن من باب المنزل. . ثم فتحت ذراعيها تحتضنه وكيف أرادت أن تزيح همومه ولم تجد ما تقوله، وهي تصطنع الفرحة وتخبره بالنبأ السعيد، وإنها حصلت أخيرا على الترقية من وزارة التربية. أرادت أن تخفي عليه ما تعاني هي الأخرى من وطأة الواسطة والمحسوبية. في السابق عندما كانت تأتيه شاكية يقول لها: «مع الأيام سوف تتغير الأحوال إلى الأفضل، وينتصب ميزان العدل والمساواة وتكافؤ الفرص. ماذا يقول لها اليوم وكيف يجعلها تملأ الفراغ الذي يحيط بها، وهي النشطة في الأعمال الحزبية والاجتماعية والتطوعية. تأنيب الضمير يحاسبه. . شعر بأنه جنى على زوجته وحرمها من طموحاتها وآمالها التي غرسها فيها

وفي أولاده خاصة أروى، هذه الصغيرة التي نزعها من مدرستها ومن أحضان جداتها اللاتي كن يتنافسن على من منهن تحوز ثقتها وحبها، ومن هي الأقرب لعالمها وتطلعاتها. .

اليوم ها هو الدكتور وضاح في غربته الجديدة يتذكر كل شيء، وينحصر تفكيره في المقابلتين الصاخبتين اللتين لم يعد يفكر بعدهما إلا بالعودة إلى التدريس في مكان بعيد وبعيد جدا. . يعود ويجلد ذاته ويلومها لأنها دفعته للهروب والفرار بدلا من الوقوف والتصدي لأولئك الأشرار الذين يتحكمون بمصير البلاد والعباد. يعود ويراجع نفسه ويقول: «لو أنني وافقت ووضعت إمضائي تحت توقيع الوزير إلى جانب توقيع النائب بأن الهضاب وكل الآكام التي تحيط بالأرض التي استولى عليها صاحب الخنجر الذهبي، كلها ملكًا له. لو أنني اقتنعت منذ البداية بما قاله الوزير. ألم يقل بأن توقيعاتنا وموافقتنا لا تقدم ولا تؤخر بعد أن حصل ذلك الانتهازي على الموافقة من أعلى سلطة في البلاد. لو وافقت كنت جنبت نفسي كل ما حدث». .

يعود لمشاورات الصفقة، ثم يقتنع بما أقدم عليه ويقول «لو عادت بي الأيام لن أتصرف إلا كما سبق لي وتصرفت». يتذكر الوضع المهين الذي تعرض له خلال المقابلة التي وجد نفسه فيها مثل اليتيم على مائدة اللئام. كما لما لم يخطر له على بال. بعدها يبرر هروبه ويفلسفه ويحدث نفسه ويقول. هل كان بإمكاني أن أتصرف أفضل مما تصرفت في المقابلة الثانية للزوار الثلاثة؟! يمكن أني تسرعت ولم أجد وأتحمل كما ينبغي عندما كفرت بكل القيم.

يراجع مواقفه ويحلل ويبرر هروبه ويقول: «نعم عند عودتي لزملائي تحملت تهجمهم وانتقاداتهم للطريقة التي تصرفت بها مع النائب الذي لن يتورع في أن يزيد في طغيانه وجبروته». قالوا إنني أخاف من اللوم وحديث الناس عن فشلي «قد يكونون على حق. لم يكن مني إلا أن قلت لهم: «ليس هناك من بإمكانه كف ألسنة الناس عنه»، عندما عاتبني عبدالباري وقال: «هل كل ما يهمك هو ما سيقال عنك» في مرة من المرات دخل عليهم القاضي أحمد الذي يلقبونه بأحمد بن يحيى. يتذكر أنه قال له: «لماذا يا وضاح لا تتبع نصيحة «الألمعي» ذلك الفيلسوف العربي الذي عدد فوائد الصمت. قاطعه الأستاذ عبدالباري قائلاً نورنا يا قاضي ما هي الفوائد؟ قال القاضي أحمد: «في الصمت عبادة من غير عناء وتعب وحصن من غير حائط وزينة من غير حلى وهيبة من غير سلطان». انهالت التعليقات من زملاء المكتب على القاضي أحمد وليس على الألمعي صاحب المثل أو المقولة. لم يجد الأستاذ

عبدالباري إلا أن يقول للقاضي أحمد: «ولكنك لا تتبع المقولة يا قاضي. . هأنت تأتينا كل يوم وتوزع نصائحك وحديثك المعاد وتمارس هوايتك في النصح والمشورة معنا، بعد أن حرمت من الإدلاء بمشورتك في المكان الذي يجب الإدلاء بها» يقاطع الأستاذ حمود ويقول: «القاضي أحمد يريد أن نمارس المزيد من الخمول والكسل أكثر مما نحن فيه، وينسى أو يتناسى المقولة الثانية للألمعي الذي قال «الكسل أم، ابنها الجوع، ابنتها السرقة، أحفادها الجريمة والفساد».

ظل الدكتور وضاح يلوم نفسه ويعاتبها ويجلد ذاته بعيدا عن زوجته وأولاده الذين وجدهم وقد تأقلموا مع حياة الغربة. خاصة بعد أن التحقت أمة العلي بعمل قد يساعدها على تجاوز مرارة الغربة. بعدها يقول: ها هي قابلت ملدرد وزال شكها وصارت تستعين بها في الحصول على عناوين المتاجر التي لا تضع لحم الخنزير بجانب بقية اللحوم. لم تخف عليها ملدرد بأن تلك المتاجر يتبضع منها اليهود. ترددت أمة العلي، وأخيرا عرفتها بمحل عربي نظيف. كذلك عرفتها على أطباء وشركات التأمين أفضل من الذين كنا نتعامل معهم عن طريق الجامعة. . ولكن هل كل هذا ما كنت أخطط له؟ وهل صحيح هروبي كان بسبب الخوف من أن يقال وضاح لا يريد أن يسمع بأن أحدا يمكن أن يلومه؟!

تأتيه رسائل والدته وأخته وأصدقائه. كلها تتمنى له النجاح والتوفيق في عمله الجديد وطيب الإقامة في البلاد التي لن يتمكن نائب الوزير وزبانيته من النيل منه. بعد كل رسالة تصله ويقرأ ما بين السطور، تعاوده الرغبة في جلد ذاته ويقول. لو عادت بي الأيام هل يمكن أن أجد حلا؟ رسائله مع عبدالباري يسأله عن النفايات وماذا تم بشأنها!؟ تأتيه الإجابة بأن لا جديد. .

الحادي عشر من سبتمبر

الهدوء والسكينة التي أحاطت بالدكتور وضاح وزوجته وأولاده، وتلك الرفاهية التي توافرت في السكن المريح ومدارس سبأ ونشوان، كذلك مدرسة أروى التي صارت أمة العلي إحدى المشرفات بها، والحضانة التي التحق بها التوأم. إلا أن وضاح وأمة العلي كانا في انتظار العودة لأنها قدر لا فكاك منه.

في الرسالة التي كتبها لعبدالباري أخبره بما حدث في البنك الذي قصده مع زوجته لفتح

حساب، ذكر له حكاية اللص الذي أراد سرقة البنك آن ذاك وكيف تمكن من شل حركته بعد أن كان موظفو البنك وزبائنه يرفعون أيديهم في الهواء ليأخذ ما يريد. هو وحده الذي قاوم اللص وتمكن من السيطرة عليه حتى حضرت الشرطة. وكيف أن مدير البنك كافأه بفتح حساب جار له وزوجته بدون فوائد . . في آخر الخطاب لم ينس ختامه بعبارة «لابد من صنعاء وإن طال السفر» كان يقصد كل حرف فيها، الثياب التي تبتاعها أمة العلي من أسواق نيويورك ومحلاتها الكبيرة. لم تكن تشتريها إلا إذا كانت تليق باليمن. وعندما تذهب إلى الحلاقة تحرص أن تقص شعرها بالطريقة التي تروق عند عودتها إلى الوطن. حتى ثياب أولادها تختار منها ما يناسب جو صنعاء وبرودته في المساء والصباح وحرارته في منتصف النهار. بل إنها احتفظت بالكرتون الخاص بغسالة الملابس الأوتوماتيكية حتى تعيدها إلى داخله عندما يحين أوان العودة.

أمة العلي دخلت مدرسة تابعة لجامعة كولومبيا لتقوية لغتها قبل أن تعمل في المدرسة التي التحقت بها ابنتها أروى. تعرفت على العديد من الأساتذة والدكاترة وزوجاتهم من زملاء زوجها في الجامعة، كونت صداقات لا حصر لها مع الجيران ومع الكل. لم يكن حديثها إلا عن الوطن بما فيه ومن فيه. حدثتهم عن حضارة معين وسبأ وحمير، وعن أول ناطحات السحاب في «شبام»، مرة سألتها إحدى المدرسات عن ملكة سبأ هل هي يمنية؟ قالت: «كل الكتب المقدسة تؤكد ذلك. وبلغة بليغة ترجمت لها معاني الآيات الكريمة التي جاءت في سورة النمل عن ملكة سبأ.

حياة الدكتور وضاح وأمة العلي وأولادهما كانت تسير على ما يرام حتى كان ما كان في المركز التجاري العالمي بنيويورك. فجأة يتحول كل شيء إلى كابوس. كان الدكتور وضاح في طريقه إلى جامعة «كولومبيا» يلحق به ولده سبأ ويقول له: «أبي. أبي عد وتفرج على ما يبثه التلفاز! عاد إلى الداخل وجد زوجته وأولاده كلهم عيون تحدق في الشاشة التي تبث صوراً لا تخطر على بال أكبر مخرجي الرعب في «هوليود»، أناس يركضون هنا وهناك. في لحظات تقترب طائرة أخرى وتحلق حول المبنى الذي يحترق وفي ثوان تخترق المبنى الآخر وتختفي وسطه، كان ينهار من أعلى إلى الأسفل مخلفا وراءه سحبا كثيفة من الدخان والنيران والأنقاض. أناس يركضون هنا وهناك.

رنين التليفون في منزل الدكتور وضاح لا يتوقف. جميع المكالمات خارجية. كلها تريد

الاطمئنان عليه وعلى أسرته الصغيرة بعد الأحداث التي لم يكن أحد يتصور حجمها وفداحتها . . من بين المتصلين، كان صديقه ردفان الذي لم يسمع عنه منذ أن غادر الوطن . طمأنه بأن لا شر حوله أو أسرته . . يعيد على مسامعه : «هل أنت متأكد؟ تضحك أمة العلي التي كانت تسمع حديث ردفان عبر السماعة المفتوحة» . تقول مازحة : «هل لصاحبك ردفان أصدقاء ومعارف هنا من ذوي السلطة لكي يتدخل إذا تعرضت لمكروه!؟» .

الاتصالات المتتالية من الأهل والأصدقاء والزملاء، كانت قبل أن تبدأ المضايقات للدكتور وضاح، أو لعائلته الصغيرة التي هجرت الوطن مخافة على عائلها الذي كان مهدداً بالتصفية الجسدية بسيف أصحاب النفوذ مما دفعه للفرار، واتخذ مسكنًا صغيراً في ضاحية من ضواحي نيويورك عندما تسلم المفتاح من مندوب الجامعة اعتقد بأنه وأسرته في مأمن . لم يكن يتصور بأن المتاعب والمضايقات سوف تلاحقه ومن نوع آخر . بعد التفجيرات التي حدثت والاتصالات المكثفة التي جاءت من الوطن ليطمئن عليه أصحابها . صار تليفونه وكل تحركاته مراقبة . يأتيه شخص من المخابرات ويطلب منه بطاقته وصورة الإقامة ورخصة العمل . يقدم له كل البيانات المطلوبة وصورة العقد المبرم بينه وبين الجامعة التي يعمل بها . بعد أن تفحص كل الأوراق سأله : «ما الذي قصده الشخص الذي طلبك منذ يومين . وقال : «والله إنه كسر شرف في أكبر سوق عام»؟ وآخر قال لك «علهم يصحون» ما معنى هذه الكلمات؟! لم يكن من الدكتور وضاح إلا أن ضحك حين تذكر أن ردفان وعبدالباري هما اللذين قالا تلك الكلمات . يتعجب رجل المخابرات الاتحادية لماذا يضحك! ومن ثم يسأله عن الأشخاص الذين كان يعرفهم قبل أن يأتي إلى أمريكا أو تعرف بهم بعد ذلك . قبل أن يرد عليه يوجه له سؤالا آخر عن زوجته، وأين تعمل ثم يقول : «لا داعي أن تجيب، نحن نعرف كل شيء عنك وزوجتك وأولادك، والسبب الذي جاء بكم . مر ذلك الاستجواب على خير، مع أن الدكتور وضاح لم يرد على أي سؤال لأن الرجل لم يكن بحاجة لأي رد . لقد قال له وبكل ثقة «نحن نعرف كل شيء عنك» وقبل أن ينصرف شد على يده وهو يصافحه ويقول : تشرفت يا دكتور بمعرفتك وهذه أول وآخر زيارة . وما قمت بها إلا لمكانتك ومركزك العلمي والمادة التي تدرسها . قبل أن أزورك كنت في زيارة الدكتور سعيد الذي ينتمي لجنسك، ولا ينتمي للدين الذي تنتمي إليه . زيارتي لكما هي للتحذير فقط . أنت على علم بأنك في بلد يهتم بسلامة مواطنيه، ولذلك يدقق في كل الوافدين . . كل الذي أريد أن أخبرك وأخبر كل الذين كانت علامات التشفي واضحة في كلامهم معك بأن شرفنا لن ينكسر» .

جارتهم. ملدرد التي صارت الصديقة الأقرب لأمة العلي هي الأخرى كانت قد شاهدت عربة عليها أرقام رمزية تدل على أن صاحبها إما أنه يعمل في البوليس، أو في مخابرات المدينة. لذا حرصت على التحدث معه قبل أن يغادر الحي. أشرت له وحيته كما سبق لها وحيت أروى لتتعرف عليها ووالدها الذي لم تعد تراه إلا في صحبة زوجته.. ملدرد تمنت لو أنها حضرت اللقاء، ولأنه فاتها، طلبت من الرجل التوقف لأن لديها ما تقوله عن هذه الأسرة العربية المسلمة، وصارت تزكيهم لديه. أمة العلي بعد انصراف الزائر الثقيل صارت تحذر أولادها من الإسهاب في الحديث عن التفجيرات مع جدتهم وأصدقائهم عبر الهاتف. زوجها يؤكد كلامها، وفي نفس الوقت يطمئن الكل بأن لا خوف ويزيد، ويقول لزوجته وأولاده الذين صاروا في هم وقلق. يقول لهم: «أنتم رأيتم الرجل كيف تحدث معنا. أما ما قاله في زيارته الأخيرة فلا يجب أن نلومه. كلنا نعرف بأنهم مجروحون وموجوعون ويعقب ضاحكا: «لا سامح الله ردفان الذي قال إن ما حدث هو كسر شرف أمام الملأ. هكذا هو ردفان وطول لسانه تبعنا إلى آخر الدنيا، وكاد أن يؤدي بنا إلى شر المهالك.. تعود ابنته أروى من المدرسة وتسأله هل الإرهاب الذي يتحدثون عنه هو الإرهاب الذي قتل محمد الدرة؟ يقول لها: «مع الأسف القوم هنا لا يرون إلا ما يصيبهم» ولده نشوان يعود فزعا من المدرسة بمفرده، تسأله أمة العلي عن سبأ يقول لها لقد تركته مع مدير المدرسة الذي يطلب حضور كما على الفور.. دون أن تطلب من ولدها نشوان التفصيل عما حدث، تتوجه مع نشوان إلى المدرسة. في المقابلة غير الودية يخبرها المدير بأن سبأ داخل فصله وفي أول حصة شاغب المدرس الذي طلب من الفصل الوقوف حدادا على ضحايا المركز التجاري ووزارة الدفاع. خلال حديث أمة العلي مع المدير، دخل مدرس الفصل، وقال إن سبأ بدلا من أن يقف مع زملائه بكل خشوع يقول لي: «سيدي. لا تنس شهداء فلسطين». لم يكن مني إلا أن أطلب منه مغادرة الفصل. المدير لم يتح لأمة العلي أن تدافع عن ولدها أو تشرح. بعد أيام تأتي رسالة بأنه قد تم فصل سبأ من المدرسة نهائيا.

ملدرد التي لا زلت أروى تناديها «جارتنا البشوشة» بعد أن علمت بفصل سبأ من مدرسته صارت هي التي تبحث له عن مدرسة قريبة. ولم تمر أيام إلا وقد التحق سبأ بمدرسة أخرى أكبر وأفضل من الأولى.. أمة العلي وزوجها من حين لآخر يتناقشون عن الفوارق المتباينة هنا وهناك. الدكتور وضاح يعيد كل ذلك إلى الحضارة ومستويات التقدم. وأمة العلي تعيدها إلى بساطة الشعب الأمريكي الذي يجعل الوافد الجديد لا يحس بأنه الغريب الوحيد.. أحيانا

تدخل أروى في النقاش وتطرح آراءها وتساؤلاتها. مرة سألت والدها: لماذا نكره الأمريكان، ما هو السبب الذي يجعلنا لا نحبهم؟ ينظر إليها والدها بتأمل ويقول: لقد كبرت يا أروى وصرت تدركين أمورا كثيرة. ولكن ما الذي جعلك تعتقدين أننا لا نحبهم؟

ثم يتذكر الحوار والنقاش الذي دار بينه وبين أساتذة من مختلف الجنسيات. كان هناك من الأساتذة الأمريكيين منفعلين وموجوعين مما حدث لأهم رمز لتقدمهم. من هنا زادوا أكثر تعصبا وعنصرية. ليس ضد العرب والمسلمين فقط، بل وضد كل من جاء حديثا من العالم الثالث.. أحد الأساتذة الأمريكيين الذي لم تكن تبدو عليه العنصرية قبل أحداث سبتمبر، في ذلك النقاش الحاد، انبرى قائلاً: إنكم تحقدون علينا وعلى تقدمنا. بل إن منكم من يكرهنا. بالذات أنتم يا عرب لماذا؟

ولأن الدكتور وضاح هو العربي الوحيد لم يكن منه إلا أن قال: «لم أكن أتصور أن الإعلام الصهيوني تمكن من أن يصل في تضليله إلى النخبة المثقفة. إننا لا نكرهكم أو نحقد على أحد. إن ما بيننا وبينكم من سوء تفاهم، هي قضية فلسطين وما يتعرض له شعبها من تنكيل ومظالم على يد دولة إسرائيل بعلم ومساندة أمريكا» ثم بدأ يشرح السبب، قال: طبيعي إننا لا نكره الشعب الأمريكي الودود، ولكنها إسرائيل والصهيونية هم الذين دفعونا لذلك، لأنهم تمكنوا من أن يضللوا الرأي العام الأمريكي بقوة إعلامهم وتزييف الحقائق وتحكمهما في تسيير السياسة الخارجية لأمريكا وقبضتهما على المسئولين عن سلطة القرار، وأهم مراكز الاقتصاد وسيطرتهم وابتزازهم لكل من يقف إلى جانب الحق والتنوير بحقائق المأساة. يهددونه بالفضائح إذا فكر في حل مأساة شعب فلسطين.

أعتقد أنه من القيم الإنسانية ومن الواجب على المثقفين أنه إذا أتيحت لهم الفرصة أن يشرحوا سبب المآسي التي ترتكب في حق الشعوب المتطلعة إلى التقدم والازدهار بمساعدة هذا الشعب الذي لا يفتى بمناداة الشعوب على التمسك بالحرية والديموقراطية..

يتدخل أستاذ آخر قُدم حديثا من جنوب أفريقيا التي عانى شعبها الأصلي الكثير من الاضطهاد والعنصرية. وله ثقافة عالية ومطلع على كل ما يعانيه الشعب الفلسطيني. قال: «نعم الإعلام الإسرائيلي تمكن من طمس الحقائق وصور العرب في أبشع الصوَر من خلال دعايات مغرضة، والأفلام توحي بأنهم شعوب متوحشة ومتخلفة ولا حضارة أو تاريخ لهم». لم يكن من الأستاذ الأمريكي إلا أن دعا الدكتور وضاح والأستاذ الذي من جنوب

أفريقيا لتناول طعام الغداء في مطعم قريب من الجامعة يقدم الوجبات السريعة. خلال تناول الطعـام بدأ الأمـريكي في شـرح الأسـبـاب التي جـعلت العـديد من مـرشـحي الأحـزاب والكونجرس ومجلس الشيوخ، يقدمون مصلحة إسرائيل على مصالح شعبهم. . بعد الحديث الطويل وتساؤلات وتفسيرات الدكتور وضاح، يتصدر للحديث الأستاذ الأفريقي المطلع على بواطن الأمور. يسأل الأمريكي ويقول: ما الذي يجعل اليهود هم وحدهم المسيطرون على الشـعب الأمـريكي؟ ولماذا ينصـاع هذا الشـعب العظيـم كل هذا الانصـيـاع ويضـحي حـتى بمصالحه، خاصة الذين ذكرت من أهل القرار. يضحون بكل مصالح شعبهم. ليس مع العرب فقط بل ومع كل الشعـوب لماذا يخضعـون كل هذا الخضـوع؟ الأمريكي وهو يرشف القطرة الأخيرة من فنجان قهوته، يجيب بكل صراحة ويقول: السبب «حلم صهيون الأمريكي»، ويضيف منذ البداية قام اليهود وبكل براعة واقتدار على استغلال الفظائع التي حدثت في العالم القديم. . ثم يواصل ويقول: اليهود في الأرض الجديدة قاموا بتوحيد أنفسهم وطالبوا بالعدالة، وكـان بعضـهم من المتطرفين ولكنهم تمكنوا من إخفاء التطرف، وأظهـروا تطرفهم بطريقة جعلت العديد من المهاجرين الجدد يتضامنون معهم عندما ادعوا بأنهم يؤمنون بحقوق الإنسان وخاصة العمال وحقوق النساء في التصويت، وببراعة تامة قاموا بنسج خيوط حياتهم في نسيج المجتمع الأمريكي. اهتموا بأهم مقومات المجتمع الجديد وهي المال والإعلام، وكان على رأسـهـم المنحـدرون من اليـهـود الألمان مـثل عـائلة «باروخ» و«مـرغنتـاو» و«شـتـراوس» وعائلات أصحاب المصارف اليهودية وكبار التجار. مما أوحى للمواطنين البسطاء الاعتقاد بأن اليهود لم يعودوا مصاصي دماء. وأن الوافدين منهم إلى العالم الجديد قد تخلوا عن عادتهم القبيحة الموروثة. . قبل أن يعودوا إلى الجامعة، كان الأستاذ الأمريكي قد نصحهم بقراءة كتـاب اسـمه «عـالم آبائنا» أو the World of Our Father الدكتـور وضـاح شكر الأستاذ الأمريكي الذي هو الآخر يخشى اليهود. وصار يخافهم أكثر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. . الكتاب الذي ذكره كانت أمة العلي قد استعارته من مكتبة الجامعة. الدكتور وضاح وجـد الكتاب لا يتـحدث إلا عن المثاليين من اليـهـود الذين ذهبـوا بعـد سنوات من الأعـمـال الحقـيـرة، مـثل رفع القذارة في جزيرة «منهـاتن» إلى الإنجازات التي حـقـقـوها في مـجـالات الرياضة، وما قاموا به في مساعدة القائمين بحملة حقوق السود المدنية في ولاية «مسيسبي»، وتسجيلهم للانتخابات في الستينيات. ثم يعود الكتاب إلى الحديث عن المهاجرين اليهود الذين مروا بـجزيرة «أليس» في نيويورك، وكيف أنهم اقترحوا أو تعهدوا في أرضهم الجديدة

بأن لا يكون فضها نوى أرض صهيون. وأنهم وصفوا جورج واشنطن بموسى الأمريكي. وأطلقوا على الملك جورج اسم فرعون، وعلى المحيط الأطلسي اسم البحر الأحمر..

بعد ذلك الحديث مع الأستاذ الأمريكي زميله في الجامعة وما قرأه في الكتاب الذي أحضرته زوجته، وتلك الأسئلة التي يوجهها أولاده خاصة سبأ. لم يكن من الدكتور وضاح إلا أن حث زوجته وأولاده على ضرورة التعمق في فهم المجتمع الأمريكي وتركيباته المتباينة وعقائدهم المختلفة ولمحاولة شرح القضية الفلسطينية المعقدة أو المعضلة التي تجعلهم لا يطيقون السياسة المنحازة للكيان الصهيوني..

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، زاد الانحياز لإسرائيل والتأييد لكل ما تقوم به أمام العالم من إبادة وتنكيل بشعب أعزل... التفجيرات التي عصفت بالمركز التجاري بنيويورك ووزارة الدفاع في واشنطن، جعلت العالم كله لا يهتم إلا بما حدث في أمريكا، ومتابعة نشرات الأخبار في التلفاز بشكل جنوني، وخاصة أن العرب والمسلمين تحولوا فجأة في نظر الأمريكان نظاما وشعبا إلى إرهابيين.

خلال الهجوم الأمريكي الضاري على شعب أفغانستان. طلبت إحدى القنوات التليفزيونية من الدكتور وضاح باعتباره أستاذا جامعيا عربيا مرموقا. طلبت منه التحدث عن الانفجارات التي دمرت أهم رموز الولايات المتحدة وخلفت الآلاف من القتلى. ونبه عليه مندوب القناة بأن الموضوع الذي سوف يدور الحديث حوله سيكون مقصورا على ما حدث في نيويورك وواشنطن فقط.. بعد استشارة الأصدقاء ومن ضمنهم زميله وصديقه الذي من جنوب أفريقيا، وافق الدكتور وضاح على المشاركة في البرنامج مرحبا ووعد بالحضور قبل بدء البرنامج بنص ساعة على الأقل، ترك منزله وأمة العلي والأولاد يعدون أنفسهم للجلوس أمام الشاشة، بعد أن بحثوا بين القنوات المتعددة عن القناة التي سوف تبث اللقاء..

في الموعد المحدد كان وضاح يدخل الأستوديو مع بقية المشتركين، وهو على أمل بأن يتطرق الحديث إلى أحداث الساعة وعن الضحايا الأبرياء الذين يموتون بالآلاف وتقصف خيامهم وقراهم في أفغانستان. سبق وقالت له زوجته: «أخشى ألا يتركوك تتحدث إلا عن ضحاياهم فقط» قال لها: «حرية التعبير عن الرأي مكفولة هنا» تقول له: «برغم أنك عشت في الغرب أكثر مني ولكن يبدو أنك لم تفهمه كما فهمته أنا في هذه المدة القصيرة»..

ظل متمسكا بأمل إتاحة الفرصة ليشمل الحديث كل الجرائم التي ترتكب ضد الإنسانية . . على هذا الأمل لبى الدعوة بكل طيب خاطر . . قبل بداية البث المباشر للبرنامج سأله المحاور الذي سوف يدير البرنامج . هل يدين الذين يشتبه بأنهم هم الذين قاموا بالهجوم . قال لمعد البرنامج والمخرج : «أنا وكل من ينتمي إلى الدين الذي أعتنقه ، نأسف لما حدث ونرفض العنف والإرهاب وقتل الأبرياء أين ما كانوا . هكذا يأمرنا الدين الذي نؤمن به» بكل فظاظة يقول له معد البرنامج «لن يكون الحديث إلا عن ضحايا المركز التجاري ووزارة الدفاع» .

اعتذر الدكتور وضاح عن المشاركة في البرنامج ، ورفض الحديث عن موضوع بعينه دون التطرق إلى الأسباب التي أدت إليه . .

في الطريق وهو عائد إلى داره كان يحدث نفسه عن الفروق الشاسعة بين ما رسخ في ذاكرته عن إيمان أمريكا بالحرية والديموقراطية ؛ وبين تجربة الحديث في التلفاز التي كشفت عن ضرب هذه القيم والمبادئ عرض الحائط عندما تتعارض مع مصالح أمريكا!

مدير المحطة وهو يودعه في باب المصعد ، ظل يتأسف له عن عدم مشاركته في البرنامج ، ويعده بأن يناقش مع زملائه ما قاله عن الإسلام الذي يرفض الإرهاب وقتل الأبرياء . . ويعده بأن يتيح له الفرصة في برنامج آخر بعد أن تهدأ تداعيات التفجيرات وهكذا . . بعد أن تمكن الأمريكان ومن تحالف معهم من إنهاء حكم «طالبان» ، وتعيين حكومة موالية وتم أسر العديد من رجال القاعدة وترحيلهم إلى مستعمرة أمريكية في «كوبا» يقاومون بعد أن تمكن بعض المجاهدين العرب من التحصن في أحد المستشفيات في «أفغانستان» ومعظمهم من اليمنيين الذين ظلوا لمدة سبعة أسابيع . لم يكن قوتهم سوى الماء . لكنهم لم يستسلموا . ظلوا يقاومون إلى آخر طلقة وآخر نفس . .

عند إذ فوجيء الدكتور وضاح بدعوة نفس القناة للإدلاء برأيه بكل صراحة ووضوح على الملأ وأبلى بلاءً حسنًا ، وشاهده الملايين من المتفرجين على تلك القناة ذائعة الصيت ، دون أن يقاطعه أو يهدده أحد ، وهو يعرض مواقف الإسلام وقيم العرب التي تأبى الإرهاب ، وراح يتهم إسرائيل بأنها التي تمارس إرهاب الدولة ضد الفلسطينيين . انتهز الفرصة ليوضح الفروق بين الإرهاب وحق الشعوب في مقاومة الاحتلال . . عاد الدكتور وضاح إلى منزله وأسرته بعد تلك المقابلة التي شاهدها العديد من الأمريكان . عاد بعد أن ودعه معد المقابلة والمسؤول

عن البرنامج الذي لم يتركه. طول المسافة من غرفة البث المباشر ظل يشد على يده وهو يقول له: لقد شرحت موقف العرب والإسلام من الإرهاب بكل وضوح. أهنئك على ذلك «بقى يحدثه ويستفسر عن مواضيع لم يتطرق لها خلال البث المباشر. يقول له «كنت تريد أن تتحدث عن العراق وما يعاني الشعب هناك، ولكن مقدم البرنامج لم يتح لك الفرصة كما وعدتك». يشكره وضاح ويقول له: هل هناك فرصة ثانية لتكملة الحديث؟ يرد عليه بشيء من الحذر وهو يقول: «نحن معدو البرنامج ومقدمه على استعداد لاستضافتك، كما أننا على استعداد تام لتلقي العديد من الانتقادات ورسائل التهديد التي ستصلنا بعد هذا البرنامج الحافل. لم يتركه إلا عند باب المبنى. وهو يصافحه قال له: عليك أنت أيضًا أن تكون على استعداد لما قد تتعرض له!ولم يعقب. . .

الدكتور وضاح لم يأخذ ذلك التحذير المبطن بالجدية التي كان يجب في طريق العودة إلى منزله، ظل يحدث نفسه ويقارن بين حرية الرأي هنا وهناك. وكيف أنه برغم ضيق وقت ومقاطعة مقدم البرنامج، إلا أنه تمكن من دحض الأفكار التي يروج لها الإعلام المعادي للعرب والإسلام.. طول المسافة التي تفصل بين جزيرة «منهاتن» وحي «كوين»، وهو يحدث نفسه، كيف أن كرامته لم تمس.. لكن فاله خاب، إذ سرعان ما لاحقه الأذى أشكالاً وألوانًا، فقد صنفته الأجهزة الأمنية معاديا لأمريكا وسياستها، فيما انهالت عليه الرسائل البريدية وعبر الفاكس والإنترنت، تتوعده بسوء المصير وتحضه على العودة، من حيث أتى باعتباره شخصًا غير مرغوب فيه. وعلى غرارها تلقى أشكالا من الوعيد والتهديد عبر المكالمات الهاتفية، مضايقات أولاده في مدارسهم خاصة ولده سبأ الذي صار كل يوم والثاني يعود مضروبًا أو يتم استدعاء ذويه إلى المدرسة أو قسم الشرطة. حتى جيرانه الأمريكيين امتنعوا فجأة عن تحيته وأسرته أو رد تحياتهم، في الجامعة المفروض احترامها لتقاليد الحوار وحق الاختلاف، إذا بزملائه الأمريكيين تنتابهم حالة من العنصرية الشوفينية، وتعمد إظهار العداء لكل ما هو عربي أو إسلامي. والذي زاد من خيبة الدكتور وضاح أنه كان من بين أولئك العنصريين، أساتذة كبار ومن ضمنهم الأستاذ الذي كان إلى وقت قريب وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، يشرح له وزميله الأفريقي، المخططات التي يتبعها اللوبي اليهودي. وما يحز في نفس وضاح ويؤلمه أكثر هو أن معظم المثقفين الأمريكيين على اطلاع تام بالخطة الصهيونية التي رسمت بدقة قبل وبعد التفجيرات، وكيف أرادوا توريط العرب والإسلام، وكيف أن ثلة من العرب والمسلمين بقسط أو بغباء تعاونوا معهم.. كل من يتناقش معه

الدكتور وضاح من العرب الذين يحتلون مراكز علمية مرموقة. كلهم يعانون ما يعاني. لم يعد هناك فرق عند الأمريكان. في إحدى المرات التي تعرض فيها ولده سبأ للمسألة من قبل البوليس بدون حجة أو سبب يذكر، إلا لأنه عربي اتصلت أمة العلي بزوجها ليحضر، لم أوراقه على عجل ليتوجه إلى قسم الشرطة الذي ذكرته زوجته. بدون مقدمات يأتيه الأستاذ الأمريكي الذي له معه نقاشات طويلة. فجأة يقول: له سوف آتي معك في الطريق يعتذر له عما يلاحظه من جفوة من في الجامعة وما تعانيه أسرته من متاعب. تشعب الحديث إلى الموقف الحضاري من قبل الأساتذة زملائه. ثم تطرقا إلى ما يبثه الإعلام من دعايات مغرضة. ثم يقول لا تنس يا وضاح أن الحدث كان أكبر من أن نتخيله. يقول له الدكتور وضاح: نعم إن الذي حدث لشيء محزن، وقد يجر العالم إلى حروب يعلم الله متى تضع أوزارها. ويضيف وضاح: يبدو أن أصحاب مصانع السلاح هنا لا يريدون أن لا تنطفئ الحروب، طالما أن هناك أسلحة جديدة يجب تجربتها، كما حدث في حرب الخليج الثانية. . إلى جانب اللعبة التي تلعبها الشركات الأمريكية الكبيرة التي تريد السيطرة على اقتصاد العالم بمن فيه وما فيه من بترول، بدءا من أمريكا الجنوبية إلى بحر «قزوين» مروراً بالشرق الأوسط الذي صارت ثرواته مضمونة منذ الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠م.

يقول له الأستاذ الأمريكي: «هل تتصور يا وضاح ماذا كان سيكون الوضع لونجح «قور» والمرشح لنائب الرئيس السناتور «جوليبرمان» ذلك اليهودي! الدكتور وضاح لم يكن يتوقع من هذا الأمريكي الذي يكون حديثه المنفرد معه، يدل على بغضه بل وكرهه لسياسة بلاده المنحازة لإسرائيل، لكنه في العلن يقول غير ذلك!

في مرة قال له إن نجاح «بوش الابن» أحبط المحاولة لوصول اليهود إلى سدة الرئاسة. ثم يتراجع ويقول: «بوش لم ولن يتمكن من إحباط اليهود سوف يكون أكثر رضوخا لمطالبهم مخافة من المصير الذي واجه والده، وكذلك الفضائح التي تجرعها «كليتنون» الواحدة تلو الأخرى. . خلال بعض أحاديث الأستاذ الأمريكي مع الدكتور وضاح يجعله يتذكر حماس ولده سبأ واهتمامه بالسياسة. لكن وضاح لا يقول له كما يقول لولده «لا أريدك أن تنشغل بما قد يعطلك عن التحصيل».

يقول ولده «لكنني يا أبي أريد أن أعرف السبب الذي يجعل الشعب الأمريكي يخاف من اليهود ويقدم مصالحهم على مصالحه، ولماذا اليهود هم وحدهم المسيطرون؟!».

يتعجب وضاح من تطابق نظرة ولده للسياسة الأمريكية ودهاليزها، ونظرة الأستاذ الأمريكي . .

لم يصل وضاح إلى قسم الشرطة إلا بعد أن تم الإفراج عن سبأ وبقية زملائه من التلامذة العرب، ومن تضامن معهم في الخناقة التي حدثت في ساحة المدرسة . . تم الإفراج عنهم بعد تحقيقات مطولة وأسئلة فوق طاقة تلاميذ لم يتعد أكبرهم الخامسة عشرة من عمره . معظم الأسئلة لم تكن على الخناقة . كانت عن أسامة بن لادن .

الدكتور وضاح شكر الأستاذ الذي ضحى بوقته الثمين، وجاء معه وأفضى له بطيب خاطر الكثير من المعلومات والأسباب التي تجعله وبقية العرب والمسلمين يواجهون المتاعب . .

ملدرد هي الوحيدة التي لم تقاطع أسرته مثل بقية الجيران . حين أخبرتها أروى بأن والدتها تم إبلاَغها من المدرسة بأن سبأ تم احتجازه من قبل البوليس . وأنها ذهبت بمفردها إلى القسم . لذا عند وصولهم السكن كانت ملدرد على عتبة بابها لتطمئن كما قالت! لم تنفك عن تحذير سبأ ونشوان بأن لا يدخلا في منَازعات مع زملائهم في المدارس، ولم تنس أن تحذرهما سبأ بأن بعض التلاميذ يحملون السكاكين الصغيرة وشفرات الحلاقة، وقد يستعملونها . .

من ضمن المضايقات التي لم يعد يحتملها الدكتور وضاح هي أنه يوما دخل قاعة المحاضرة، وإذا به يتسمر أمام مفاجأة لم يكن يتوقعها في مثل هذا المكان، وتعمد إظهار العداء حتى في أهم صرح أكاديمي . كانت صورة بن لادن معلقة على أحد الحوائط البارزة في القاعة، وقد كتب تحتها عبارة «اللعنة على كل من ينتمي إلى جنس وديانة بن لادن» .

لمح عدد من الأساتذة الكبار وهم يمرون من أمام اللوحة مرور الكرام دون أن يعلق واحد منهم أو يحتج . . تواصل مع بعض المفكرين العرب وجدهم كلهم يعانون ما يعاني . . أحدهم قال له : نعم يا وضاح، هذه هي أمريكا وهذا وجهها القبيح . . ثم يستدرك محدثه ويقول : ولكن أنت آخر النازحين من عالمنا الذي نترقب العودة إليه! لقد خذلت فيه وتعرضت لكل أنواع الهوان . لم يعد أمامنا يا وضاح إلا الاختيار بين أهون الشرور . إما أن نتحمل ما يواجهنا هنا من تحقير وما ينتظرنا وأسرنا من متاعب إلى جانب زيارات مفتشي ومفتشات الشرطة الفيدرالية، أو العودة إلى زنازين أقطارنا . . الدكتور وضاح وعى الدرس وحزم أمره وحقائبه وقرر العودة مهما مست وأهينت كرامته من قبل أهله، ومهما وجهت له التهم ولُفقت التقارير ومحاولة ضعاف النفوس تجريده من الوفاء لأغلى وطن يتمسك به . .

أجّل الرسالة التي كان بصدد وضعها في صندوق البريد لتصل صديقه عبدالباري . فضها وكتب في حاشيتها جملته التي يكتبها في كل رسالة يوجهها لأهله وأصدقائه وزملائه، وعادة يختمها «لابد من صنعاء وإن طال السفر» وضع الجملة على رأس الصفحة وفي حاشية الرسالة، وهو يقصد كل ما تعني وتحمل من معان . .

تمت . .

صفحة فارغة

الفهـــرس

رقم الإيداع ١٤٤٩٧/٢٠٠٢
الترقيم الدولى 5 - 0849 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس.٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥٠ (٠١)